
كتابي
54
فلورنس باركلي
المسبحة
الجزء الثانى
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

المسبحة

(الجزء الثانى)



ملخص ما جاء بالجزء الأول

كانت النبيلة « جين شامبيون » قبلة شباب المجتمع اللندنى الراقى ، لا لحسبها ولأنها أخت دوقة ميلدرم ، ولا لجمالها ، فانها كانت ذات ملامح عادية ، خالية من اى جمال صارخ ، وإن كانت ممشوقة القوام ، ملتفة الجيد .. وإنما كان الشباب يعجب برقة أخلاقها ، ولطف سجاياها ، ومرح روحها ، وذكائها الفائق .. وكانت الفتاة تدرك هذا الواقع — الذى كان جديرا بأن يحزن نفس أية فتاة أخرى — وترتضيه. لذلك كانت دهشتها بالغة ، عندما عرض عليها « جارث دالمين » — الفنان، الذى أوتى ثروة ومواهب وجمالا — الزواج. فقد سمعها « جارث » وهى تغنى اغنية « المسبحة » ، فاذا به ينفذ خلال مظهرها الخارجى إلى أعماق نفسها وروحها ، ويدرك أنها جوهرة لا مثيل لها ، ويلمس فيها كل ما كان ينشده.

وتفكر « جين » طويلا ، فلا تملك إلا أن تعترف بأن « جارث » كان يصغرها سنا ، وكان باهر الجمال ، ذائع الصيت ، واسع الثراء ، تتهافت عليه أجمل حسان المجتمع الراقى .. وكان فوق ذلك مشغوفا بالجمال ، يسعى دائما إلى أن يحيط نفسه بكل جميل . فتخال أن زواجا يجمعهما لن يكون موفقا قط ، وأن طول المعاشرة لن يلبث أن يفتح عينى

« جارث » على دمامتها .. لذلك ترفض يده ، ولا تجد علة تبديها له، سوى صغر سنه ، وأنه فى نظرها .. «مجردغلام»!

وتشتد بها الحسرة وتباريح الحب ، فلا تلبث أن تقوم برحلة حول العالم .. وفى مصر ، ترى النيل يجرى بين الصحراء والخصب ، فترى أن من الممكن أن تعيش مع«جارث» على هذا النسق .. افتقار إلى الجمال — فى التركيب البدنى — يقابله غنى عاطفى ، وعقلى ، وروحى .. وتقرر أن تكتب له ، ولكنها تفاجأ بنبأ فقدانه الابصار نهائيا ، فتسرع إلى لندن ..

والآن ، تابع أحداث هذه القصة المشوقة ..

الجزء الثانى

فاسترد الدكتور حديثه — فى الحال — وانحنى إلى الامام ، واخذ يديها المعقودتين فى يديه ، وقال : « سامحينى ، إذا كنت قد أخذت الأمر بشىء من الهزل والخفة .. ان كل ما لدى من فكر واهتمام طوع امرك . ولكن دعينى الآن أوجه إليك بعض الأسئلة : كيف قدر لك ان توفقى إلى إقناع « دالمين » بأن أمرا كهذا كان عقبة كؤودا أمام زواجكما ؟ » .

— اننى لم أبد هذا كسبب يبرر رفضى .

— إذن فما هو السبب الذى بنيت عليه رفضك الزواج منه ؟

— سألته عن عمره !

— جين !.. وانت واقفة بجواره أمام الهيكل ، حيث جاء ليتلقى الرد منك ؟

— نعم . لقد تجلت بشاعة ذلك ، عندما قلبت الأمر على وجوهه بعد ذلك . ولكنه أجدى !

— لست أشك فى أنه قد أجدى .. وبعد ؟

— أخبرنى أن عمره سبعة وعشرون عاما .. فقلت له اننى فى الثلاثين من عمرى، واظهر كما لو كنت فى الخامسة والثلاثين، واحس فى نفسى باننى فى الاربعين .. كما قلت له بأنه قد يكون فى السابعة والعشرين ، ولكنه يظهر كما لو كان فى التاسعة

عشرة ، كما اعتقد انه كثيرا ما يشعر بانه فى التاسعة من عمره !

— وبعد ؟

— عند ذلك قلت له اننى لا استطيع ان اتزوج مجرد غلام !

— وهل انصاع وقبل هذا ؟

— لقد لاح — فى بادىء الأمر — أنه صعق .. ثم قال ان من الطبيعى الا استطيع الزواج منه ما دمت اراه بهذا الوصف .. وقال انها المرة الأولى التى فكر فيها فى شخصه بالنسبة لهذا الأمر .. ثم أضاف انه يحنى رأسه أمام قرارى . وسار مغادرا الكنيسة ، فلم نلتق بعد ذلك !

فاجابها الطبيب : « يدهشنى انه لم يكشف ما انطوى عليه قرارك يا جين .. فانت لم تتعودى الكذب حتى يتوقع منك أن تكذبى — وانت على عتبة الهيكل — على الرجل الذى احببته بكل قواك ! » . وهنا كسا وجه جين احمرار قاتم ، وقالت : « أواه يا دريك .. لم يكن ما ذكرت كذبا بمعنى الكلمة .. بل أنها كانت أكذوبة بغيضة من النوع الذى « بعضه صدق » ، والذى يصفه تينسون بانه : مسألة تشق مغالبتها ! » . فاكمل الطبيب الأبيات الشعرية :

« الاكذوبة التى هى كذب محض .. يمكن صدها ومغالبتها مباشرة .

« أما الأكذوبة التى بعضها صدق ، فمسألة تشق مغالبتها ! » .

وقالت جين : « نعم .. ولذلك فانه لم يقو على مغالبتها لأن بعضها صدق .. فهو يصغرنى بثلاث سنوات ، وهذا الفارق فى العمر ، يضاعفه الفارق فى الطباع والمزاج .. وكان شبابه المرح النضر ، هو الذى جعلنى أخاف نضوجى ورصانتى .. كان بعضها صدقا يا دريك ، ولكن الشطر الأكبر كان كذبا .. وزادها كذبا أن دعوته « مجرد غلام » ، وهو الرجل الذى شعرت برجولته الكاملة ، وانه سيد سيطر على ، فى الليلة السابقة .. ولم يقو على مغالبتها كذلك ، لأنه أخذ على غرة . فقد كان طيلة الوقت بعيدا عن الشعور بنفسه ، بقدر ما كنت انا اعانى كمدا من الشعور بنفسى .. كان كل تفكيره قاصرا على ، فى حين كان تفكيرى منصبا عليه وعلى نفسى ! » .

فقال الطبيب : « لقد استحققت كل غصة مما عانيت منذ تلك اللحظة ! » . فأحنت جين راسها ، وقالت : « أعرف ذلك » .

ـ لقد خدعت نفسك ، ولم تكونى صادقة مع حبيبك ، فسلبت كلا منكما الآخر وغششته . أو لا ترين الآن خطأك ؟.. لو انك اخذت الأمر على ابسط احتمالاته ، لتبينت أن دالمين ـ وهو العابد للجمال ـ قد اتخم من جمال الوجوه ، حتى تقززت نفسه .. كان كصبى صانع الحلوى ، الذى يباح له كل ما يشتهى من الكعك والحلوى ـ عندما يلتحق

بالعمل ـ فيأكل فى الأسبوع الأول كثيرا جدا ، إلى حد انه يشعر بعد ذلك بالتقزز من كل حلو ، ولا يقبل سوى الخبز والزبد .. لقد كنت لدال الخبز والزبد ، وارجو أن تسامحينى إذا كان هذا التشبيه لا يرضيك !

فابتسمت جين وقالت : « بل ان التشبيه يعجبنى » . بينما استطرد الطبيب قائلا : « بل انك كنت أكثر من ذلك بكثير يا فتاتى العزيزة .. كنت فى نظره مثلا أعلى للمرأة ، وقد آمن إيمانا عميقا بقوة شخصيتك ، وحنانك ، وكياستك ، وظرفك ، وصدقك .. وإذا بك تحطمين هذا المثل الأعلى ، وتهدمين ذلك الايمان .. ان طبيعته الخيالية ، الفنانة ، المتوثبة ـ بكل ما فيها من إمكانيات عاطلة ، ومن إيمان وإخلاص ووله ـ قد وجدت فى حبك مرفأ وملاذا امينا ، فاذا بك ـ فى اثنتى عشرة ساعة ـ تلقين بكل ذلك فى قاع اليم .. لقد كان ما فعلته جريمة ، يا جين .. وقد تجلى ما للرجل العزيز من قوة رائعة ، فى المسلك الذى سلكه عقب ذلك ، فان نجاحه فى فنه لم يقف عند حد ، بل أنه ـ على العكس ـ بلغ حد الاعجاز ، ولم يجرفه اليأس إلى زواج جنونى فاشل ، ليهزأ بذلك من آلامه .. ولا إلى الزواج من أخرى مجردة من الجمال، إمعانا فى الكيد لك!.. كان فى مقدوره أن يفعل الأمرين ـ أقصد أيا منهما ـ وعندما أتمثل الشاب المسكين ـ الذى كنت بجانبه بالأمس ـ يصارع دياجير الظلام فى شجاعة نادرة، ويقلب راسه على الوسادة ليقول ، وقد اشرق وجهه النحيل بنور الأمل : « وحيث تكون أنت مرشدنا فلن يكون ثمة

مرض » .. كلما فكرت فى أنه قد تعرض لكل ذلك من جرائك أنت يا جين ، تمنيت لو انك كنت رجلا لالهب ظهرك بالسياط»!.

وبسطت جين كتفيها ، ورفعت رأسها بكثير مما عرف عنها — من قبل — من شمم ، وقالت : « بل انك جلدتنى فعلا يا فتاى ، بما لا تقوى سوى الكلمات — الصادرة عن حنق صادق — ان تأتيه ، وها انذى احس براحة من جراء هذا الألم .. والآن ، يحسن بى أن أخبرك بأننى — بينما كنت فوق قمة الهرم الأكبر — رأيت المسألة فجأة ، من زاوية أخرى . انك تذكر — ولا ريب — ذلك المنظر الذى تطل عليه من فوق قمة الهرم ، والخط الحاد الذى يقسمه ، فمن ناحية النهر : الخضرة والعشب والثمار كأبدع حديقة محدودة .. ومن الناحية الأخرى : بيداء شاسعة لا تدرك العين مداها .. حرية ذهبية طليقة ، ممتدة حتى الأفق ، فلا نبات ، ولا أمل فى خضرة ، وانما جدب ، واقفار ، ووحدة ، ووحشة .. لقد شعرت لدى رؤيتها بأن هذه الحال صورة كاملة لحياتى التى أحياها الآن ، فإن حب « جارث » — إذ يتدفق فيها كالنهر — يستطيع أن يحيلها « نعيما » حقا .. كان كفيلا بأن يحد من حريتى ، ولكنه كان — فى الوقت ذاته — يعنى نهاية وحدتى .. لا سيما وأن حرية الفرد فى أن يحيى لنفسه فقط ، تتحول مع الزمن إلى عبودية مملة !.. وتحققت — عند ذلك — بأننى قضيت عليه — هو الآخر — بهذه الحياة المجدبة القاسية . وهبطت فاستشرت أبا الهول العجوز . ولاح لى أن تلكما العينين الساجيتين ، الحكيمتين ، المتطلعتين إلى عالم

الغيب ، تقولان : « انما يعيش حقا ، أولئك الذين يحبون !». وفى تلك الليلة عقدت العزم على إلغاء رحلتى إلى أعالى النيل ، وعلى العودة فورا إلى بلادى . فاستدعى « جارث » وأعترف له بكل شىء ، وأسأله أن يدعنا نبدأ — نحن الاثنان — من جديد ، من حيث انتهينا منذ ثلاث سنوات مضت — فى ضوء القمر — فى شرفة قصر (شمنستون) .. ولم ينقض على هذا التصميم عشر دقائق ، حتى فوجئت بسماع الخبر المفجع !».

وعند ذلك ظلل الطبيب عينيه بيده ، وقال بصوت منخفض: « ان عجلات الزمن تسير دائما إلى الأمام ، ولكنها لا تعود مطلقا إلى الوراء ! » . فصرخت جين : « أواه يا دريك .. انها تعود فى بعض الحالات ، وأنت وفلاور تعلمان ذلك » . فابتسم الطبيب بأسى وقال لها فى رقة وحنان : « أعرف أن هناك استثناء واحدا لكل قاعدة ! » .. ثم أضاف مسرعا : « على انه مما يساعد على اصلاح الأمر — بلا مراء — ما كان من اتجاه تفكيرك ، إذ كنت قد اعترفت بخطئك — قبل أن تعلمى بعمى دالمين — وعقدت العزم على أن تركنى إليه ! » .

فأجابته جين : « لست موقنة تماما من اننى كنت مخطئة ، ولكننى كنت قد اقتنعت تماما بأننى لم أعد أستطيع العيش بدونه دقيقة واحدة ، ولذلك عولت على المجازفة . أما الآن ، فان الحادث الذى جرى لفتاى المسكين ، قد محا كل شك أو حاجة إلى تساؤل .. وهذا مما ييسر الأمور فيما يختص بتلك الناحية بالذات ! » . فحدق الطبيب فى جين ورفع حاجبيه فجأة ، وسألها : « ييسر الأمور !! »

وإذ بدا على « جين » أنها كانت مرتاحة إلى ذلك التعبير ، فلم تحاول أن تزيده إيضاحا ، نهض الطبيب عن مقعده وأخذ يحرك نار المدفأة . وظل فى موقفه لحظات ، مستغرقا فى تفكير عميق . حتى إذا عاد إلى مقعده ، كان صوته هادئا جدا ، وإن بدت لهجته متحفزة بدرجة جفلت لها « جين » ، فشعرت بأن حديثهما قد بلغ مرحلة حاسمة .. وقال لها الطبيب : « والآن يا عزيزتى جانيت ، لعلك تنبئيننى بما انتويت عمله » .

فأجابته جين : « عمله ؟!.. وهل هذا موضوع تساؤل ؟.. سأذهب توا إلى جارث ، وانما أريد منك أن تبصرنى بخير الوسائل لانبائه بحضورى ، وبما إذا كان من المأمون أن يتعرض للانفعال الذى يثيره وصولى !.. ثم اننى لا اريد أن أتعرض لأن يحجزنى الأطباء والممرضات عنه ، فان مكانى إلى جواره ، ولست ابتغى فى الحياة خيرا من أن اكون بجانبه دائما ، ولكن الموكلين بغرف المرضى يكونون ـ عادة ـ ذوى عقول جامدة ، ولن تكون المضايقة محتملة فى مثل هذه الظروف .. أن برقية منك كافية لتمهيد الموقف » .

وقال الطبيب فى تأن : « أجل .. حقا ، أن برقية منى تفتح لك طريقا إلى فراش جارث دالمين ، ولا شك . ولكن ، ماذا يكون بعد وصولك إلى هنالك ؟ » . فارتسمت على شفتى « جين » ابتسامة رقيقة ، حنون ، لمحها الطبيب فأشاح برأسه توا . فما كان له ـ ولا لأى رجل ـ أن يرى هذه الابتسامة .. وكانت العينان اللتان يحق لهما رؤيتها قد فقدتا الابصار إلى الأبد !

ـ ماذا بعد ذلك يا دريك ؟.. ان الحب خير من يعرف ماذا يكون بعد ذلك . فسوف تنهار كل الحواجز ، وسأبقى وجارث معا !

ولدى سماع ذلك ، التقت أطراف أصابع الطبيب بعضها ببعض ، وسكت لحظة .. وحينما تكلم ، كانت لهجته معتدلة، مترفقة . فقال : « آه يا جين ، هذه هى وجهة نظر المرأة . وهى بلا ريب ابسط وجهات النظر ، وقد تكون أفضلها .. ولكنك ستواجهين عند فراش جارث وجهة نظر الرجل ، ولن اكون أهلا للثقة التى تضعينها فى شخصى إذا لم أصارحك بهذه الحقيقة الآن .. فان تصرفك المخطىء منذ ثلاث سنوات ، يضعك الآن ـ من وجهة نظر الرجل ـ فى مركز يكاد يكون متعذر العلاج .. فاذا أنت ذهبت الآن إلى جارث تهبينه حبك ـ وهو الكنز الثمين الذى سألك إياه منذ ثلاث سنوات ، وفشل فى الظفر به ـ فمن الطبيعى أنه سيأخذ هذا الحب على أنه فى جوهره عطف ، وليس جارث دالمين بالرجل الذى يتقبل العطف والشفقة حيث أراد أن يظفر بالحب ففشل !.. كما أنه لن يسمح لأية امرأة ـ لا سيما تلك التى كانت مثله الأعلى فى المرأة ـ أن تربط نفسها إلى عماه ، ما لم يستوثق من أن هذا الارتباط مبعث سعادة عميقة .. فكيف تنتظرين أن يقبل هذا الاعتقاد ، أمام الواقع الذى يتمثل فى أنك رفضته وأقصيته ، عندما كان أسمى ما يشتهى قلب المرأة ؟!.. أما إذا شرحت له سبب الرفض ـ وهو ما لا شك فى أنك تنتوين عمله ـ فسيكون رده الوحيد : « أنك لم تثقى فى إخلاصى

عندما كنت متمتعا ببصرى .. وها انتذى تأتين وانا أعمى ، ولم اعد املك أن اثبت لك وفائى .. ما من خير فى وضع تمليه الحاجة والضرورة ، ولن أشعر بأننى حائز لثقتك ، لأنك لم تأت إلا حين أعجزنى حادث عن القدرة على إتيـان ما كنت تخشين وقوعه ، أو عن إثبات اننى فوق مستوى ارتيابك !..

هذا هو الموقف ـ يا بنيتى العزيزة ـ من وجهة نظر الرجل.. من وجهة نظر جارث ـ ولا ريب ـ اكثر مما هى من وجهة نظرى أو نظر اى شخص آخر ، فاننى أوقن أن « جـارث » أشد منى اعتزازا برجولته . ولو اننى كنت مكانه فى الكنيسة ـ يوم رفضت قبوله ـ وكنت أرغب فيك بقدر ما كان هـو راغبا ، لركعت عند قدميك مستعطفا ، وأعدا بأن أكون أكبـر سنا مما تعتقدين .. اما جارث دالمين فقد أوتى ارادة حديدية مكنته من أن يستدير وينصرف ـ دون اى احتجـاج ـ حين رأى المرأة التى كانت طوع بنانه فى الليلة السابقة ، ترفضـه ـ فى الصباح التالى ـ متعللة بعدم لياقته .. إننى أخشى الا يكون ثمة نزاع فى وجهة النظـر التى سـيتخذها فى الموقف الحالى ! » .

وتفتت قلب الطبيب لما رآه من امتقاع وجه جين ، وهى تقول : « ولكن يا دريك .. أنه يحب .. » .

ـ ولمجرد انه « يحب » ـ يا بنيتى العـزيزة ـ فانه لن يقبل ، فيما يتعلق بك ، الا الحد الأقصى !

ـ أواه يا فتاى !.. ساعدنى !.. افتح لى منفـذا !.. نبئنى بما أستطيع أن أفعل !

وتجلى القنوط فى عينيها ، فمكث الطبيب يفكر ـ فى صمت ـ طويلا ، ثم قال اخيرا : « لست أرى سوى مخرج واحـد من هذا المأزق .. إذا أمكن إقناع جارث بطريقة ما ، بأن وجهـة نظرك فى ذلك الوقت كانت مستسـاغة ـ دون أن يعرف أنها كانت السبب الفعلى لرفضك ـ وتسنى له أن يعبر عما يخالج ضميره فى وضوح ـ لى مثلا ـ بحيث يصـل حـديثه إلى مسمعيك ـ دون أن يكون مقصودا أن يصل إلى مسمعيك ـ فقد يجعلك هذا فى موقف أفضل من ناحيتك . ولكن هذا عسير التنفيذ .. لو انك استطعت أن تكونى على اتصـال مباشر بعقله ، وأن تكونى بجانبه دائما دون أن يراك ـ آه ، ياصديقى المسكين ، فان هذا ميسور الآن ! ـ انما أقصد أن تكونى بجانبه دون أن يفطن إلى شخصك .. فاذا أمكن مثلا أن تتخـذى شخصية الممرضة المرافقة التى سابعث بها إليه ، وتنفذى إلى عقله وتفكيره بهذا الصدد ، وبذلك يحس ـ عندما يحين الوقت لتكشفى له عن نفسك وتعترفى له ـ بأنه قد شرح موقفـه أمامك ، ويكون بذلك قد اخترق دياجير الظلمة التى اكتنفته بهذا الصدد ! » .

وقفزت جين عن مقعدها قائلة : « لقد وجدتها يا دريك .. ابعث بى فى مكان الممرضة المرافقة التى اخترتها له ، ولن تخطر له شخصيتى ، ولو فى المنام . فلقد انقضت ثلاث سنوات منذ سمع صوتى لآخر مرة ، كما انه يعتقد أننى ما ازال فى مصر ، إذ جاء فى عمود الاجتماعيات ـ فى كل الصحف ـ من أسابيع مضت ، اننى سأقضى الشتاء بين مصر وسوريا ، وأننى سأبقى

خارج الديار حتى شهر مايو ، وليس هناك من يعرف أننى قد عدت .. ثم انك خير من يحكم على ما تلقيت من مران وتجارب فى التمريض ، وقد كان عملنا ـــ أثناء الحرب ـــ يتناول العقل والروح ، بقدر ما تناول الجراحة . وعلى أية حال ، فالأمر لا يتطلب كل هذا !.. أواه يا ديكى ، أن بوسعك أن ترشحنى دون ما خوف ، وما أزال احتفظ بزى المرضات لوقت الحاجة ، وأستطيع أن اتاهب فى أربع وعشرين ساعة ... وسأذهب إليه على اننى المرضة « فلانة » .. ولو أدى بى الأمر إلى تناول طعامى فى المطبخ ! » .

فأجابها الطبيب فى هدوء : « ولكن يا بنيتى العزيزة ، ليس بوسعك أن تذهبى باسم المرضة « فلانة » ، مع الأسف . ولن تستطيعى أن تذهبى الا على انك المرضة «روزمارى جراى» ، إذ اننى اتفقت معها فى هذا الصباح ، وارسلت بالبريد تقريرا مفصلا واضحا عنها للدكتور ماكينزى ، الذى سيتلو خطابى لمريضنا العزيز .. وانا لم أعتد أن أسحب حالة من ممرضة لأعطيها إلى أخرى ، الا إذا ثبت عجزها او أخطأت فى أعمالها . وأيسر على المرضة « روزمارى جراى » أن تطير فى الجو ، من أن تتهم بتقصير او خطأ . ثم انها لن تضطر إلى أن تتناول طعامها فى المطبخ ، إذ أنها من أصل طيب ، وسوف تعامل على هذا المستوى . وكم يسعدنى حقا لو تيسر لك أن تحلى محلها ، لولا أن شكا يساورنى فى إمكانك القيام بهذا الدور والاستمرار فيه . كما أن لدى أمرا أريد أن أحدثك به .. لقد سألنى « دالمين » ـــ قبل أن أتركه ـــ عن أخبارك ، وقد تعمد أن يورد

اسمك بين الدوقة وفلاور ، ولكنه لم يقو على كبح الحمرة التى كست وجنتيه النحيلتين ، وشد قبضته على غطاء فراشه حتى يتمكن من السيطرة على صوته لينطلق عاديا ثابتا . وقد استفسر عن مكان وجودك ، فأجبته بأننى أعتقد أنك فى مصر ، فى حين اننى كنت أتوقع عودتك إلى الوطن . وذكرت له اننى سمعت بأنك تعتزمين العودة إلى القدس لقضاء عيد الفصح ، وافترضت على هذا الأساس أن تعودى إلى الوطن فى نهاية شهر أبريل ، أو أوائل مايو .. ثم استفسر عن صحتك ، فأجبته بأنك لست من المولعات بتحرير الخطابات ، ولكننى فهمت من البرقيات والبطاقات التى ارسلتها ـــ من وقت لآخر ـــ بأنك فى خير حال ، وانك تقضين وقتا طيبا . ثم تطوعت بذكر أننى أنا الذى دفعتك للسفر إلى الخارج ، لأنك كنت على شفا الانهيار التام ، فبدرت من يده حركة سريعة ، وكأنما أراد أن يصفعنى مقابل هذا التعبير . ثم قال : « على شفا الانهيار التام ؟.. هى ! » فى لهجة طافحة بالازدراء لى ولآرائى ، ثم سارع إلى توجيه أسئلة دقيقة عن « فلاور » ، وكان قد استفسر عن الدوقة بكل الأسئلة التى كان يقصد توجيهها عنك . وبعد أن استوثق من أن « فلاور » مقيمة فى دارنا بلندن ، وأنها فى صحة جيدة ، وأبلغته ما حملتنى من ود وعطف، رجانى أن القى نظرة على الخطابات المكدسة ـــ والتى ظلت متقلة فى انتظار ابلاله ليقوى على الانصات لفحواها ـــ وان أخبره إذا عثرت بينها على خطاب بخط شخص اعرفه . يا للمسكين ، كأنما كان العالم بأسره قد كتب مبديا عطفه . وذكرت له حوالى اثنى عشر أسما عرفتها ، بينها خط فرد

من الأسرة المالكة . وهنا سألنى عما إذا كانت ثمة خطابات من الخارج، فاذا هناك خطابان أو ثلاثة، عرفت أصحابها فأخبرته بأسمائهم . ولكنه لم يطق استماع أى منها .. حتى الخطاب الملكى ظل مغلقا ، وأن طلب أن يمسكه بيده ، وراح يتحسس التاج القرمزى الصغير . ثم سألنى عما إذا كان هناك أى خطاب من الدوقة . وكان ثمة خطاب منها ، فرغب فى أن يسمعه ، ومن ثم فضضته وتلوته عليه .. وكان مثالا لما هو معروف عن الدوقة ، مليئا بالعطف الكريم ، النابع من القلب ، وإن صيغ فى لباقة . وفى منتصف الخطاب جاء ما يأتى : « لسوف تستاء جين . وساكتب لأخبرها ، بمجرد أن ترسل لى عنوانها، فلست أدرى فى أى قطر من المعمورة توجد ابنة أخى العزيزة ، فى الوقت الحاضر . وقد كانت تبدو — فى آخر رسالة تلقيتها منها — أنها تسير قدما نحو الزواج من يابانى صغير الحجم ، والاستقرار فى اليابان . وهى فكرة لا بأس بها ، أليست كذلك يا عزيزى دال ؟.. وإن كنت لا أدرى كيف يتسنى العثور فى بلاد الأقزام هذه على بيت ، أو زوج ، أو ذلك الشىء الذى يركبونه ،أو أى شىء من المتانة بحيث يحتمل عزيزتنا جين ، إذا كانت اليابان كلها على نسق جدرانها الورقية المعروفة ! » ..

ولقد سارعت بالتجاوز عن تلاوة كل هذه الفقرات الخاصة بزواجك من اليابانى ، حتى إذا أتممت قراءة خطاب الدوقة ، سألنى جارث فى صراحة عما إذا كان هناك خطاب منك ، فأجبته بالنفى ، وبأن من غير المحتمل أن الخبر قد بلغك وإلا لسارعت — بمجرد وصوله إليك . ومن ثم فانى آمل أن تكتبى إليه

يا عزيزتى .. وسوف تصدر التعليمات إلى الممرضة « روزمارى جراى » بأن تقرأ عليه الخطابات جميعا ! » .

فأجابته جين بصوت متهدج : « أواه يا دريك ، لست أحتمل الانتظار .. يجب أن أذهب إليه ! » . وهنا انبعث جرس « التليفون » فوق مكتب الطبيب ، محدثا رنينا حادا طويلا ، فأسرع الطبيب وتناول المسماع : « آلو .. نعم أنا الدكتور براند ، من المتكلم ؟.. أهذه أنت يا سيدتى الرئيسة ؟ » .. وهنا بدأ على « جين » الأسف لأن الرئيسة لم تلمح الابتسامة الساحرة التى ارتسمت على وجه الطبيب ، بينما استطرد يقول : « نعم ؟.. أى اسم تذكرين ؟.. بلا شك . هذا الصباح نهائيا .. حالة هامة جدا . يجب أن تأتى وتقابلنى الليلة .. ماذا ؟ خطأ فى السجل ؟ .. آه ، فهمت .. إلى أين ذهبت ؟.. لست اسمع ، اذكريها حرفا حرفا .. استراليا أوه ، هذا مكان لا سبيل إلى استقدامها منه .. آه ، لقد سمعت بأنها تلقت أمرا بالذهاب إلى هناك .. لا بأس يا سيدتى الرئيسة ، لا سبيل إلى لومك أنت .. شكرا ، لا أظن ذلك .. لدى مرشحة أخرى .. نعم . نعم . لا شك فى إمكانها القيام بذلك .. وساخطرك إذا كنت فى حاجة إليها .. استودعك الله ، واشكرك كثيرا ! » .

وترك الطبيب مسماع التليفون ، والتفت إلى جين — وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة بطيئة، يشوبها شىء من الشك — وقال : « جانيت ، اننى لا أؤمن بالحظ .. غير اننى أؤمن بتدبيرات السماء ، التى تتمم خططنا او تفسدها .. ستذهبين إلى جارث ! » .

الفصل السادس عشر

ما أن تمالكت جين عواطفها ، حتى قال لها الطبيب : « والآن ، لنبحث الطرق والوسائل .. عليك أن تسافرى بقطار البريد الليلى من (ايستون) بعد باكر ، فهل تستطعين التأهب فى هذا الميعاد ؟ » . فهتفت قائلة : « اننى على تمام الأهبة ، منذ الآن ! » .

ــ يجب أن تذهبى على أنك الممرضة « روزمارى جراى » !

وقالت جين : « أنا لا أحب ذلك ، بل أفضل اسما مستعارا .. فهب أن « روزمارى جراى » الحقيقية ظهرت ، أو ظهر من يعرفها » .. فرد الطبيب قائلا : « انها الآن فى منتصف طريقها إلى استراليا ــ يا فتاتى العزيزة ــ ولن تلتقى أنت هناك بأحد سوى خدام الدار ، والطبيب . على أن أى زائر يفد على هناك قد يعرفك ، ولا بد لنا من أن نتأهب لمثل هذه الأخطار . ومع ذلك فعند قيام بعض الصعاب ، تستطيعين أن تقدمى رسالة ــ سأزودك بها ــ لايضاح الموقف ، وتبيان أنك راغبة فى سد الثغرة التى تركها رحيل الممرضة « روزمارى جراى » ، وقد قبلت رجائى بأن تنتحلى اسم الممرضة ، لتفادى أية ايضاحات للمريض ، قد يترتب عليها ضرر فى هذه المرحلة بالذات . وبوسعى أن أقرر هذا صادقا ، فهذه هى الحقيقة . ومن ثم فعليك أن تنتحلى هذه الشخصية يا جين ، وأن تبذلى أقصى الجهد فى أداء دورك ما استطعت . واسمحى لى بأن

اذكرك بأننى قد وصفتك فى خطابى للدكتور ماكنزى : جميلة ، رقيقة دقيقة الحجم ، ظريفة ، مهذبة ، واكثر مقدرة مما تبدين ! » .

ــ ولكن يا ديكى .. لسوف يتحقق ــ لأول وهلة ــ من اننى لست الممرضة التى وصفتها له فى خطابك ..

ــ ليس الأمر بالدرجة التى تتصورين يا عزيزتى .. تذكرى أننا نعمل مع رجل اسكتلندى ، وقد جبل الاسكتلندى على الا يدرك الأمور « لأول وهلة » ، فان عقول « الكلت » ــ أهل الشمال ــ بطيئة وإن كانت تسير بخطى وثيقة .. ولسوف يوقن ــ عندما يتأملك برهة ــ من أننى قليل الدراية بوصف النساء ، وبأن الممرضة جراى امرأة ابدع مما ذكرت فى خطابى .. ولكنه سيكون قد رسم لدالمين صورة لك مستوحاة مما جاء فى رسالتى . وهذا هو المهم فى الأمر . وعلينا أن نلقى اعتمادنا على العناية الالهية فى ألا يسارع « روبى الكهل » ــ اقصد الدكتور ماكينزى ــ إلى محاولة تعديل الصورة التى رسمها لمريضه . فحاولى أن تصديه عن مثل هذا الحديث .. وإذا لاح أن الطبيب فى ريب من أمرك ، فانتحى به جانبا واطلعيه على رسالتى ، وأخبريه بالحقيقة كاملة ، ولو أننى أشك فى أن الأمر سيصل إلى هذا الحد . أما مع المريض ؛ فعليك أن تتذكرى ما للأعمى من سمع مرهف للغاية .. فلتكن خطواتك ناعمة خفيفة ، ولا تتيحى له فرصة ليحدس مبلغ طولك . وتذكرى دائما أن ما يعرفه عن طولك يجعل من المتعذر عليك الوصول إلى رف الكتب ــ فى خزانة طولها حوالى ثمانى أقدام ــ دون الاستعانة بسلم أو مقعد . وعندما يبدأ المريض

فى النهوض والسـير ، حاولى ألا تمكنيه من أن يفطـن إلى أن ممرضته أطول منه بقليل . ولن يكون ذلك بالأمر العسير ، فان من الأفكار الراسخة فى رأسه ، أن أية امرأة لن تمسه فى عماه . كما أن خادمه الخاص هو الذى سيقوده دائما .. ولست أتصور يا جين أن أى شخص وضع يده فى يدك ، مرة يخطىء فى التعرف عليها بعد ذلك ، ولهذا أنصحك ـ من البداية ـ بأن تتجنبى مصافحته . على أن هذه الاحتياطات تهون إزاء العقبة الكبرى .. صوتك . فهل تظنين لحظة أنه لن يتعرف عليه ؟ » .

فأجابته جين : « سأقبض على الثور من قرنيه ، فى هذه الحال .. وعليك أن تساعدنى . فاشرح الأمر لى منذ الآن ، كما لو أنك كنت تخاطب الممرضة « روزمارى جراى » حقا ، وكما لو أنها كانت قد أوتيت صوتا يشبه صوتى ! » وابتسم الطبيب قائلا : « يا عزيزتى الممرضة روزمارى .. لا يدهشك البتة أن يلاحظ مريضنا شبها كبيرا بين صوتك وصوت صديقة لى وله ، فقد لمست بنفسى هذا التشابه الشديد ! » . وقالت جين تمثل دورها : « أحقا يا سيدى ؟.. وهل لى أن أعرف الشخص الذى يشابه صوته صوتى إلى هذا الحد ؟ » .

وأجاب الطبيب بالابتسامة العذبة التى اعتاد أن يتحدث بها إلى ممرضاته : « انها النبيلة جين شامبيون .. هل تعرفينها ؟ » . فأجابته جين : « قليلا ، وكم آمل أن ازداد معرفة بها على مر السنين ! » .. وضحكا معا ، ثم قالت جين:

« أشكرك يا ديكى . اننى أعلم الآن كيف أحدث مريضى .. آه ، ولكن أى شقاء هذا !.. كيف أقوى على أن أخدع جارث بهذه الصورة ؟.. جارث صاحب البصيرة الحادة الثاقبة ، التى تلمح كل شىء !.. هل سأجد من الشجاعة ما يمكننى من الاستمرار فى ذلك ؟ » . فرد الطبيب قائلا : « إذا كنت تقدرين قيمة السعادة الدائمة لك وله ، فما من شك فى أنك فاعلة ، يا عزيزتى . أما الآن فسآمر بالعربة لتقلك سريعا إلى ميدان (بور تلاند) ، وإلا تأخرت عن موعد العشاء ، وهو أمر تستطيع الدوقة أن تغتفره ـ كما هو معروف ـ ولو بالنسبة لمسافر عاد توا من سياحة طويلة حول العالم . وإذا أخذت بنصيحتى ، فعليك ألا تطلعى عمتك الكريمة ، العاقلة ، على جلية الأمر ـ على أن تحذفى من القصة البيانات المتعلقة بضوء القمر ـ واستشيريها فى خطتنا هذه . فان رأيها الأريب ، أثمن من أن يقدر ، وستسرين ـ فيما بعد ـ بمعونتها ! » .

* * *

ونهضا ، فوقفا متواجهين على بساط المدفأة ، ثم قالت جين ، وقد جاشت عواطفها : « بديع جدا .. لقد كنت كريما وصادق الود ، يا فتاى ، وسأظل لك شاكرة ، مهما يحدث !» . فأجابها الطبيب : « صه !.. لا داعى إلى الشكر ، فاننى قد سددت دينا طال أجله . ولن أجد غدا دقيقة واحدة من الفراغ ، وأخشى أن يكون الأمر كذلك بعد باكر .. ولكن يمكننا أن نتناول طعام العشاء معا بمحطة (ايستون) فى الساعة السابعة مساء ، ثم أودعك عند سفرك ، فان قطارك يتحرك فى

الساعة الثامنة ، ويصل إلى محطة (أبردين) بعد الساعة السابعة من الصباح التالى . ومن هنا ستقلك العربة توا إلى جلينيش ، فتبلغينه فى موعد الفطور . ولسوف تسرين بالوصول فى ضياء الصباح الباكر ، فيعانقك هواء البحيرات ، ويبعث فيك شعورا بديعا .

« اشكرك يا ستوارت ، دع العربة تنتظر ، فان الآنسة شامبيون متأهبة !.. أهلا يا فلاور !.. انظرى إلى فوق يا جين ، ان فلاور وديكى وبلوسوم يطلون من فوق حاجز السلم ، ويبعثون إليك بفيض من القبلات .. أجل ، ان النهر الذى ذكرته يخلق « جنة » حقيقية ، فلينعم الله عليك بمثلها. والآن ، اجلسى وأسدلى النقاب على وجهك .. آه ، تذكرت أنك لا تضعين نقابا ، فيالك من عاقلة !.. لو اقتدت بك كل النساء لحط الفقر على أطباء العيون .. لماذا ؟.. لأنك تركزين بصرك على الأهداف .. ولكن ، اضطجعى فى مقعدك إذ يجب ألا يراك أحد ، إذا شئت أن يعتقد الناس أنك ما زلت فى القاهرة ، ترتقبين استئناف رحلتك إلى أعالى النيل .. » ثم أدخل الطبيب رأسه خلال نافذة العربة ، وقال لها : « تذكرى الا تأخذى سوى متاع خفيف ، من النوع البسيط الذى تسميه الممرضات : « صندوقى » ، وضعى عليه حرفى « ر . ج » بوضوح ! » .

فهمست جين قائلة : « أشكرك يا صديقى ، فأنت تفكر فى كل شىء » .. فأجابها الطبيب : « اننى افكر فيك » .. وقدر لجين أن تحس براحة فائقة ــ فى خلال الأيام العصيبة التى تلت ذلك ــ كلما ذكرت هذه الكلمات الأخيرة ، الهادئة !

الفصل السابع عشر

وصلت الممرضة « روزمارى جراى » إلى قصر جلينيش فما أن هبطت و «صندوقها» على رصيف المحطة الفرعية الصغيرة، حتى شعرت كما لو أنها قد هبطت من السحاب ، مخلفة عالمها وشخصيتها ، فى أحد الكواكب المعنة فى البعد !.. ووجدت سيارة فى انتظارها ــ خارج المحطة ــ فخالجها الخوف لحظة من أن تلقى من السائق تحية تنم عن أنه عرفها . ولكنه ظل جامدا صارما كأنه قطعة من قطع السيارة ، فلم يعرها من الاهتمام أكثر مما أعار متاعها . فقد كانت هى « الممرضة » ، وكان متاعها « الصندوق » .. اسمان من الأسماء العامة .. ومسميان عليه أن ينقلهما إلى (جلينيش) طبقا للأوامر التى صدرت إليه .. وعلى هذا ظل يحدق إلى الأمام ، وقد بدا المنظر الجانبى لوجهه ــ تحت حافة قلنسوته ــ أشبه بأبى الهول ، بينما كان الحمال الواجم يساعد « جين » ومتاعها على الاستقرار فى السيارة . وعندما منحت الحمال ثلاثة بنسات ــ حرصا على الظهور بما يلائم متاعها ــ حرك السائق قدمه ويده فى دقة صامتة ، وكأنه آلة من الآلات ، فاندفعت بهما السيارة إلى خارج البلدة ، وانطلقت فى الطريق المؤدى إلى التلال .

وأخذت السيارة تتسلق الصخور الرمادية والأعشاب البرية العبقة ، وقطعت أميالا من أرض لم تكن ترى فيها سوى البرك، والسماء ، والعزلة ، مما زاد من شعور « جين » بأنها قد

هبطت من عالم إلى آخر .. كما أن اتفه المصادفات كاختفاء التحية الحافلة بالاحترام ، المألوفة من خادم كسائق السيارة ــ بعثت فى نفسها اطمئنانا إلى النجاح والأمان فى دورها الجديد .. وكانت قد سمعت الكثير عن قصر « جارث » القديم فى اسكتلندا ، وهو ميراث انحدر إليه من أسرة أمه .. غير أنها لم تتوقع يوما مثل هذه المناظر الطبيعية الرائعة ، والفخامة التى اتسمت بها قواصر القصر واقواسه ومدخله وعندما انحرفت السيارة فى أعلى السفح ، ولاحت أبراج القصر الرمادية ، وغابات الصنوبر الممتدة خلفه ، خيل لجين أنها تسمع صوت جارث الفتى حين كانا تحت شجرة الأرز فى (أوفردين) ، وهو يقول لها فى لهجة مرحة طروب : « كم أود أن تشاهدى قصر (جلينيشر) فلسوف يروق لك المنظر الذى تطل عليه الشرفة ، وغابات الصنوبر ، وبرك المياه » .. ثم لقد أعلن ــ بعد ذلك ــ ضاحكا عن رغبته فى إقامة « حفلة ممتازة » ، تتولى الدوقة رعايتها ، وقد وعدته جين بالاشتراك فيها .. وها هو ذا الآن صاحب القصر البديع طريح الفراش ، أعمى ، لا حول له ولا قوة ، بينما تلج هى خلال الأبواب الخارجية الفخمة لقصر (جلينيش) ، فى شخصية لا يعرفها هو ، ولا يتعرف عليها أحد ، منتحلة صفة ممرضة وسكرتيرة .

كانت جين قد قالت له فى (أوفردين) : « أجل ، ادعنا وسترى ما يحدث ! » . وهذا هو ما حدث الآن ، فما الذى سيحدث بعد ذلك ؟

وأمام عتبة القصر كان « سمسون » ــ مندوب جارث ــ فى انتظارها ، فأحست بأنها ــ للمرة الثانية ــ قد اجتازت

بسلام خطرا كانت تخشاه ، إذ أن سمسون كان قد التحق بخدمة « جارث » فى خلال السنوات الثلاث الأخيرة ، ومن ثم فانه لم يعرف حقيقة شخصيتها حين رآها .. وأخذت «جين» تجيل نظرها فى البهو القديم ، فى ذلك التراخى المألوف ممن اعتادت أن تنزل للمرة الأولى ضيفة على دور أصدقائها فى الريف ، ملاحظة المدفأة الكبيرة العجيبة ، وقرون الوعل المعلقة وظلالها ممتدة إلى أعلى الجدران . ثم عادت إلى نفسها ، وفطنت إلى أن « سمسون » ــ الذى كان قد صعد نصف درجات السلم العريض المصنوع من خشب البلوط ــ وقف فى انتظار أن تسرع الممرضة وراءه ، ففعلت ، و إذا بها تجد فى انتظارها ــ فى أعلى السلم ــ العجوز مارجرى ..

وعرفتها جين لأول وهلة ، وما كانت فى حاجة إلى أن ترى المنديل ، والمرولة الحريرية السوداء ، وأشرطة الخزامى ، حتى تدرك أنها مربية « جارث » الاسكتلندية العجوز ، ومديرة داره وصديقته .. إذ كانت نظرة واحدة على الوجه الوردى الحنون ، الرصين ، المغضن ــ وهى مجموعة جميلة من الظاهر التى تنم عن الصحة وتقدم العمر ــ كافية لكى تعرفها جين . وما كانت لتخطىء العينين الحادتين اللتين تخترقان المحجب وتنفذان إلى الأعماق .. وقادت العجوز جين إلى الحجرة التى أعدت لها ، وهى تتكلم طيلة الوقت ، فى محاولة رقيقة لتسرية الارتباك عنها ، وللتعبير عن ترحيبها الحار بمقدمها ، فى وقار لطيف ، دون أن تنسى سحابة الكمد التى كانت تخيم على القصر ، والتى أوجبت حضور « جين » ، كانت تناديها بالممرضة

« جراى » فى آخر كل عبارة من حديثها ، بلكنة اسكتلندية تلوك وتدير حرف « الراء » ، مما فتن جين ، فتاقت إلى أن تقول . « يا لك من عجوز عزيزة !. كم أنا سعيدة وسأشعر بمتعة الاقامة فى هذه الدار معك ! » . ولكنها تذكرت أن أية اشارة تدل على رفع الكلفة ، قد تقبل من النبيلة « جين شامبيون » ولكنها تعد من الممرضة « روزمارى » نقصا فى الذوق وعدم مراعاة للأصول . ولذا تبعتها — فى انصياع — إلى الحجرة البديعة التى أعدت لها . وأعجبت بالستائر الملونة ، وأجابت عن الأسئلة التى وجهت إليها عن رحلتها الليلية ، وأقرت بأنها تسر إذا استطاعت تناول افطارها ، وتسر أكثر لو استطاعت أن تحظى بحمام ممتع !.. حتى إذا أتمت الحمام والفطور ، وقفت بجانب نافذة حجرتها تتملى بدائع الطبيعة ، فى انتظار وصول طبيب القرية ، ليدعوها إلى حجرة جارث ..

***

وكانت قد ارتدت أحسن ما لديها من ملابس الممرضات : ثوبا أزرق ، وياقه وكمين من التيل ، ومرولة بيضاء ذات شريطين فوق الكتفين وجيبين واسعين .. كما وضعت فوق رأسها قلنسوة مناسبة ، كانت قد حصلت عليها من أحد المعاهد التى تدربت فيها . ولم تكن تعتزم أن تستمر فى ارتدائها فيما بعد ، ولكنها — فى ذلك الصباح بالذات — لم تغفل صغيرة ولا كبيرة مما يبعث أثرا طيبا فى نفس الدكتور ماكينزى عن مظهرها المهنى الكامل . واستشعرت واجفة بأن ملبسها

— المتناهى فى البساطة — انما كان يساعد على اظهار طولها ، بالرغم من حذائيها ذوى الكعبين القصيرين والنعلين المطاطين اللذين لا يسمع لهما وقع .

ولم يسعها سوى أن تأمل أن يصح رأى دريك فيما سيكون من مسلك الدكتور ماكينزى معها !

ولاحت لها عن بعد كبير — وعلى شريط الطريق الأبيض الذى كان يصعد متعرجا من الوادى — مركبة خفيفة مرتفعة « دوكار » ، تخب مسرعة ، وكان بها رجل جلس خلفه سائس ، فأيقنت من أن الساعة قد أزفت .. وجثت على ركبتيها — أمام النافذة — وراحت تدعو الله أن يهبها القوة والحكمة والشجاعة . ولم تعد تتبين شيئا البتة ، فقد أجهدت عقلها فى التفكير الطويل المضنى المستمر ، حتى تحولت كل الرؤى العقلية إلى مناظر مهتزة مطموسة .. وخبت فى مخيلتها كل المعالم، حتى وجه جارث المحبوب ، مع ما بذلت من جهد جنونى لتستحضره على لوحة عقلها .. ولم يبق جليا واضحا أمامها سوى الواقع الذى كان أمامها ، وهو أنها لن تلبث — بعد دقائق معدودة — أن تقاد إلى الحجرة التى يرقد فيها فتاها ، فترى الوجه الذى لم تره منذ أن كانا واقفين على عتبة الهيكل .. ذلك الوجه الذى غاضت منه — رويدا — الثقة المغتبطة، ليحل محلها جزع ، وقنوط بارد .. وتذكرت إذ ذاك الدعاء الحبيب : « وامسح بالزيت وجوهنا الملوثة وأنرها بعظمة مجدك » ! ..

أنها لن تلبث أن ترى ذلك الوجه العزيز . أما هو فلن يرى

وجهها ــ إذ فقد بصره ــ وانما سيسهل التفرير به فيعتقد بأنها شخص آخر !

ودارت المركبة مع آخر انحناء فى الطريق ، ثم اختفى عن بصرها فى طريقه إلى مدخل القصر . . وإذ ذاك نهضت «جين» ، ووقفت فى الانتظار وقد ذكرت فجاة جملتين من حديثها مع دريك إذ قالت له : « هل سيكون لدى الشجاعة الكافية للقيام بذلك ؟ » . فاجابها دريك فى لهفة : « إذا كنت تقدرين جيدا سعادته وسعادتك ، فيجب أن تتذرعى بالشجاعة ! » .

وسمعت طرقة على الباب ، فتقدمت إليه وفتحته ، وإذا بسمسون واقفا عند المدخل ليقول : « ان الدكتور ماكينزى فى المكتبة ايتها المرضة ، ويود أن يراك » . فأجابته الممرضة روزمارى جراى : « إذن ، فتكرم وأرشدنى إلى المكتبة يا سيد سمسون ! » .

الفصل الثامن عشر

فوق سجادة من جلد الدب ، وقف الدكتور روبرت ماكينزى وظهره متجه إلى نار المدفأة ، وكان يعرف بين أصدقائه باسم الدكتور « روب » أو « روبى الكهل » ، تبعا لدرجة الود والألفة . وكان أول ما انطبع فى ذهن « جين » من صورته شكل رجل قصير القامة ، ضخم الجسم ، يرتدى صدرية من جلد كلب البحر ــ اكل الزمان عليها وشرب ــ ومعطفا خفيفا فضفاضا . . رجل له حركات نابوليونية ، وساقان نحيلتان طويلتان منفرجتان ، وذراعان معقودتان على صدره ، وكتفان معقوفتان إلى أعلى ، تفضيان بالناظر إلى أن يتوقع ان يصعد بصره إلى وجه عاجى اللون ، وأنف رومانى ، وفك ينم عن جلد ، وشفتين رقيقتين مضمومتين فى حزم وقوة . ولكن عينى « جين » شهدتا ــ بدلا من كل ذلك ــ وجها أحمر قد زركشه النمش ، وانفا أقنى معقوفا إلى أعلى ، وذقنا أحمر مكتنزا ، وشاربين بلون الرمال ، متدليين إلى أسفل . ولم يكن بين قسمات وجهه ما يجذب النظر سوى عينين حادتين زرقاوين ، إذا حدقتا متفرستين فى شخص ، أوشكتا أن تختفيا تحت أدغال حاجبين من شعر أحمر ، فلا يبقى منهما سوى نقطتين صغيرتين من نور فيروزى .

ولم يمض على جين فى محضره إلا دقيقتان ، حتى أيقنت بأنه لا يعود يشعر بجسمه إذا ما شغل عقله ، مما يدفع بالجسم إلى حركات لا إرادية عجيبة ، جعلت أصدقاءه يتندرون



وقف الدكتور (روبرت ماكينزى) وظهره متجه إلى نار المدفأة ..

قائلين : « أن روبى يمضغ عددا كبيرا من أقلام الكتابة ، بينما يفكر الدكتور ماكينزى فى أنجع الوصفات لعلاج مرضاه ! » .. وكانت عيناه منصرفتين — عند دخول « جين » — إلى خطاب منشور أمامه — أدركت لتوها أنه خطاب دريك — فلم ينظر اليها فورا .. حتى إذا التفت أخيرا ، لمحت — بما لا يقبل الشك — دهشة هزته . وفتح فمه ليتكلم ، فلم تتمالك جين أن تذكرت شكل احدى أسماك الزينة فى (أوفردين) ، عندما كانت تصعد إلى سطح الماء كلما ألقت اليها الدوقة بفتات الخبز !.. ثم أطبق فمه ثانية ، وعاد إلى تلاوة خطاب دريك ، وإذ ذاك شعرت « جين » كما لو أنها كانت لقمة — بل جملا — يعانى الطبيب الأمرين لازدراده !

وانتظرت فى صمت واحترام ، بينما كانت كلمات دريك تمر بذهنها الموجس الحائر ، فتهدىء من ثائرته : « أن العقل الاسكتلندى يعمل وئيدا ، ولكن خطواته أكيدة . ولسوف يوقن الدكتور ماكينزى من أننى لا أجيد وصف النساء » .. وأخيرا ، التفت اليها الرجل القصير ، وهو واقف على بساط المدفأة ، وعاد يحدق فى « جين » . ووا أسفاه !.. لكم كان مضطرا إلى أن يرفع عينيه عاليا ، لطولها !.. ثم قال : « المرضة .. ؟ » . وبدا متسائلا ، بينما خطر لجين أن عينيه الغامضتين كانتا اشبه بشظايا من الخزف الأزرق المهشم ، على كوم من الدريس .. وبادرت قائلة فى استخذاء واحترام : «روزمارى جراى» .. وخيل إليها أن الدوقة كانت خليقة بأن تطرق الأرض بعصاها — لو أنهما كانا يقومان بتجربة تمثيلية للهواة فى (أوفردين) — وان تستحثهما على أن يسرعا فى الكلام ، ويدعا الابطاء !

وقال الدكتور روبرت ماكينزى : « آه ، فهمت ! » .. ثم حدق فى جانب من البساط ، فى ركن قصى من الحجرة .. وما لبث أن سار إلى ذلك الركن ، والتقط قشة من مكنسة ، وجاء بها إلى موقفه أمام المدفأة ، فأخذ يفحصها بدقة وعناية ، ثم وضع جزءا منها بين أسنانه ، وراح يقضمها .. وساءلت جين نفسها عما ينبغى أن تفعله إزاء اجتماع كهذا ، وإزاء طبيب لا يجلس ولا يدعو الممرضة إلى أن تجلس .. وتمنت لو أنها كانت قد اهتدت برأى دريك فى ذلك الأمر ، ولكنه ما كان يملك أن يشير عليها برأى ، لأنه اعتاد أن يكون أول ما يفعل مع أية ممرضة ، هو أن يقول : « يا عزيزتى الممرضة فلانة .. تفضلى بالجلوس ، فإن من كان عملهم يستلزم منهم الوقوف ، يجب أن ينتهزوا كل الفرص للجلوس والراحة ! » .

غير أن الرجل البدين القصير ـ الواقف على بساط المدفأة ـ لم يكن دريك ، ولذا ظلت « جين » واقفة بانتباه ، ونظرها متجه إلى القشة وهى تهتز وتتكسر وينقص طولها بوصة فبوصة ، حتى إذا تلاشت ، عاد الطبيب إلى الحديث ، قائلا : « إذن فقد جئت ، أيتها الممرضة جراى ؟! » . فقالت جين لنفسها : «إن عقل الاسكتلندى يعمل وئيدا ، حقا !» .. ولكن سرها أن اشتمت من لهجته أنه رضى عنها .. لقد صدق دريك !.. قد ارتاحت « جين » لأنها لن تضطر إلى مكاشفة هذا الرجل الصامت بأمر الخدعة التى ستمارس مع جارث .. ثم أجابته : « نعم يا سيدى ، لقد وصلت » . وأعقب ذلك صمت آخر ، ظهرت خلاله قطعة أخرى من قش المكنسة ثم

اختفت ، قبل أن يعود الدكتور ماكينزى إلى الكلام قائلا : « اننى مسرور لوصولك يا ممرضة جراى ! » . فأجابته جين برصانة : « وأنا مسرورة لأننى قد وصلت يا سيدى » .. وخيل لها بأنها ستسمع صوت الدوقة وهى تصيح مازحة : « ها .. ها ! » من جانب المسرح ، لأن التمثيلية الهزلية كانت تسير بنجاح !

* * *

وفجأة ، فطنت إلى أن عقل الدكتور ماكينزى قد انصرف ـ فى الدقائق الأخيرة ـ إلى شىء آخر ، وكأنها لم تكن كافية لأن تملأ تفكيره .. وفى اللحظة التالية ، تحول اليها ، فإذا بحدقتين من الفيروز تومضان تحت حاجبين كثيفين ، وتستعرضانها بسرعة وتألق الأنوار الكاشفة .. ثم بدأ الدكتور ماكينزى يتكلم بسرعة مدهشة ، وهو يلوك حرف الراء ويديره على لسانه : « أفهم يا آنسة جراى أنك قادمة لتعالجى عقل المريض قبل جسمه ، ولست بحاجة إلى أى ايضاح ، فقد تلقيت الايضاح من السيد « دريك براند » ، الذى أوحى بممرضة لملازمة المريض ، وتعاقد معك .. ولقد وافقت تمام الموافقة على توصيته ، واسمحى لى بأن أقول بأننى شديد الاعجاب بجوهرها ! » .

وأومأت جين برأسها ، وهى تصور لنفسها ما كان خليقا بأن ينتاب الدوقة من قهقهة .. ياله من شخص لايطاق !.. لقد وجدت جين فرصة كى تفكر فى ذلك ، بينما سار الطبيب إلى غطاء المائدة وانحنى فوقه فاحصا بقعة قديمة من الحبر .

وجد بجوارها بقعة من شحم الشمع ، أزالها بأظافر إبهامه ، وحملها بعناية إلى المدفأة ، فألقى بها فوق الفحم المحترق .. وأخذ يلاحظها باهتمام بالغ ، وهى تذوب ، ثم تشتعل وتتوهج . وعلى حين غرة ، قفز إلى حيث وقفت جين ، وفاجأها وهى ترقبه مغيظة ، واختتم حديثه قائلا بهدوء : « ومن ثم فأعتقد انه لم يبقلى ما يقال عن العلاج سوى القليل ، يا آنسة جراى . فلا بد انك تلقيت تعليمات دقيقة من السير دريك شخصيا . أن أهم ما علينا الآن هو أن نساعد المريض على أن يهتم بما حوله من دنيا ، فان أعظم اغراء يخشى منه على من يفقدون البصر فجأة ، هو أن يعتادوا أن يعيشوا بكل كيانهم فى عالم خاص .. عالم من الذكريات ، والتكهنات ، والتصورات الوهمية .. العالم الوحيد الذى يستطيعون أن يروه ، فى الواقع ! » .

فبدرت من جين حركة تقدير واهتمام ، إذ وجدت أخيرا ما يمكنها أن تتعلمه وتفيده من هذا الاسكتلندى القصير ، العجيب الأطوار .. بدلا من أن يوجه اهتمامه إلى جمع الفضلات عن البساط ، ومحو بقع الشحم عن مفرش المائدة . فقاله : نعم .. أرجو أن تزيدنى معرفة ! » . فاستطرد الدكتور ماكينزى قائلا : هذه هى مشكلتنا الحالية مع السيد دالمين ، إذ لا يبدو أن ثمة احتمالا أن نثير اهتمامه بالعالم المحيط به . فهو يرفض مقابلة الزائرين ، ولا يريد أن تتلى عليه خطاباته ، أن الساعات لتمضى دون أن ينبس بكلمة واحدة .. وما لم تسمعيه يقول شيئا لى أو لتابعه ، فلا بد أن تحسبى أنك رزئت بمريض فقد القدرة على النطق ، كما فقد نعمة البصر .. فاذا أبدى

رغبة فى أن يكلمنى على انفراد ، عندما تكون معه ، فلا تبارحى الحجرة بل انتقلى إلى جوار المدفأة ، وابقى هناك ، لاننى أريد أن تسمعى الحديث ، حتى إذا أراد أن ينهض ويبذل أى جهد ، كانت لديه القدرة التامة على ذلك . فان أهم ناحية من واجبك يا ممرضة جراى ، هى معاونته يوما بعد يوم على استئناف الحياة .. صحيح أنها حياة رجل فقد بصره ، ولكن ثمة ما يدعو إلى أن تكون حياة بلا حركة . والآن وقد انتهى كل خطر من حدوث التهابات فى الجروح ، فله أن ينهض من فراشه ، وأن يتحرك ، وأن يتعلم كيف يهتدى إلى طريقه بالصوت واللمس .. لقد كان فنانا فى مهنته ، ولن يرسم بعد الآن قط ، ولكن هناك مواهب أخرى قد تخلق لفطرته الفنانة منافذ معقولة » » .

ثم توقف فجأة ، وقد لمح بقعة أخرى من الشحم ، فسار إلى المائدة ، ولكنه قفز ملتفتا إلى جين ــ فى اللحظة التالية ــ بسرعة البرق ، وتساءل : « أفكان يجيد العزف ؟ » . ولكن جين كانت قد أخذت حذرها من أية مباغتة ، ولو كانت عارضة ، فقالت : « أن السير دريك لم يذكر لى يا دكتور ماكينزى ما إذا كان السيد دالمين مولعا بالموسيقى أو لم يكن » . فاستأنف الطبيب الضئيل الجسم حركاته النابوليونية ، وقد وقف فى منتصف سجادة المدفأة ، وقال : « حسنا ، فلتكن مهمتك ان تتبينى ذلك .. وبهذه المناسبة أيتها الممرضة ، هل تجيدين العزف ؟ » . فقالت جين : « قليلا » .. فقال الدكتور روب : « آه ، وهل نستطيع أن نقول بأنك تغنين قليلا ؟ » . فأومأت إيجابا .

ـ فى هذه الحال يا سيدتى العزيزة ، أترك لك اوامر صريحة
بألا تغنى قليلا ، ولا تعزفى قليلا للسيد دالمين .. فاننا نحن
المبصرين لا نكاد نطيق ما يعرضه علينا « الذين يجيدون العزف
قليلا » من عزفهم . وما يعيننا على الاحتمال إلا أننا نستطيع
أن نتلفت حولنا ، وأن نفكر فى أمور أخرى .. أما الأعمى الذى
يملك روحا فنية مرهفة ، فان هذه التجربة قد تنتهى به إلى
الجنون . فيجب الا نجازف .. وانى لشديد الأسف لظهورى
بهذا المظهر الجاف ، غير أن صالح المريض يجب أن يكون مقدما
على كل اعتبار آخر .

وابتسمت جين ، وقد بدأت تشعر بميل إلى الدكتور روب ،
وقالت : « سأكون شديدة الحرص على تنفيذ ذلك ، فلن
اعزف ولن اغنى للسيد دالمين ! » . فقال الدكتور ماكينزى :
« والآن ، لأبين لك ما يحق لك بالتأكيد أن تفعليه تدريجا ..
قوديه إلى البيانو ، وأجلسيه هناك على مقعد يشعر فيه بأمان
وطمأنينة ، وليس من مقاعد المعازف الصغيرة المتأرجحة .
وضعى علامة على المفاتيح التى يستطيع أن يوقع بها طبقة
« دو » الوسطى ، ثم دعيه يفرج عن روحه الحبيسة ، ويرسم
صورا بالصوت . ولسوف ترين أن هذا سرعان ما سيسعده
لساعات طويلة .. وإذا كان موسيقيا بارعا ، كما يتبين من هذا
البيانو الكبير ، فانه سيبدأ هذه الهواية لفوره ، قبل أن يضطر
إلى أن يحمل هم تعلم طريقة «برايل» أو غيرها من أساليب
تعليم العميان .. ولكن عليك أنتستنبطى طريقة سهلة لإرشاده
.. حفرة صغيرة فى الاطار الخشبى الذى يقع تحت المفاتيح ،

يتمكن بها من العزف مباشرة ـ دون تردد أو مضايقة ـ على
طبقة « دو » الوسطى .. ولا داعى ـ بعد ذلك ـ لباقى
النغمات ، فهذا غاية ما سيتطلبه من إبصار ، إذا ما جلس إلى
البيانو ! .. ها ، ها ، ها ! هذا درس لا بأس به من اسكتلندى ..
أليس كذلك يا ممرضة جراى ؟ » .

لم تقو جين على الضحك ، وأن خيل اليها ـ على هامش
ذهنها ـ أنها تسمع ضحكات وتصفيقا من « الدوقة » .. فما
كان الأمر دعابة بالنسبة لجين ، إذ تصورت « جارث »
الحبيب الأعمى ، جالسا إلى البيانو ، ورأسه الغالى الجميل
منحن على مفاتيح البيانو ،وأصابعه تتحسس باحثة عن تلك
الحفرة الصغيرة التى ستحدثها له تحت « دو » الوسطى ..
واشمأزت من ذلك الفرد الذى يتفكه بعمى جارث .. ورن
على هامش ذهنها صوت « تومى » ـ الببغاء ـ وهو يلاحق
الدوقة مصفقا بجناحيه ، متراقصا فوق ارجوحته ، صارخا ،
« اركله بعيدا ! اقفل فمه ! » .

وعلى غرة ، قال لها الدكتور ماكينزى : « اما ما يتلو ذلك
أهمية ـ يا ممرضة جراى ـ فهو أن اقدمك إلى المريض ! » .
وعند ذلك أحست « جين » بالدم ينضب تدريجا من وجهها ،
ليتجمع فى قلبها محدثا وجيبا عنيفا . ولكنها تمالكت جأشها ،
وانتظرت فى صمت . بينما دق الدكتور ماكينزى الجرس ،
حتى إذا حضر « سمسون » ، قال له : « أحضر قنينة من
« الشيرى » ، وقدحا ، وقطعتين من البسكويت ! » . فأسرع
سمسون ليلبى طلبه ، بينما قالت جين فى نفسها : « يا له من

حيوان صغير !.. الم تتذكر هذا إلا فى الساعة الحادية عشرة ؟ » .

ووقف الدكتور « روب » فى انتظار عودة سمسون ، وهو يشد شاربيه الأحمرين ويقضمهما — فى غيظ — وهو يسدد النظر خلال النافذة ، إلى الخارج . وما لبث أن عاد سمسون فوضع صحفة على المائدة ، ثم خرج فى هدوء ، واغلق الباب خلفه . فملأ الدكتور « روب » القدح بالشيرى ، وسحب مقعدا إلى جوار المنضدة ، قائلا : « والآن ايتها المرضة ، اجلسى واشربى هذه الكأس ، وتناولى معها قطعة من البسكويت ! » . فقالت جين معتذرة : « ولكننى — فى الواقع — يا دكتور .. » فأجابها الدكتور روب : « لا شك عندى انك .. لا سيما فى الساعة الحادية عشرة صباحا . ولكنك ستفعلين ذلك اليوم ، فلا تضيعى الوقت فى الجدل .. لقد قضيت فى السفر ليلة طويلة ، وستصعدين الآن إلى الطابق الأعلى لتشهدى منظرا من اقسى المناظر على الأعصاب والحواس .

وقد قضيت معى وقتا طويلا فى حديث مرهق ، تحمدين السماء لانتهائه . ولكنك ستحمدينها فى حرارة أشد ، حين تشربين قدح الشيرى ، فقد مضى عليك ثلاث وعشرون دقيقة ونصف الدقيقة وانت واقفة أمامى ، إذ أن من عادتى أن اتكلم

واقفا ، وأفضل دائما أن يظل السامعون وقوفا ، ولا استطيع أن أحدث الناس وهم يضطجعون حولى . على أنك ستصعدين فى خطى أكثر ثباتا — أيتها المرضة روزمارى جراى — إذا جلست إلى هذه المنضدة خمس دقائق ! » .

واطاعت جين ، متأثرة ، وهى فى خجل من نفسها ، فقد اكتشفت أخيرا أن تحت هذه الصدرية العتيقة — المصنوعة من جلد كلب البحر — قلبا رقيقا مدركا للأمور ، وذكاء وتفهما للناس ، برغم المظهر المثير للأعصاب ، الداعى للاستهجان . وبينما كانت تشرب « الشيرى » وتأكل البسكويت ، عكف الدكتور « روب » على عملية جديدة — فى الناحية الأخرى من الحجرة — هى تلميع زجاج النافذة بمنديله الحريرى ، وهو يغمغم طول الوقت بصوت غريب يشبه طنين النحلة فوق الزجاج . وبدا كما لو كان قد نسى وجودها . ولكنها لم تكد تضع القدح على المنضدة ، حتى استدار لها ، واجتاز الحجرة حتى وصل إليها ، ووضع يده فوق كتفها قائلا : « والآن أيتها المرضة ، اتبعينى إلى فوق .. واحرصى — فى البداية — على أن تكونى قليلة الكلام قدر المستطاع . واذكرى أن كل صوت جديد يتسلل إلى الأعماق الساكنة فى ذلك الظلام الدامس ، يسبب للمريض عذابا من جراء الحيرة والتأثير . تكلمى قليلا ، واخفضى صوتك .. والله القدير يهبك حصافة وحكمة ! » .

وقد بدا على الرجل ـ ذى القوام الضئيل العجيب ـ اعتزاز بمعرفته وقوته ، وهو يتقدم « جين » صاعدا درجات السلم . وبينما كانت تتبعه ، أيقنت تماما من أن روحها تستند إلى روحه ، وأحست بقوة ترفعها وتعينها . ومع أن الجملة التى اختتم بها حديثه كانت من التعبيرات القديمة، إلا أنها ـ كدعاء ـ انعشت نفسها .. « والله القدير يهبك حصافة وحكمة ! » .. هكذا قال ، وهو لا يدرك مدى حاجتها الشديدة إلى هذه الكلمات !.. ورن فى مسمعها ـ فى تلك اللحظة ـ صوت آخر، تردد بين سراديب الذاكرة مع نغم الأرغن ، فخفف عنها اضطرابها : « وحيث تكون مرشدنا .. فلن يكون ثمة مرض » !.. وبخطى ثابتة ـ ولكنها غير مسموعة الوقع ـ سارت جين خلف الدكتور ماكينزى إلى الحجرة التى كان يرقد فيها جارث .·. أعمى ، مشوها ، لا حول له ولا قوة !

الفصل التاسع عشر

رأس أسود الشعر ، فوق الوسادة !.. هذا كل ما رأته جين ـ فى بادىء الأمر ـ تحت ضوء الشمس الساطع .. ولسبب ما كانت جين تتوقع أن ترى المريض فى حجرة مظلمة، مغلقة النوافذ . وفاتها أن الظلمة والضياء كانا سواء لدى المريض المسكين فلم تكن ثمة حاجة إلى حجب نور الشمس عن عينيه بما فيه من شفاء ، وتطهير ، وتقوية . وكان قد طلب نقل سريره إلى ركن من الحجرة يبعد عن الباب والمدفأة والنوافذ .. ويلاصق جانبه الأيسر الجدار ، حتى يسهل عليه أن يتلمس الحائط بيده ، وأن يلوذ به ، ويطمئن إلى أنه بمنأى عن الأعين المتطفلة التى لم يكن يراها !.. وعلى هذا الوضع كان راقدا . فلم يلتفت نحو جين والدكتور ماكينزى حين دخلا :

لا شىء سوى الرأس الأسود العزيز ، فوق الوسادة !.. هذا كل ما رأته « جين » ، فى بادىء الأمر .. ثم تحركت ذراعه اليمنى فى كم ثوب للنوم من الحرير الأزرق ، وامتدت خلفه قليلا وهو راقد على جانبه الأيسر ، واستلقت اليد النحيلة البيضاء فوق غطاء الفراش فى عجز واسترخاء .. فعقدت جين يديها خلفها ، وقد خالجها حافز قوى كان يدفعها إلى أن تسقط على ركبتيها بجوار فراشه وتتناول يده الضعيفة الهزيلة بين يديها، وتغمرها بالقبلات . آه ، من المؤكد ـ والمؤكد جدا! ـ أن يتحرك الرأس الأسود ـ إذ ذاك ـ نحوها ، وبدلا من أن يلوذ الوجه ـ الذى فقد إبصاره ـ بالجدار الأصم ، فانه

سيختفى فى الحنان الفياض بين ذراعيها . غير أن صوت « دريك » المنذر رن فى أذنيها ، فى رصانة وحزم : « إذا كنت تقدرين قيمة سعادتك الدائمة وسعادته . . ! » . لذلك سارعت إلى عقد يديها خلفها .

واقترب الدكتور ماكينزى من فراش المريض ، ووضع يده على كتف جارث ، وأخذ يكلمه فى بطء وهدوء لم تكن جين تتصور أن يصدرا عن الرجل الذى هزها بأسئلته وتعليقاته وأوامره ، خلال نصف الساعة الأخيرة : « سعدت صباحا يا سيد دالمين، لقد أبلغنى « سمسون » أنك نعمت بليلة رائعة، هى خير لياليك حتى الآن ، وهذا أمر طيب !. . لا بد أنك ارتحت إذ تخلصت من « جونسون » مع أنه كان كفءا ، وعدت إلى رعاية تابعك الخاص . فان المرضين المحترفين لا يقنعون بعمل ما ، وانما يسعون دائما إلى أن يعملوا ما يزيد على الكفاية . وكثيرا ما تكون هذه المغالاة مدعاة لضجر المريض !. . على أننى أتيت لك اليوم بشخص على أتم أهبة للقيام بكل ما تحتاج إليه ، ولن يضايقك اطلاقا بالسعى إلى عمل شىء يتجاوز رغبتك . . أنها المرضة « روزمارى جراى » التى اختارها لك « السير دريك براند » ، وأعتقد أنها على استعداد لأن تكون مرافقة ، وسكرتيرة ، وقارئة ، وكل ما تحتاج إليه بل أنها ستكون ـ فى الواقع ـ عينين جديدتين لك ـ يا سيد دالمين ـ وعقل راجح ، وقلب نسوى رقيق عطوف، يوجه ذلك العقل ويسيطر عليه . لقد وصلت المرضة « روزمارى جراى » هذا الصباح يا سيد دالمين ! » .

ولم يجب دالمين ، ولكن يده امتدت إلى الحائط تتحسسه وتتشبث به . ثم تراخت وسقطت عنه . وشعرت « جين » بأنها لا تقوى على أن تكون المرضة « روزمارى جراى » ولم تعد تتوق إلى شىء اللهم إلا تجنب أن يتضايق المريض بالحديث عن المراة . . المرضة . ولاح لها كل شىء ـ فى تلك اللحظة ـ كأنه لا يتعلق بشخصها أو به !. . وعاد الدكتور ماكينزى إلى الحديث قائلا : « المرضة روزمارى جراى موجودة فى الحجرة الآن ، يا سيد دالمين » . فاذا شهامة « جارث » الفريزية تصارع الظلام . ولم يحرك رأسه ، غير أن يده اليمنى ارتفعت مشيرة بتحية خفيفة ، وقال بصوت خافت ، كأنما كان ينبعث من بعيد : « كيف حالك ؟ . . أعتقد بأن مقدمك كان كرما بالغا منك . أرجو أن تكونى قد نعمت برحلة مريحة ! » . . وتحركت شفتا جين ، ولكن الصوت أبى أن يتبعث ، فسارع الدكتور « روب » بالإجابة ، دون أن ينظر إليها : « لقد نعمت الآنسة جراى برحلة مريحة جدا ، وإنها لتبدو نشيطة منشرحة فى هذا الصباح ، وكأنها قضت الليلة فى فراشها . وها أنذا أراها شابة هادئة ، وديعة ! » . فقال جارث والتعب يثقل صوته : « أرجو أن توفر لها مدبرة الدار كل ما يلزم لراحتها ، فتكرم بأن تأمر بذلك ! » .

وأدار ظهره وازداد اقترابا من الحائط ، وكان هذا إيذانا يلزم بانتهاء الحديث . فراح الدكتور « روب » يعض شاربيه ، وهو يحملق صامتا فى الكتف المكسوة بالحرير الأزرق ، ثم استدار إلى « جين » وقال : « تعالى معى إلى النافذة أيتها

المرضة جراى .. أريد أن أريك مقعدا خاصا ، حصلنا عليه للسيد دالمين ، وسيحظى فيه براحة تامة ، حين يشعر برغبة فى الجلوس .. انظرى ، هذا مسند متحرك لإراحة الراس ـ عند اللزوم ـ وهذه السنادات العديدة يمكن إدارتها فى أى وضع بمجرد اللمس . اننى أراه بديعا ، وقد وافق عليه السير دريك .. هل رأيت مثله من قبل يا آنسة جراى ؟ » . فأجابته جين : « عندنا مثله فى المستشفى ، ولكنه لم يستكمل كل هذه المعدات » .

وفى سكون الحجرة المليئة بأشعة الشمس ، انبعث من الفراش صوت مفاجىء جعلهما يجفلان .. صوت أشبه بصرخة تائه فى هاوية من الظلام ، ولكنه كان ينطوى على رجاء متلهف : « من هنا فى الحجرة ؟ .. وكان وجه جارث دالمين لا يزال متجها إلى الحائط ، ولكنه رفع جسمه متكئا على مرفقه الأيسر ، فى حركة من يرهف السمع . فأجابه الدكتور ما كينزى : « ما من أحد بالحجرة ـ يا سيد دالمين ـ سواى أنا والمرضة جراى » . فأجابه جارث بحدة : « بل أن هناك شخصا آخر فى الحجرة ، فكيف تجرؤ على أن تكذب على ؟ .. من كان يتكلم ؟ » . وإذ ذاك اقتربت « جين » من فراشه مسرعة ، ويداها ترتعشان ، وقالت له بصوت سيطرت عليه تماما : « لقد كنت أنا المتكلمة يا سيدى .. أنا المرضة روزمارى جراى .. وأعتقد أننى أعرف السبب الذى من أجله أدهشك صوتى ، فقد أنذرنى الدكتور براند بذلك ، وقال أن ليس لى أن أدهش إذا أنت شعرت بشىء عجيب بين صوتى وصوت صديق لك وله .. وقال أنه كثيرا ما لاحظ ذلك ! » .

وبقى جارث جامدا فى عماه ، يصغى ويفكر . وأخيرا سألها بتؤدة : « أقال لك صوت من ؟ » . فأجابت : « نعم يا سيدى ، لقد سألته فأجابنى بأنه صوت الآنسة شامبيون ! » . وسقط رأس « جارث » على الوسادة ـ ثم قال ـ دون أن يدير وجهه ، بصوت كانت جين تدرك أنه بمثابة ابتسامة ارتسمت على الوجه الحبيب المتوارى : « يجب أن تصفحى عنى يا آنسة جراى ، لما انتابنى من دهشة ، ولانفعالى السخيف الذى لا يغتفر .. ولكنك ـ ولا بد تعلمين ـ بأن العمى تجربة لا تزال جديدة على ، وكل صوت جديد ينفذ خلال الستار الأسود لهذا الليل الدائم يؤدى إلى تأثير يفوق كل ما يتصوره المتكلم . ان الشبه بين صوتك وصوت السيدة التى ذكرها السير دريك شديد جدا ، حتى أننى لا أكاد أصدق أنها ليست بالحجرة ، برغم علمى بأنها ـ فى هذه اللحظة ـ فى (مصر) . فضلا عن أن وجودها فى هذه الحجرة ، من أبعد الأمور فى الدنيا احتمالا . ومن ثم فاننى مدين لك وللدكتور ماكينزى باعتذار متواضع لانفعالى وعدم تصديقى ! » .. ثم مد يده اليمنى إلى « جين » وأبهامه إلى أعلى . فعقدت « جين » يديها المرتعشتين خلفها. وانبعث صوت الدكتور ماكينزى الخشن ، وهو ما يزال فى النافذة ـ « والآن أيتها المرضة ، تفضلى فان لدى بعض التفصيلات التى أود أن أشرحها لك هنا ! »

***

وأخذا يتحدثان برهة دون أن يجدا مقاطعة من جارث ، وأخيرا ، أردف الدكتور « روب » قائلا : « أعتقد أنه قد حان

الوقت لذهابى » . فأجابه جارث : « أريد أن أحدثك على انفراد لبضع دقائق ، يا دكتور » . . وقالت جين : « سأنتظرك فى الطابق الأسفل يا دكتور ماكينزى » . وتحركت متجهة إلى الباب ، وإذا بنظرة آمرة من الدكتور « روب » ، فتوقفت ، ثم تحولت ــ فى صمت ــ إلى المدفأة . ولم تكن لتدرك فى هذه اللحظة دافعا لهذا التحايل ، بل انه أغضبها . ولكن نابليون منطقة المستنقعات ، ذا الجسم الضئيل ، والوجه المكسو بالنمش ، لم يكن بالرجل الذى يسهل عصيانه . . وسار هو نحو الباب وفتحه ، ثم أغلقه ، وعاد إلى جانب الفراش فسحب مقعدا ، وجلس وهو يقول : « وبعد ، يا سيد دالمين ؟ » . فاعتدل جارث جالسا فى فراشه ، وواجهه فى لهفة . . وإذ ذاك رأت جين وجهه لأول مرة ، بينما شرع يقول : « حدثنى عن هذه الممرضة يا دكتور . . صفها لى ! » .

وكان التوتر فى صوته وحركته بالغا ، وقد عقد يديه أمامه ، وكأنه يستجدى الابصار خلال عينى شخص آخر . وظهر وجهه النحيل الأبيض مثقلا بالعذاب ، وعليه أمارات اللهفة والجمود ، وقال : « صفها لى ــ يا دكتور ــ هذه الممرضة روزمارى جراى ، كما تدعوها ! » . فأجابه الدكتور « روب » فى حزم : « ولكنه ليس اسما منتحلا من ابتكارى يا سيدى العزيز . . أنه اسم الشابة ، وإنه لاسم بديع . . روزمارى زهرة الذكريات . . أليس هذا من أقوال شكسبير ؟ » . فألح عليه عليه جارث ــ للمرة الثالثة ــ قائلا : « صفها لى ! » .

ونظر الدكتور ماكينزى إليها ، ولكنها كانت قد أدارت ظهرها لتخفى الدموع التى انهمرت على وجنتيها . . أواه ، ياجارث ! . .

يا جارث الجميل ذا العينين البراقتين ! . . وأخرج الدكتور ماكينزى خطاب الدكتور دريك من جيبه وتأمله ، ثم قال فى بطء : « حسنا ، انها حسناء رقيقة ، صغيرة الحجم . . وهى من النساء الرشيقات اللاتى تحب دائما وجودهن بجوارك ، لو قدر لك أن تراها » . فسأله جارث : « أهى قمحية اللون ، أم شقراء ؟ » . فنظر الطبيب إلى ما كان بوسع بصره أن يصل إليه من وجنات جين ، وإلى اليدين السمراوين الممسكتين برف المدفأة ، وقال فى غير تردد : « شقراء ! » . وجفلت « جين » ، ونظرت حولها ،وهى تعجب مما دفع هذا الرجل الصغير إلى الكذب ، من تلقاء نفسه !

وهنا عاد الصوت الخافت ، المثقل بالتعب ، سائلا : وشعرها ؟ » . فأجابه الدكتور « روب » فى كذب متعمد : « أما شعرها فهو مندس كله تحت قلنسوتها الصغيرة ، ولولا ذلك لأمكننى أن أجزم فى وصفه بأنه من ذلك النوع المتهدل الهش الحريرى الملمس ، الذى يكمل آخر معالم الجمال للمراة الرقيقة الحسناء . فاستلقى جارث على وسادته لاهثا وضغط بيديه على عينيه غير المبصرتين ، ثم قال : « اننى أعلم قدر ما اكبدك اياه من متاعب يا دكتور ، ولا بد أنك ترانى اليوم أحمق . . ولكن ، إذا كنت لا تريد أن افقد عقلى مع بصرى ، فاصرف هذه الفتاة من هنا . . لا تدعها تلج حجرتى مرة أخرى ! » .

وإذ ذاك أجابه الدكتور ماكينزى فى تؤدة وصبر : « والآن يا سيد دالمين ، دعنا نفكر فى الأمر ، ولنضع فى اعتبارنا أنك

لا تملك أى اعتراض على هذه الشابة ، سوى تشابه عارض بين صوتها وصوت إحدى صديقاتك ، التى توجد الآن فى بلاد نائية .. ألم تكن تلك السيدة شخصا مرغوبا فيه ؟ » .

فأرسل جارث فجأة ضحكة مريرة ، كادت أن تكون زفرة منتحبة ، وقال : « أواه .. بل كانت شخصا مرغوبا فيه جدا » . فأعاد الدكتور روب ترديه الشطرة الشعرية : « روزمارى زهرة الذكريات ! » . ثم أردف : « إذن فلماذا لا تقوم الممرضة روزمارى جراى باسترواح الذكريات المنعشة .. ثم ان صوتها يبدو لى نسويا ، عذبا ، رقيقا . وهو شىء يحمد فى هذه الأيام التى يتكلم فيها كثير من النساء بأصوات ترهب الغربان ، أو كأنها أحجار تطرق أناء من الصفيح ! » .

وقال جارث فى اعياء : « ولكن ، ألا تفهم يا دكتور أن مجرد الذكرى والتشابه هما اللذان لا أقوى على احتمالهما وأنا أعمى ؟ .. ليس لدى أى اعتراض على صوتها ، والله أعلم ! .. ولكننى أؤكد لك أننى حين سمعت صوتها لأول وهلة ، اعتقدت أنها .. أنها كانت هى .. الأخرى .. وقد جاءت لى .. هنا .. و .. ! » . وسكت فجأة ، فأخذ الدكتور « روب » يجادله قائلا : « السيدة المرغوبة ؟ .. آه ، حسنا يا سيد دالمين .. ان السير دريك يقول أن خير ما يحدث الآن ، هو ، أن تبدو منك رغبة إلى استقبال الزائرين .. ويخيل إلى بأن كثيرا من أصدقائك على استعداد ، بل تتملكهم لهفة بالغة ، للحضور من اقصى جهة كانت ، لكى يمدوا لك يد المعونة أو يبعثوا فيك الابتهاج . فلم لا تسمح لى باستدعاء تلك السيدة ؟ اننى لا أشك مطلقا فى أنها ستحضر ، حتى إذا جاءت بنفسها :

وجلست إلى جانبك ، وتحدثت إليك ، فلن يعود صوت الممرضة يزعجك ! » . واستوى جارث جالسا ـ من جديد ـ وعلى وجهه أمارات الاعتراض الشديد .. والتفتت إليه جين ـ من مكانها على بساط المدفأة ـ وراحت ترقبه .

وقال جارث : « كلا يا دكتور .. يا إلهى ، كلا ! .. انها آخر شخص ـ فى العالم بأسره ـ أقبل دخوله إلى هذه الحجرة ! » . فانحنى الدكتور ماكينزى ليفحص بعناية بقعة دقيقة على غطاء الفراش ، ثم سأل بصوت منخفض : « ولماذا ؟ » . فأجابه جارث : « لأن تلك السيدة المرغوبة ـ كما تدعوها بحق ـ لها قلب نبيل ، كريم ، قد يفيض اشفاقا لعماى ، ولست أقبل الاشفاق منها ، لأنه سيكون آخر قشة فوق صليبى الثقيل . فى استطاعتى يا دكتور أن أحمل صليبى ، وآمل أن استطيع ـ على مر الزمن ـ أن أحمله فى رجولة ، حتى يأمرنى خالقى بأن أنزله عن كاهلى .. أما هذه القشة الأخيرة ـ أعنى إشفاقها ـ فانها كفيلة بأن تقصم ظهرى ، فأتردى فى الظلام ، ولا تقوم لى ـ بعد ذلك ـ قائمة ! » ..

فقال الدكتور روب بلطف : « آه ، فهمت يا فتاى المسكين ! .. أذن فتلك السيدة المرغوبة يجب ألا تحضر إلى هنا ؟ » . ولاذ بالصمت بضع دقائق ، ثم دفع مقعده إلى الوراء ، ووقف قائلا : « وعلى كل حال ، فسوف أركن إليك ـ يا سيد دالمين ـ فى أن تكون لين العريكة مع الممرضة « روزمارى جراى » ، ولا تجعل مهمتها شاقة جدا . فلست أجرؤ على اعادتها من حيث أتت ، إذ اختارها لك الدكتور براند .. ثم ، تصور الضربة القاسية التى تصيبها فى مهنتها .. فكر فى ذلك أيها الرجل ! .. كيف

تطرد باشارة عابرة ، ولما تقض أكثر من خمس دقائق فى حجرة مريضـــها ، لأن .. يا لله !.. لأن صـــوتها أثار جنونه !؟.. يا للطفلة المسكينة !.. ياله من سبب يثبت فى التقرير الذى نرفعه عنها !.. تصور موقفها أمام رئيســـتها !.. أليس فى مقدورك أن تكون كريما ، وأن تتخلى عن الأنانيـــة ، بحيث تواجه أية تجربة قد تلقاها من جراء هذه المصادفة التافهة ؟» .

وتردد جارث ، ثم قال أخيرا : « هل تقسم يا دكتور ماكينزى بأن الوصف الذى ذكرته لى ، لهذه الشابة ، كان دقيقـــا فى جميع تفصيلاته ؟ » . فرد الدكتور « روب » بأن ردد آية من الكتاب المقدس : « لا تحلف باسم الرب إلهك ! » . وأردف قائلا : « لقد كانت لى أم تقية يا فتاى . ثم ان بوســـعى أن أتصرف خيرا من ذلك ، فأطلعك على سر .. لقد كنت أقـــرأ عليك الوصف من خطاب السير دريك براند ، فأنا لست خبيرا بالنساء ، إذ اعتدت أن أعتبر الكلاب والخيل أقل خداعا وأوفى معاشرة من النساء . وعلى ذلك ، فانا لا أطمئن كثيرا إلى نظرى الشخصى ، ولذا فضلت ان أعطيك وصف السير دريك بنصه .. ولسوف تجده خير من يحكم على النساء !.. أرأيت الليدى براند ؟ » . فقال « جـــارث » فى حنين ، وقـــد علت وجنتيه النحيلتين حمرة خفيفة : « أجـــل رأيتها .. بل اننى رسمت صورتها .. يالها من صورة !.. كانت تقف بجوار منضدة ، وأشعة الشمس تكسو شعرها ، وهى تنسق النرجس الذهبى فى إناء فينيسى أثرى .. أرأيت تلك اللوحـــة يا دكتـــور ، فى المعرض الحديث ، منذ عامين ؟ » . فأجابه الدكتور « روب » : كلا ، فما وجدت نفسى مرة بين المتفرجين فى المعارض قديمها

أو حديثها ، غير أنى (ثم ألقى نظرة استفســـار على جين ، فأومأت إليه بالموافقة) قد علمت من الممرضة جراى أنها رأت الصورة ! » .

وهتف « جارث » مغتبطا : « أحقا ؟!.. ان المرء لا يفكر فى وجود علاقة بين الممرضات ومعارض الصور ، عادة ! » . فأجابه الدكتور روب : « لست أدرى لذلك سببا ، إذ لا بد لهن من ارتياد أى مكان للترفيه عن أنفسهن .. انهن لا يستطعن أن يلصقن أنوفهن بنوافذ الحوانيت طول فصـــول الســـنة ، فلماذا لا يذهبن إلى معارض الصور لالقاء نظرة على صورك؟.. ثم ان الآنسة روزمارى شابة ، ومن طراز ممتاز ، ويؤكد لى السير دريك أنها سيدة راقية ـــ من حيث الأصل ـــ واســـعة الاطلاع ، ذكية .. وعليه يا بنى ، فماذا تراك صانعا ؟ » . نصمت جارث مفكرا ، بينما أشاحت « جين » بوجهها ، وقبضت بيديها على رف المدفأة ، وقد وجدت نفسها معلقة فى ميزان القدر ، فى تلك الدقيقة الصامتة !

❋ ❋ ❋

وأخيرا ، تكلم جارث فى تؤدة وتردد : « ليتنى أقوى على أن أفصل بين الصوت والـــ .. والشخصية الأخرى . ولو اننى استطعت أن أتأكد تماما من أنها ـــ برغم التشابه غير العادى فى الصوت ـــ ليست ... » وتوقف قليلا ، فوجف قلب جين .. ترى هـــل سيعقب ذلك بوصف لها ؟.. ولـــكنه أردف قائلا : « لا تشبه فى شىء الوجه والقوام المنطبعين فى ذاكرتى مرتبطين بهذا الصوت » . فأجابه الدكتور روب : « أرى أن

بوسعنا أن ندبر هذا .. فان هؤلاء الممرضات يعلمن أن لا بد
من ادخال السرور على مرضاهن . فلندع الشابة الممرضة
إلى هنا ، ولتأمرها بأن تجثو بجوار فراشك .. باركك الله !
.. انها لن تتردد ــ من أجلى ــ فى أن تقوم بأى دور ! ولك أن
تمر بيدك على وجهها وشعرها ، وحول خصرها النحيل ،
لتتأكد باللمس أية فتاة صغيرة القد ، رشيقة هى .. فى ردائها
الأزرق ومرولتها البيضاء ! » .

فانفجر جارث ضاحكا ، وقد رن فى صوته نغم لم يصدر عنه
من أمد طويل . وقال : « انه أبعد الاقتراحات عن العقل ..
يا للسماء ! مالى قد جعلت من نفسى حمارا !.. لقد بدأت أفكر
فى أننى قد أسرفت فى الاهتمام بالتشابه ، ولن ألبث أن أنساه
بعد يوم أو يومين . والآن ، اسمع يا دكتور !.. إذا كانت
قد أعجبت حقا بتلك اللوحة .. ولكن ، إلى أين أنت ذاهب ؟ » .
فأجابه الدكتور روب : « انما كنت أحرك مقعدا إلى جوار
المدفأة ، واستبحت لنفسى جرعة ماء . ان سمعك يزداد
ارهافا بدرجة غير عادية ، فى الواقع !. ها أنذا مصغ إليك ،
فماذا كنت تقول عن اللوحة ؟ » .

ــ أردت أن أقول ان الممرضة .. إذا كانت تهتم حقا
بالصورة التى رسمتها لليدى براند ، فلدى فى المرسم لوحات
قد يهمها أن تراها . ولو أنها أحضرتها إلى هنا ، ووصفتها لى ،
لاستطعت أن أشرح لها كل لوحة .. ولكن يا دكتور .. اننى
لا أستسيغ أن تروح الشابات الأنيقات ويغدون إلى حجرتى
وأنا راقد فى فراشى ، فلماذا لا أنهض وأختبر ذلك المقعد الذى
أحضرته لى .. اطلب من سمسون أن يعد لى سترة حجرة

النوم البنية اللون ، وربطة العنق البرتقالية اللون ..
يا للسماء !.. ما أعظمها من نعمة أن نحتفظ بذكرى الألوان
وتناسقها !.. تصور حال أولئك الذين ولدوا مكفوفى
البصر !.. تكرم فسل الآنسة جراى أن تخرج للتريض فى غابة
الصنوبر ، أو برك المياه .. أو أن تستخدم السيارة ، أو أن
تخلد إلى الراحة ، أو أن تعمل أى شىء يروق لها .. أبلغها
بأن تعتبر نفسها فى دارها ، ولكنها يجب ألا تحضر إلى هنا
ــ بأية حال من الأحوال ــ قبل أن يعلن سمسون أننى متأهب
لمقابلتها !.. فرد الدكتور « روب » ، وقد صار صوته أجش
فجأة : « يمكنك أن تطمئن إلى أن الممرضة جراى تكتم كل سر .
أما عن مبارحتك الفراش يا بنى ، فيجب ألا تتعجل كثيرا فلن
تجد كثير قوة ، ولو انه من واجبى أن أبلغك انه لم يعد هناك
ما يستدعى بقاءك فى الفراش ، إذا كانت لديك رغبة فى
النهوض » .

واختتم جارث الحديث قائلا ، وهو يتحسس يد الطبيب :
« مع السلامة يا دكتور ! » . ثم أردف قائلا : « لكم يؤلمنى أننى
لن أقوى على أن أتقدم لرسم السيدة ماكنزى ! » . فأجابه
الدكتور « روب » بكل رقة : « لو أمكنك ذلك ، لرسمتها بشعر
أشعث ، وأربعة مخالب ، وألطف عينين كهرمانيتين فى العالم
.. وخلال هاتين العينين يطل أوفى القلوب ــ التى خلقها الله
ــ وأشدها حبا وأمانة . فهى لم تتخل يوما ــ طيلة السنين
التى عاشر فيها كل منا صاحبه ــ عن استقبالى بترحاب ، ولم
تعارضنى قط ، ولا عملت على أن تكون لها الكلمة الأخيرة ،
ولا ازعجتنى بطلب ثمن قبعة !.. يالها من امرأة !. حسنا ،

أستودعك الله يا بنى ، وليباركك الاله القدير !.. أوصيك بأن تحترس لنفسك جيدا ، ولا يدهشنك أن أعود إليك فى رجوعى من جولتى ، لأستوثق من رأيك عن هذا المقعد ! » .

وفتح الدكتور ماكينزى الباب ، فتسللت « جين » إلى الخارج قبله ، ثم تبعها وهو يشير لها بأن تسبقه إلى الطابق الأسفل . وفى المكتبة تحولت جين ووقفت أمامه ، فأجلسها فى مقعد بكل هدوء ، ووقف أمامها والدمع يترقرق فى عينيه الزرقاوين اللامعتين تحت حاجبيه الكثيفين ، ثم قال لها : « لكم أشعر — يا عزيزتى — بأننى على شىء من الغباء والخبل ، فاغفرى لى . ما كان فى حسبانى أن أضعك فى مثل هذا المأزق . وقد أدركت تماما بأنك كنت تشعرين — أثناء تردده — بأن مستقبلك فى مهنتك معلق فى كفة القدر .. اننى ارى فى عينيك أثر البكاء ، ولكن لا تدعى الألم يتملك من قلبك ، لأن مريضنا قد أثار كل هذا من أجل تشابه صوتك بصوت الآنسة شامبيون .. فسينسى الأمر كله بعد يوم أو يومين ، وستصبحين فى نظره أعظم قيمة من عشر آنسات شامبيون . تأملى ما أحدثته به من تغيير فى هذه الفترة القصيرة ، فها هو ذا يرغب فى النهوض من فراشه ليشرح لك صوره !.. لا تخشى شيئا ، فلسوف تربحين جولتك ، وسيكون فى مقدورى أن أبعث لسير دريك بتقرير واف أبين فيه النجاح العظيم الذى يتم على يديك .. أما الآن ، فلا بد لى من أن أنفرد بوصيفه لأعطيه كل التعليمات .. وأنصحك أن تذهبى لتستروحى النسيم عند البركة ، حتى تستردى شهيتك للغداء ، على أن ترتدى ملابس أثقل مما عليك

الآن ، فليست لديك الآن أية مهمة من أعمال التمريض .. أما وقد أشعرتنى بكفاءتك فى النظافة والعناية ، فعليك فى الوقت ذاته أن ترتدى ملابس مريحة دافئة ، لتحميك من لسعات أصقاعنا الشمالية .. هل أحضرت معك ملابس أثقل من هذه؟» .

فأجابته جين : « ان قوانين نقابتنا تحتم علينا أن نرتدى هذا الزى ، ولكن معى معطف من الصوف الرمادى » .

— حسنا .. ارتدى المعطف الصوفى الرمادى ، وسأعود بعد ساعتين لأرقب ما أحدثه به نهوضه من فراشه ، وما أداه من حركة .. ولن أستبقيك أكثر مما استبقيتك !

وقالت جين بكل هدوء : « هل لى أن أسألك — يا دكتور ماكينزى — عما دعاك إلى أن تصفنى له بأننى شقراء ، كما وصفت شعرى الثقيل المجعد بأنه شعر هش متهدل حريرى الملمس ؟ » . وكان الدكتور « روب » قد هم بدق الجرس ، فلما سمع سؤالها رد يده ، ثم دار نحوها ، والتقت عينا جين الثابتتين بعينيه الفيروزيتين المفعمتين بالذكاء ، ثم قال : « لك كل الحق فى هذا السؤال أيتها الممرضة روزمارى جراى ، وان أدهشنى أن ترى ذلك ضروريا .. فقد اتضح لى تماما بأن ثمة أسبابا خاصة قد دفعت السير دريك لأن يرسم صورة خيالية عنك للمريض ، وأكبر الظن انها صورة لمثل أعلى يهم المريض .. ولما كان الوصف يختلف عن الواقع ، لذلك استنتجت أنه لابد — لكى تكتمل الصورة — من أن تكون النقطتان اللتان قد تركتا كى أرسمهما — مع الأسف — مغايرتين لما رأيته أمامى ، شأنهما شأن بقية الصورة . والآن ، إذا كنت

تسمحين .. ! » . ثم دق الجرس بشدة . فألحت عليه جين قائلة : « ولكن ، لماذا خاطرت باقتراح أن يتحسس وجهى ؟ » . فصاح الدكتور روب غاضبا : « لأننى أعلم أنه رجل ذو أخلاق عالية .. أواه ! تعال يا سمسون !.. ادخل يا صاح ، وأغلق الباب . واحمد الله معى لأنه قد جعل منك ومنى رجالا ولسنا نساء ! » .

***

وبعد ربع ساعة ، شاهدته « جين » وهو يسرع بعربتـه الخفيفة (الدوكار) ، فقالت لنفسها : « لقد كان دريك على صواب ، ولكن .. ياله من مزيج عجيب من الذكاء والجمود ، وما أعجب اثر هذا المزيج فى تدعيم خطتنا ! » .

وبينما كانت ترقب العربة الخفيفـة ، وهى تنطلـق عبر المستنقع بأقصى سرعة ، لم يتسن لها أن تسمع ما كان الدكتور « روب » يدمدم به لنفسه ـــ وهو يشد العنان ويهلل لمهره القوى ـــ والا لتولاها العجب .. فقد كان من خصـاله أن يحدث نفسه ويناقش ما مر به من أحداث ، بصوت نصف مسموع ، وهو يسرع ـــ فى عربته ـــ متنقلا بين مريض وآخر .. كان جانبا طبيعته المزدوجة يتطارحان ما جرى ، فيما بينهما . وقد بدأ حديثهما ـــ فى هذه المرة ـــ كما يلى : قال الدكتـور « روب » مخاطبا الدكتور ماكينزى : « والآن ، ما الذى أتى بالنبيلة جين إلى هنـا ؟ » . فأجـابه الدكتـور ماكينزى : « ليسحقنى الله إذا كنت أدرى ! » . ورد الدكتور روب : « يجب ألا تحلف أو تلعن يا بنى .. فلقد كانت أمك امـرأة تقية ! » .

الفصل العشرون

خطاب من النبيلة جين شامبيون إلى السير دريك براند .

« قصر جلينيش ـــ شمال بريطانيا ..

« عزيزى دريك : أن برقياتى وبطاقاتى لم تكن لتنبئك بأكثر من وصولى .. وأرى ـــ بعد انقضاء أسبوعين هنا ـــ أن الوقت قد حان لأن أرفع اليك تقريرا . على أنك جدير بأن تتذكـر أننى كاتبة ضعيفة . فقد اعتدت ـــ منذ الطفولة ـــ أن أجـد من العسير أن أكتب شيئا بعد العبـارة المألوفة : « آمل أن تكون فى أحسن صحة » . وها أنذى أحاول كتابة خطـاب تقريرى ، بجهد جبار ، ومع كل ، فكم أتمنى لو تسـنى لى أن أستعير ـــ ولو لمرة واحدة ـــ قلم كاتب مدرب ، لأننى لا أملك سوى أن أدرك أننى أجتـاز تجارب ليست مما يكثـر حدوثها لكثير من النساء !

« ان الممرضة « روزمارى جراى » تسير فى عملها بنجاح باهر ، وقد أوشكت أن تجعل مريضها غـير قادر على أن يستغنى عنها ، فهو يتجه إليها بثقة كاملة ، تملأ قلبها يزهو مهنى ! .. أما « جين » المسكينة فلم تعمل أكثر من أن سمعت بأذنيها من شفتيه ، أنها آخر مخلوق ـــ فى الدنيا بأسرها ـــ يرجو أن يقترب منه وهو أعمى .. وحينما قيل له أن من المحتمل أن تأتى لزيارته ، فأجاب صائحا : « أواه ، يا إلهى .. كلا ! » . وتحول وجهه إلى صورة للاحتجاج المشوب بالجزع

الجامح . ومن ثم فان جين تتلقى — يا فتاى — نصيبها من ضرب السياط .. وكما يحدث حين يصدر قاض حريص مفكر حكمه بالجلد ثلاثين جلدة على ثلاث مــرات ، فى كل مــرة عشر لسعات ، أصبحت جين تتلقى عقابها على دفعات ، لا تتجاوز كل منها ما تقوى هى على احتماله ، وإن كان هذا كافيا لأن يغمر قلبها بأقسى الآلام ، ويبقى روحها فى رعب مستمر . وقد ثبت أنك — يا طبيبى العزيز الماهر — كنت على صواب فى تشخيصك كنه الحالة وأحاسيس المريض .. فهو يقول ان اشفاقها هو القشة الأخيرة فوق صليبه الثقيل . وهذا تعبير صحيح ، لأن اشفاقها عليه من قش فعلا .. انما اشــفاقها الوحيد هو الاشفاق على نفسها وقد وقعت فى حبائل هفوتها هى .. ولكن كيف السبيل إلى اقناعه بأن يتبين هذا ؟ .. هذه هى المعضلة !

« هل تذكر كيف كان بنو إسرائيل محصورين بين المجــدل والبحر الأحمــر ؟.. لقــد كنت أعلم أن (المجــدل) تعنى « الأبراج » ، ولكننى لم أفقه الفقرة قط ، حتى وقفت بنفسى عند ذلك الاسفين الضيق من الصحراء .. البحر الأحمر امامى وإلى يسارى ، وسلسلة « جبل عتاقة » الصخرية إلى يسارى ، تتعالى نحو السماء ، كأنها طبقات حصن منيع .. وإذا المخرج والمدخل الوحيد — خلفها — هو الطريق الذى سلكه بنوإسرائيل من مصر ، والذى كانت عربات وفرسان فرعون تجلجل فوقه ، وهى تتبعهم فى مطاردة حامية . هكذا — يا فتــاى — ما تزال جين المسكينة تطأ بقدميها رقعة الصحراء التى تضيق يوميا

عن استيعاب يأسها .. أما المجــدل ، فهو اليقين الثابت فى ذهنه ، بأن حبها لن يكون سوى اشــفاق !.. وأما البحر الأحمر فهو الاعتراف الذى يتحتم عليها أن تخوضــه ، حتى تتجنب تسلق المجدل .. وقد يغرق حبه فى المياه الباردة ، وهى تجره خلفها ، لأن أمواج الشك وعدم الاطمئنان تندفع فوق هامته .. أمواج الشك الذى فقد المقدرة على ازاحته عنه .. وعدم الاطمئنان الذى لا يؤمل يوما فى أن يتأكــد من انه كان خطأ وزيفا .. وفى أعقاب كل ذلك تندفع جحافل فرعون فى سرعة فائقة .. انها الأقدار تجرى بسرعة على عجــلات الظروف ! وبين أية لحظة وأخرى ، قد يقع حــدث يســفر عن كشف وإلهام . وإذ ذاك ، سيصعد هو متسلقا صخور المجدل ، بيدين ممزقتين ، وقدمين داميتين . أما هى — جين المســكينة — فســتبقى تتخبط فى أعماق البحر الأحمر ..

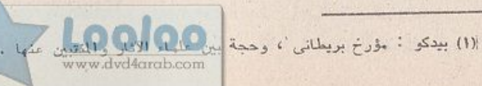
أواه ، من لها بموسى مبعوث برسالة من السماء ، فيمد لهــا عصاه السحرية .. عصا المحب الذى يستشف بواطن الأمور ، ويشق طريقا وسط الأهوال ، حتى يقدر لهما ان يبلغا معــا أرض الميعاد ! فيا صديقى العزيز الحكيم ، هل تجــرؤ على القيام بدور موسى ؟

« ولكن ، كأنى بنفسى أكتب صفحة من دليل « بيدكر »[1] ، غير مستطيعة أن أسجل الحقائق الواقعية !

« ان لك أن تتصور جين وقد أصبحت نحيلة شاحبة بالرغم

---

(1) بيدكو : مؤرخ بريطانى ، وحجة بين علماء الآثار والمنقبين عنها .



عما تقدمه لها العجوز مارجرى من أطباق الثريد ، التى تعد يوميا ـ بعد الغداء لتقدم مع فطور الصباح التالى ـ وعلى كل من يمر بالاناء أن يحرك ما به قليلا .. أفكنت تعلم ـ قبل ذلك ـ بأن هذه هى الطريقة الصحيحة لطهى الثريد يادريك؟.. لقد كنت اظن دائما بأنه طبق يتم اعداده فى خمس دقائق ، حسب الطلب . وإذا صح ما تقوله « مارجرى » ، فان الثريد الذى كنت أعرفه ليس سوى نوع إنجليزى يحمل هذا الاسم تجاوزا !

ولكن اى حديث أصطنعه تهربا من الواقع ؟!.. يا إلهى أن الجرح الذى فى قلبى عميق الغور ، ومتقرح ، حتى اننى اخشى الكشف عنه ، ولو بيدك الرقيقة !.. ترى أين بلغت فى حديثى؟ .. لقد أتاح « الثريد » مهربا !.. لا بأس ، لقد كنت أقول أن جين تزداد ضعفا ونحولا ، بالرغم من أطباق الثريد التى تقدمها لها مارجرى العجوز . أما المرضة « روزمارى جراى » ، فانها تزداد ازدهارا وبهاء ، وهى دائما الفتاة الصغيرة ، الجميلة ، الرقيقة ، التى يزيدها فتنة شعر أشقر خفيف متهدل حريرى الملمس . .هذه هى اللمسة التى أضفاها الدكتور « روب » على الصورة الساحرة !.. وما كنت ـ بهذه المناسبة ـ لأتوقع أن اجده كما هو .. اننى اتعلم كثيرا من الدكتور ماكينزى ، فى حين أننى مشغوفة بالدكتور « روب » ، اللهم الا فى تلك الحالات التى أتوق فيها إلى أن أرفعه من ياقة معطفه ، والقى به من النافذة !.. أما عن شكل المرضة روزمارى ، فقد رايت من الأفضل أن أصارح الخدم بجلية الأمر تماما ، فليس

فى وسعك أن تتصور كم من مأزق خطير تعرضنا له .. فقد حدث عندما وفد « جارث » على حجرة المكتبة ـ لأول مرة ـ أن أمر « سمسون » بأن يحضر سلما للآنسة جراى .. وهم « سمسون » بأن يفتح فمه ليذكر أن المرضة جراى تستطيع بلوغ الرف الأعلى ، على أطراف أصابعها بسهولة تامة ، وأنه رآها تفعل ذلك من قبل . ولكن التربية الكاملة التى ينشأ عليها الخدم الإنجليز ، أنقذت الموقف ، فلم يقل سمسون سوى : « سمعا ، يا سيد ! .. أجل يا سيدى ! .. » ثم التفت نحوى وهو صامت بجانبى ، كمن ملأه السرور لأنه كاد يسبب لى ارتباكا لا موجب له .. ولو كان الأمر مع العجوز مارجرى العزيزة ، ولسانها الاسكتلندى الذى يبدأ متباطئا ، ثم تزداد سرعته باطراد كلما تحرك حتى يصعب ايقافه ما لم يسكب المختزن من أفكارها ، فلكم كنت أتوق ـ فى مثل هذه الحالات ـ إلى أن أحملها بين ذراعى النحيلتين ، والقى بها خارج الحجرة !.. لهذه الأسباب استدعيت « سمسون » و « مارجرى » إلى قاعة الطعام ، فى إحدى الأمسيات ، بعد أن بات السيد بعيدا عن سماع حديثنا ، وابلغتهما أن أسبابا لا يسعنى إيضاحها ، استدعت إزجاء أوصاف لا تطابق مظهرى . فهو يعتقد اننى قصيرة ، نحيلة ، شقراء ، جميلة جدا .. وأنه من الأهمية بمكان ان نرتضى هذا الغش ، لكى نتفادى ايضاحات طويلة ، قد تحدث له اضطرابات ذهنية !.. ولم يتغير مظهر سمسون المطبوع على الأدب والانتباه ، وأجاب بقوله : « طبعا يا آنسة .. تماما ! » . أما من الجهة الأخرى ، فقد كست وجه العجوز مارجرى ـ

أثناء حديثى ـــ سحب خفيفة تنم عن آرائها ، ولكن هذه الآراء
تبلورت عند نهاية الحديث ، إلى بسمة قبول وموافقة ..
بل أنها أضافت إلى ذلك تعليقا خاصا ، بقولها : « أنه لأمر
حسن جدا ، كما أعتقد .. فان السيد جارث ـــ ويا للفتى
المسكين ! ـــ كان يحرص دائما على أن يحيط نفسه بالجمال
.. وكثيرا ما كنت أقول له ، حين يدعو أصدقاءه لزيارته ..
فاذا به يتجه بكل تفكيره عند بحث شئون المأدبة ، إلى العناية
بنظافة ولمعان الأدوات الفضية واعداد الكؤوس البللورية
المصنوعة فى البندقية والأوانى الصينية الفاخرة ! ـــ :
« يا سيد جارثى » هذا ما كنت أقول له ، ثم أردف ، إذا شعر
بأن المناسبة تدعو إلى الاقتباس من التوراة : « أن اهتمامك
يبدو لى متجها بكليته إلى ما هو خارج الكأس والأطباق ،
فلست تهتم بما فى الداخل !.. ولذلك فمن الصواب أن نبقيه
مخدوعا يا آنسة جراى ! » .. ثم أضافت ، إذ سعل سمسون
ـــ بما طبع عليه من أدب وكياسة ـــ ووكزها بمرفقه ـــ « ذلك
لأنه بالرغم من أن الوجه البسيط قد يجد من جمال التعبيرات
المرتسمة عليه ما يعوضه عن جمال القسمات ، الا أنه من
المتعذر علينا أن نصف التعبيرات الرقيقة للأعمى ! » . وهكذا
ترى يا دريك أن هذه العجوز الذكية ـــ التى عرفت حقيقة
جارث منذ مولده ـــ قد اتفقت معى ـــ تمام الاتفاق ـــ فى قرارى
الذى اتخذته منذ ثلاث سنوات مضت ! ..

« والآن لأكمل تقريرى .. لقد سبب لنا الصوت بعض
المتاعب ، كما بدا الأمر لك . وكانت خطتنا كلها معلقة فى

ميزان القدر لبضع لحظات رهيبة . ذلك لأنه وان تقبل
بسهولة التفسير الذى دبرناه ، الا أنه أرسلنى إلى خارج
الحجرة ، ليخبر الدكتور ماكينزى بأن صوتى فى الحجرة كفيل
بأن يثير جنونه . وكأن الدكتور « روبى » سيد الموقف فى ذلك
اليوم ، وقد كسب الجولة . إذ أن جارث لم يكد يتقبل تفسيره،
حتى كف عن العودة إلى ذكر الموضوع .. غير أننى أراه
ـــ أحيانا ـــ يصيخ السمع . وكأنه يستحث ذاكرته !.. على
أن الممرضة « روزمارى جراى » تنعم بساعات سعيدة ، فى
حين أن جين المسكينة تظل مبعدة . ذلك لأن مريضها يتجه
إليها ويعتمد عليها ويتحدث إليها ويبذل الجهد ليصل إلى عقلها
وليكتشف لها عقله .. وأنه لشخص رائع لمن يقيم معه ويعرفه
جيد المعرفة .. كل ذلك وجين تتمشى فى الخارج ، فى البرد
القارص ، منصتة إليهما وهما يتحدثان بينما تتلوى هى عذابا ،
فقد تحققت من ضآلة تقديرها للنعمة الجميلة التى طرحت يوما
تحت قدميها ، واستوثقت من طبيعة وعقل الرجل الذى
صدته عنها بحجة أنه مجرد غلام ـــ وعقله !.. ان الممرضة
« روزمارى جراى » تجلس بجواره ، ساعات طويلة من
الايناس العذب ،.فاستطاعت أن تعرف كل هذا . بينما تضرب
جين فى طريقها الصحراوى الضيق ـــ صعودا وهبوطا ـــ وهى
تعانى ريح الجنوب المحملة باليأس !

« والآن ، انتقل إلى أهم نقطة فى هذا الخطاب . ومع أننى
امرأة ، فلن أعمد إلى الايجاز . أليس فى وسعك يادريك أن
تحضر قريبا لزيارته ، ولنتحدث فى الأمر ؟.. لقد طفح الكيل ،

ولم أعد أحتمل أكثر من ذلك دون معونة .. أما هو فسوف يغتبط بحضورك ، ليطلعك على ما وصل إليه من تحسين ، وليريك كل الأشياء التى تعلم أن يعملها .. كما أنك قد تستطيع أن تذكر له كلمة عن « جين » ، أو أن تهيىء عقله لهذا الموضوع ، على الأقل !.. اواه يا فتاى ! ليتك تستطيع أن تنزل عن ثمان واربعين ساعة ، وستنعشك نسمات البرك والحقول .. ثم أن لدى خطة صغيرة خاصة ، يتوقف تنفيذها على حضورك .. أواه يا فتاى .. الا احضر !

صديقتك المحتاجة إليك « جانيت »

* * *

من السير دريك براند إلى الممرضة روزمارى جراى بقصر جلينيش شمال انجلترا شارع ويمبول .

« عزيزتى جانيت : سأحضر دون ريب ، وسأبرح محطة (ايستون) فى مساء الجمعة ، وبذلك اقضى معكم فى جلينيش طوال يوم السبت ، وجزءا كبيرا من يوم الأحد ، على أن أعود إلى عملى صباح الاثنين . ولسوف أبذل كل ما أملك من جهد . ولكننى ـ مع الأسف ـ لست موسى ، ولا امتلك عصاه السحرية . فضلا عن أن الأبحاث الحديثة دلت على أن بنى إسرائيل ما كانوا ليستطيعوا أن يتجاوزوا المكان الذى تذكرينه، وإنما كان عبورهم خلال البحيرات المرة . إنه مجرد تفصيل ، لا يمس بأى حال صحة إيضاحاتك ، وإنما هو إضافة لها ، لأننى أخشى يا بنيتى العزيزة أن تكون فى طريقك مياه مرة ! ومع ذلك فانى آمل .. كلا ، بل اننى أكثر من آمل ، اننى ملىء

بالثقة . فكثيرا ما اتجه ذهنى ـ وأنا أفكر فيك ، فى الفترة الأخيرة ـ إلى الوعد الالهى بأن كل الأمور تعمل معا للخير .. فكل أمرىء يستطيع أن يجعل الأمور الطيبة تتفاعل معا فى سبيل الخير .. ولكن « أبانا الذى فى السماء » هو وحده الذى يستطيع ان يصنع من الشر خيرا ، وأن يأخذ كل أخطائنا وهفواتنا وجهالتنا ، فيوجهها بحيث تعمل جميعا لتحقيق الخير العميم لحياتنا .. وكلما ازدادت معضلة كياننا البشرى تعقدا وارتباكا ، ازدادت حاجتنا إلى التمسك فى الحياة بالحكمة الجليلة الواضحة : « اعتمد على الله بكل قلبك ، ولا تعتمد على فهمك .. وفى كل طرقك اعتمد عليه، فهو الذى يقوم سبلك» .. انها أوامر قديمة وبسيطة للسير ، ولكنها صادقة، ومن ثم فهى أزلية !

« سرنى أن أثبتت الممرضة روزمارى كفاءة ممتازة ، غير أننى آمل الا نواجه ـ بعد الآن ـ اضطرابات جديدة فى معضلتنا .. هبى أن مريضنا وقع فى غرام الممرضة الرقيقة ، الصغيرة « روزمارى » . فماذا يكون مصير جين ؟.. أخشى فى هذه الحالة أن تفتح الصحراء فمها ـ إذ ذاك ـ وتبتلعها . فعلينا أن نتحاشى مثل هذه النكبة ! أليس فى الوسع إغراء « روزمارى » على أن تفلت حرف « هـ » ـ من نطقها ـ أو أن تبين أنها قد مالت إلى سمسون ؟.. اواه يا بنيتى العزيزة المسكينة! .. ما كان لى أن أداعبك ، لو لم أكن قادما ـ عما قريب ـ لمعاونتك . يالها من محنة تبعث الجنون !.. ويالك من غالية ، ولكن معظم الرجال حمقى أو عميان . بل أن رجلا

منهم جمع بين الأمرين !.. ثقى من أننى سأثبت له ذلك ، ارضاء لنفسى وله .. إذا واتتنى الفرصة !

المخلص لك دائما : دريك براند »

من السير دريك براند إلى الدكتور روبرت ماكينزى

« عزيزى ماكينزى : هل ترى من الصواب أن أحضر قريبا لزيارة مريضنا فى جلينيش ، ولأدلى برأى فى تقدمه ؟ أرى أن من الممكن أن أحضر فى عطلة آخر الأسبوع .

أرجو أن تكون راضيا عن المرضة التى أرسلتها .

صديقك المخلص جدا : دريك براند »

* * *

من الدكتور روبرت ماكينزى إلى السير دريك براند

« عزيزى السير دريك : أن السيدة القديرة التى ارسلتها لتكون ممرضة لمريضنا تؤدى كل حاجة تعن له ، وحتى لم تعد بالمريض حاجة إلى ، ولا إليك انت .. غير أننى أرى من الخير العظيم أن تحضر قريبا لزيارة الممرضة نفسها ، إذ انها تفقد من لحمها وشحمها اكثر مما تحتمل أية سيدة فى مثل عودها . ان هما خفيا ، يعمل إلى جانب القلق الطبيعى — الناجم عن مسئولياتها فى هذه الحالة — على النيل من صحتها . وقد تفضى إليك بدخيلة نفسها . فى حين لا تقوى على أن تضع ثقتها فى شخصى .

خادمك المطيع : روبرت ماكينزى »

الفصل الحادى والعشرون

جلست الممرضة « روزمارى » مع مريضها فى حجرة المكتبة بقصر جلينيش ، وبينهما منضدة صغيرة حملت اكداسا من الخطابات ، وافاه بها بريد الصباح .. وكان عليها أن تفضها ، وتقرأ عليه فحواها ، وتقدم له ما يرغب فى تلمسه أو فى الاحتفاظ به فى جيبه .. وكانا يجلسان بجوار النافذة الفرنسية المؤدية إلى الشرفة ، تهب عليهما نسمات معطرة بعبير زهور الربيع ، وقد نفذت أشعة شمس الصباح داخل حجرة المكتبة .. وكان « جارث » فى ملابس من « الفانيلا » البيضاء ، وربطة عنق خضراء ، وفى عروة سترته بعض زهور الربيع .. وقد جلس مضجعا فى رضى ، مستمتعا بحواسه التى كانت تسرع فى استرداد انتعاشها ، وبعبير الزهور ، وبلمسات اشعة الشمس .

وفرغت الممرضة « روزمارى » من تلاوة خطاب خاص بها ، فطوته ووضعته فى جيبها بشعور كله ارتياح وشكر . فقد كان دريك قادما . ولم يخيب ظنها !.. وسألها جارث على غرة منها : « أهو خطاب رجل يا آنسة جراى ؟ » فأجابته الممرضة روزمارى : « تماما .. وكيف عرفت ذلك ؟ » . وكان جوابه : « لأنه محرر على ورقة واحدة .. ذلك لأن خطاب المرأة — إذا كان لأمر هام — يستغرق ورقتين أو ثلاثا — وهذا الخطاب كان لأمر هام ! » . فهتفت الممرضة روزمارى : « لقد صح استنتاجك للمرة الثانية .. وللمرة الثانية اسألك ، كيف عرفت

ذلك ؟ » . فقال : « لانك تنهدت فى ارتياح تام ، عندما أكملت السطر الأول . وتنهدت ــ للمرة الثانية ــ عندما طويت الخطاب وأعدته إلى غلافه !

وضحكت الممرضة روزمارى وقالت : « انك تتقدم بسرعة يا سيد دالمين ، ويخيل لى اننا لن نستطيع ــ بعد قليل ــ ان نحتفظ بأى سر لنا .. لقد كان خطابى من .. » . ولكنه صاح مقاطعا بسرعة ، وقد مد يده محتجا : « لا ، لا تخبرينى !.. فليس بى ميل أو فضول نحو مراسلاتك الخاصة يا آنسة جراى .. ولكن من أكبر دواعى سرورى ان ابين لك التقدم الذى بلغته فى التعرف على الأشياء دون الاسترشاد بأحد ! » . فقالت الممرضة : « إنما أردت أن أبلغك أن الخطاب من السير دريك ، وقد جاء ضمن ما حوى أنه قادم إلى هنا ليراك فى يوم السبت القادم » . فقال جارث : « جميل جدا .. ما أعظم التحسن الذى سيلمسه فى حالتى .. وسيسعدنى ان اقدم له تقريرا عن الممرضة ، كاتمة السر ، وقارئة خطاباتى ، والمرشدة الصبور فى غير ثرثرة .. بل الرفيقة الملازمة التى انتقاها لى » .

ثم اردف فى جزع ولهفة : « ارجو الا يكون حضوره لكى يأخذك من هنا .. اصدقينى !.. فأجابته الممرضة روزمارى : « كلا ، فان الوقت لم يحن بعد لذلك .. ولكننى أردت ــ يا سيد دالمين ــ أن اسألك ان تسمح لى بالتغيب عنك لما لا يتجاوز ثمانى واربعين ساعة ، وستكون زيارة الدكتور براند فرصة مناسبة لهذا الغياب ، لعلمى بأنك تأنس إليه . فاذا

سمحت لى بعطلة نهاية الأسبوع . فسأرحل فى مساء الجمعة، واعود فى ساعة مبكرة من صباح الاثنين ، فى موعد مناسب لفض بريد الصباح .. وسيقرأ عليك الدكتور براند خطابات السبت والأحد .. آه ، نسيت أن لا بريد هناك فى يوم الأحد فكأننى لن افوت غير بريد يوم واحد .. كما أن الدكتور براند سيكون أكفأ منى فى مهام أخرى ! » . فأجابها جارث وهو يناضل لاخفاء ما ألم به من استياء : « حسنا .. لقد كنت اود كثيرا لو بقينا ثلاثتنا لنتحدث معا ، ولكن لا غرابة فى أن تكونى بحاجة إلى اجازة صغيرة .. فهل تقصدين جهة بعيدة ؟ »

ــ كلا ، فان لى أصدقاء فى جهة قريبة من هنا .. والآن هل تريد أن نتفرغ للبريد ؟

فمد جارث يده قائلا : « نعم .. انتظرى دقيقة واحدة .. هناك صحيفة بين الرسائل ، فانى أشم رائحة مداد المطبعة .. لا أريدها ، فتكرمى باعطائى بقية الرسائل ! » . فأبعدت الممرضة « روزمارى » الصحيفة ، ودفعت إليه بالرسائل حتى لمست يديه . وإذ تناولها ، ارتسمت على شفتيه بسمة سرور بما هو مرتقب ، وقال : « يالها من كمية كبيرة ! وعلى ذكر ذلك ــ يا آنسة جراى ــ لو أنك كنت تتقاضين أجرا يتناسب مع ما تقومين به من تلاوة هذه الرسائل الكثيرة المحررة بأساليب سهلة وغير سهلة ، لاستطعت أن تقومى بمشروع شامل تسمينه : « الكتاب القارىء » .. أتذكرين مواساة السيدة باركر بانجس ؟.. أعتقد أنها كانت أول مرة ضحكنا فيها معا . يالها من عجوز كريمة !.. ولكنه لم يكن جديرا بها

أن تذكر قصة برثيماوس الأعمى » ، الذى غطس سبع مرات
فى بركة (سلوام) .. فمن الخير دائما تجنب التشبيهات
العتيقة ، لا سيما إذا كانت من الكتب المقدسة ، إلا إذا كان
المرء يعيها بدقة .. والآن .. » . ثم صمت جارث .. وكان
فى تلك الأثناء يتحسس الرسائل واحدة فواحدة ، وهو يفحصها
بأصابعه بعناية ، قبل أن يضعها على المنضدة بجواره ، حتى
وصل إلى رسالة كانت على ورق اجنبى ، ومختومة بالشمع
فقطع الحديث فى حدة .. وأمسك بالرسالة دقيقة وهو
صامت ، ثم مر بأصابعه على الختم .

* * *

وكانت المرضة روزمارى تراقبه فى لهفة ، فلم تصدر عنه أية
إشارة ، غير انه لم يلبث أن وضع الرسالة على المنضدة ، وأخذ
ما بعدها .. حتى إذا ما أعاد إلى المرضة الرسائل ، جعل
الرسالة المختومة فى آخرها ، حتى تقرأها عليه بعد فراغها
من جميع الرسائل .. ثم بدأت الإجراءات المعتادة ، فأشعل
جارث سيجارته ـ وهو أول عمل أجاده بنفسه ـ وأخذ
يدخنها متلذذا . وقد استوثق من موقع منفضة الرماد ، وراض
يده على إلقاء الرماد داخلها بكل دقة . بينما تناولت المرضة
« روزمارى » الرسالة الأولى ، فقرأت خاتم الجهة التى وردت
منها ، وقدمت إليه وصفا كاملا للخط الذى كتب به الغلاف ،
فاستطاع « جارث » أن يتعرف على اسم صاحب الرسالة .
وكان يسر غاية السرور حين يتبين بعد فض الغلاف صحة
تخمينه ، فى كل مرة .. وكانت الرسائل ـ فى هذا اليوم ـ

تسعا ، من جهات مختلفة ، فبعضها من أصدقائه من الرجال ،
ورسالة أو اثنتان من حسناوين سجلتا استعدادهما للحضور
لرؤيته ، حالما يبدى رغبته فى قبول الزائرين .. ورسالة من
ملجأ للعميان يطلب مساعدة مالية .. وبطاقة صغيرة من
الدكتور براند يعلن فيها اعتزامه الحضور .. ثم قائمة حساب
ـ بثمن ربطات للعنق ـ من محل تجارى بشارع (بوند) بلندن
.. وارتعشت أصابع المرضة « روزمارى » وهى تعيد
الخطاب الثامن إلى غلافه ـ ولم يبق على المنضدة سوى
الرسالة الأخيرة ـ فلما التقطتها بيدها ، بادر جارث بالقاء
لفافة التبغ من النافذة ، فى حركة عصبية . ثم استلقى فى
مقعده وقد غطى وجهه بيديه . وقال : « هل أجدت إلقاء
اللفافة أيتها المرضة ؟ » .

ومالت إلى الأمام ، فشاهدت دخان اللفافة متصاعدا من
فوق الحصى ، فقالت له : « تماما يا سيد دالمين .. هذه
الرسالة تحمل طابعا مصريا ، وعليها خاتم بريد القاهرة كما
انها مختومة بالشمع الأحمر ، بخاتم يحمل شعارا به خوذة
عليها ريشة وقناع محكم » . فسالها جارث فى هدوء تام :
« والخط الذى كتبت به ؟ » . وأجابت : « ان الخط الذى
كتبت به يتسم بالجراة والوضوح الكامل ، وليس به دوران
ولا تنميق ، وقد كتب بريشة عريضة » .

ـ هل لك أن تتفضلى ايتها المرضة بفض الغلاف ، وقراءة
التوقيع قبل تلاوة ما بالرسالة ..

وعند ذلك أخذت المرضة « روزمارى » تسعل لتجلو
حنجرتها التى أوشكت أن تسد فتخنق صوتها .. ثم فضت



— هل لك ان تتفضلى ايتها الممرضة بقص الغلاف وقراءة التوقيع قبل تلاوة ما بالرسالة

الرسالة ، ونظرت إلى صفحتها الأخيرة ، وقرأت التوقيع .. وقالت له : « ان التوقيع يا سيد دالمين هو .. جين شامبيون » . فقال لها جارث فى هدوء : « أرجو أن تقرئى لى الرسالة » . وشرعت الممرضة روزمارى فى تلاوتها :

« عزيزى دال .. ما عساى أن اكتب لك ؟!.. لو اننى كنت بجوارك لتدفق منى حديث طويل ، أما الكتابة فمن الصعوبة والاستحالة بمكان .. اننى أعلم أن الأمر اشق عليك مما لو كان على اى فرد منا .. ولكنك ستكون اكثر منا جميعا شجاعة فى التغلب عليه . ولسوف تخرج من المحنة على أحسن حال ، وتستمر على ايمانك بجمال الحياة ، واظهارها كذلك للاخرين .. اننى ما كنت لأتصورها كذلك ، حتى كان ذلك الصيف الذى ضمنا فى (اوفردين) و (شينستون) ، فعلمتنى كيف استجلى الجمال .. ومنذ ذلك اليوم وانا اذكرك فى غروب شمس كل يوم ، وفى شروقها .. على صفحة المحيط الأطلسى اللازوردية ، وفوق قمم الجبال الأرجوانية ، وفى رشاش شلالات نياجرا ، وفى زهور الربيع فى اليابان ، وفى صحراء مصر الذهبية .. فلقد استوعبت كل هذه وأدركت جمالها بفضلك .. أواه يا دال ، لكم أتمنى الحضور لأنبئك بكل شىء : حتى يتسنى لك أن تراها خلال عينى ، وإذ ذاك فانك ستزيد فهمى اياها اتساعا ، وتبصرنى بها فى مزيد من الجمال .. ولكننى علمت بأنك لا تقبل زائرين .. أفلا ترتضى استثناء واحدا ، فتسمح لى بالحضور إليك ؟

« لقد كنت عند الهرم الأكبر عندما بلغنى الخبر .. كنت مستلقية فى استرخاء ، فى شرفة الفندق — بعد العشاء —

وقد أثار نور القمر أشجانى ، وأهاج ذكرياتى .. وكنت قد صممت ساعتئذ على أن أعدل عن السياحة فى حوض النيل ، لأعود إلى الوطن ، واعتزمت أن أكتب إليك لتحضر للقائى .. وفى تلك اللحظة ، وصل الجنرال « لورين » ومعه صحيفة وخطاب من « ميرا » .. وبذلك علمت بالفاجعة !.. ترى أكنت تقبل دعوتى وتحضر لمقابلتى يا جارث ؟.. والآن يا صديقى ــ وأنت لا تقوى على الحضور إلىّ ــ أيمكننى أن أحضر إليك ؟.. كلمة واحدة تصدر من فمك : « احضرى ! » كافية لأن أطير إليك من أبعد بقعة فى الأرض أكون فيها لدى تسلمى رسالتك .. لا تعبأ بالعنوان الذى فى خطابى هذا فى مصر ، فلن أكون هنا لدى اطلاعك عليه ، وإنما اكتب لى بعنوان عمتى فى دارها بالمدينة ، فكل رسائلى ترسل إلى هناك ثم تحول إلىّ ــ مغلقة ــ حيث أكون .

« دعنى أحضر ، وثق أننى أقدر مدى قسوة الأمر عليك . ولكن الله خير معين !.. وتأكد دائما أننى :

الوفية فوق ما يقوى القلم على وصفه : جين شامبيون »

＊＊＊

ورفع جارث يده التى كانت تغطى وجهه ، وقال : « إذا لم تكونى متعبة يا آنسة جراى ، بعد تلاوة كل هذه الرسائل ، فانى مشوق إلى أن أملى عليك ردى على هذا الخطاب فورا ، وهو ما يزال حاضرا فى ذهنى .. هل لديك أدوات الكتابة .. شكرا لك ، هل نبدأ ؟ » .. وشرع يملى :

« عزيزتى الآنسة شامبيون : لقد تأثرت أعمق التأثر لخطابك الرقيق الذى يفيض عطفا ، فكان له فى نفسى وقع

حسن . وأنه لجميل منك أن تكتبى لى من البلاد النائية ، ومن بين أشياء كانت خليقة بأن تشغل بالك عن أصدقائك فى الوطن .. » .

ثم سادهما صمت طويل .. وانتظرت الممرضة «روزمارى» والقلم فى يدها ، مؤملة أن يقتصر تردد ضربات قلبها على أذنيها وحدها ، فلا يترامى عبر المنضدة .. ثم استأنف جارث إملاء خطابه : « سرنى أنك لم تعدلى عن رحلتك فى النيل ، ولكن ... » .

وعند ذلك سمع طنين نحلة جاءت من شجرة الخزامى ، وحطت على زجاج النافذة . وفيما عدا ذلك ، عم السكون الحجرة . ثم استطرد جارث : « ولكن .. لو أنك كتبت إلىّ ، لكنت قد جئت طبعا .. » .

وراحت النحلة تناضل ضد النافذة فى حنق ، صاعدة وهابطة ، مرة تلو أخرى ، لعدة دقائق ، ثم اهتدت إلى مصراع زجاجى مفتوح ، فانطلقت منه فرحة إلى أشعة الشمس . ثم ساد الحجرة صمت تام .. اخترقه صوت جارث ــ بعد حين ــ وهو يملى فى هدوء : « وأكرم من ذلك أن تقترحى رغبتك فى الحضور لرؤيتى ولكن ... » .

وهنا أسقطت الممرضة روزمارى القلم من يدها ، وقالت له : « أواه يا سيد دالمين .. دعها تحضر ! » . فاتجه إليها جارث بوجه كله دهشة بالغة ، وقال لها فى لهجة حاسمة : « لا أريد ذلك » . ولكنها عادت تقول : « ولكن تصور مدى القسوة على أى امرىء يود كثيرا أن يكون قريبا ... أن يكون

صديقا فى المحنة ، ثم يرفض سؤله ! » . فقال : « ما دفعها إلى اقتراح المجىء سوى ما لها من قلب مفعم بالرحمة ، يا آنسة جراى .. فهى صديقة وزميلة منذ امد بعيد ، ولهذا فسوف تحزن كل الحزن إذا راتنى فى هذه الحالة ! » .

ولكن الممرضة عادت ترجو ملحفة : « هذا لا يبين من خطابها .. الا يمكنك أن تقرأ ما بين السطور ؟ .. ام أن قلب المرأة وحده هو الذى يفهم قلب المرأة ؟ .. ام ترانى لم أحسن قراءته لك ؟ .. هل لى أن أعيد قراءته ؟ » . فانعقدت على وجه جارث امارات غيظ حقيقى ، ثم تكلم بحزم ورصانة ، وقد قطب حاجبيه الأسودين المستقيمين : « بل انك قد اجدت قراءته اتم إجادة ، ولكن ليس من المستساغ ان تناقشينى .. واود ان اكون حرا فى املاء رسائلى إلى كاتمة سرى ، دون أن أطالب بتفسير ! » .. فأجابته الممرضة « روزمارى » فى ذلة « أرجو منك الصفح يا سيدى .. لقد أخطأت ! » .

وبسط جارث يده عبر المنضدة ، وتركها لحظة ، وان لم يجد يدا تستجيب وتقابلها . ثم قال لها بابتسامته الخلابة : « لا بأس يا مرشدتى ودليلى الصغيرة الرحيمة .. لك أن توجهينى فى أكثر شئونى . ولكن ليس فى هذا .. والآن دعينا نختم الرسالة .. إلى أى كلمة انتهينا ؟ .. آه ! .. « رغبتك فى الحضور لرؤيتى ، ولكن » ... هل أضفت لذلك أنه لطيف منك .. أو أنه أكثر من اللطف ؟ » . فأجابته الممرضة روزمارى بصوت متهدج : « وأكرم من ذلك » . فقال : « لا بأس .. انه ـ فى الواقع ـ أكثر من الكرم . وليس سواها وسواى من

يستطيع ان يدرك مدى هذا .. والآن دعينا نكمل .. « غير انى لا أستقبل زائرين ، ولا رغبة لى فى استقبال أحد ، إلى أن أقوى على السيطرة الكاملة على الظروف التى تتعلق بعجزى ، فلا تكون اليمة او ملحوظة لدى الغير . ولسوف أتعلم ـ خلال الصيف ـ كيف أعيش فى هذه الحياة الجديدة ؛ خطوة فخطوة ، فى عزلة تامة فى جلينيش . وانا اشعر بيقين من أن أصدقائى سيحترمون رغبتى فى ذلك . ومعى الآن شخص يقوم بمساعدتى على أتم سبيل وفى طول أناة .. ولكن انتظرى ! » .. قال جارث فى صيحة مفاجئة ، ثم أردف : « لا أريد أن أذكر ذلك ، فقد تساورها بعض الشكوك ، وقد تسىء الفهم .. هل بدأت كتابة تلك الجملة ؟ كلا .. ماذا كانت آخر كلمة ؟ .. « ذلك » ؟ .. آه ، نعم ، هذا صحيح .. ضعى نقطة بعد كلمة « ذلك » .. والآن دعينى افكر ! » . واخفى وجهه فى راحتيه ، وجلس طويلا مستغرقا فى التفكير .

وانتظرت الممرضة « روزمارى » ، وقد أبقت يدها اليمنى ـ الممسكة بالقلم ـ على الورق . اما يدها اليسرى فظلت ضاغطة على صدرها ، وقد ثبتت بصرها على ذلك الراس الأسود المنحنى ، فى نظرة كلها حنين وحنان مشبوب ! ..

ورفع جارث راسه ـ اخيرا ـ واختتم الاملاء ، قائلا : « صديقك المخلص : جارث دالمين » . وفى صمت تام ، كتبت الممرضة روزمارى العبارة .

الفصل الثانى والعشرون

فى ذلك الصمت الممض ، الذى أعقب الأملاء واغلاق الرسالة، انبعث صوت الدكتور روب.. الباعث على الابتهاج: «ترى من مريض اليوم ؟.. أهى السيدة ام السيد ؟.. ارى انه لا هذا ولا تلك ، فكلاكما يشع ببريق الصحة الكاملة ، مما يجعل الطبيب يخجل .. انه ربيع فى الظاهر ولكنه صيف فى الداخل ! » . وأقبل عليهما الدكتور روب وهو فى دهشة مما بدا على وجهيهما من شحوب وامتقاع ، ولما خيل إليه انه يستنشق فى الهواء من دخان قلوب تحترق .. عاد يقول : « كأنى بالملابس البيضاء تغرى بالنزهة فى القارب وتناول الوجبات فى الخلاء .. وانى لأراك — أيتها الممرضة جراى — قد طرحت عنك المعطف الصوفى ، وعدت إلى الثياب الزرقاء الجميلة .. انها تناسبك جدا ولا ريب ، ولكن حذار من البرد، واحرصى على التغذية الطيبة ، لأن مثل هذا الجو يستلزم الاكثار من الغذاء ، لا سيما بعد أن فقدت أخيرا جزءا ملحوظا من وزنك .. فنحن لا نريد ممرضات قصيرات ، نحيفات ! » .

وهنا سأله جارث بلهجة يسودها الكدر : « لماذا تعير الآنسة جراى دائما بأنها ضئيلة الجسم يا دكتور روب ؟ أنا موقن من أن قصر قامتها لا يعيبها ولا يلحق بها ضررا ما ! » . فقال الطبيب : « سأعيرها بأنها طويلة ، إذا راق لك ذلك » . ونظر إليها ، ثم غمز بعينه فى خبث ، بينما كانت واقفة لدى النافذة بقوامها المشوق ، وقد وجهت إليه نظرة امتعاض .

فقال جارث فى شىء من الصراحة : « بل أفضل ألا أسمع تعليقا ما عن مظهرها الشخصى ! » . . ثم أردف بلهجة اخف وقعا : « انك تدرك أنها مجرد صوت بالنسبة لى .. صوت رقيق يقودنى ويهدينى .. لقد شغل بالى فى أول الأمر أن أتمثل لها صورة ذهنية غامضة غير واضحة .. أما الآن ، فانى أفضل أن أقيس كل شىء أعلمه عنها ، بمقياس ما تقدمه لى من عون ، واترك ما لا أعلمه دون ما تصور .. هل خطر لك مرة أنها الشخص الوحيد — واسقط من الحساب ذلك الفتى جونسون ، لأنه يذكرنى بعهد الكوابيس الذى أعمل على نسيانه بسرعة فائقة ! — أريد أن أقول أنها الشخص الوحيد الذى يلازمنى وأنا فاقد البصر ، دون أن أكون قد رأيته ؟.. وأن صوتها هو الصوت الوحيد الذى اسمعه ولا أقوى على أن أتمثل له جسما ووجها .. ومع الوقت طبعا ، سيكون حولى كثيرون .. أما الآن فانها الوحيدة التى تلازمنى ! » .

ودارت عينا الدكتور روب الثاقبتان ترمقان كل شىء ، وتنقبان فى كل ركن — أثناء حديث جارث — عسى أن تهتديا إلى شىء تنصرفان إلى فحصه . وفجأة ، وقعت عيناه على المنضدة . فقال : « عجبا ، الأهرام ؟!.. طابع البريد المصرى ؟.. أنه طريف . هل لك أصدقاء هناك ؟ » . فأجابه جارث : « لقد وصل هذا الخطاب من القاهرة ، ولكننى أعتقد أن الآنسة شامبيون قد ذهبت إلى سوريا » .

وراح الدكتور « روب » يعبث بشاربيه ، وهو يحملق مفكرا .. « شامبيون » ؟.. ثم أردف : « شامبيون ؟ انه

اسم غير شائع .. ترى ، أتكون كاتبة هـذا الخطاب ، هى النبيلة جين ؟ » . فأجاب « جارث » فى دهشة وقد ارتجفت نبرات صوته : « هذا الخطاب منها حقا .. هل تعرفها ؟ » . فأجابه الدكتور « روب » فى تفكير وروية : « أجل .. أعرف وجهها ، وأعرف صوتها ، وأعرف تكوينها ، وأعرف الكثير عن شخصيتها .. أعرفها فى داخل الديار ، وأعرفها فى الغربة .. لقد رأيتها تحت نيران لا يحتملها أكثر معارفها من الرجال .. ولكن شيئا واحدا لم أعرفه حتى اليوم ، وهو خطها .. فهل لى أن ألقى نظرة على الغلاف ؟ » . ثم دار نحو النافذة .. لقد أراد الطبيب الاسكتلندى الشهم أن يستشـف رأى المرضـة « روزمارى جراى » ، ولكنه لم يجد أمامه سـوى ظهر عريض فى ثوب أزرق .. فإن المرضة روزمارى كانت مستغرقة فى تأمل الطبيعة ، خلال النافذة . وارتد الطبيب إلى جارث الذى أومأ بالموافقة على أن يتناول الرسالة ، وعلى وجهه رغبة مشوقة إلى سماع المزيد ، وإعراض طاغ عن أن يطلب ذلك . فأخذ الدكتور ماكينزى الغلاف ، فأنعم النظـر فيه ، وقال أخيرا :

ـ نعم ، أنه صورة منها .. واضح ثابت ، غير متذبذب ، وكأنها تعلم جيدا ما تريد إيضاحه ، فهى تفضى به ، وتسدد الكلمات إلى معانيها فتبلغها .. أجـل يا بنى ، أنها امـرأة عظيمة .. ولو أنك ظفرت بصداقة النبيلة جين لاستغنيت عن كثير من الأشياء ..

وتضرجت وجنتا « جارث » النـاحلتان وتبـدى عليـه

الشـوق . فلقد كان ـ فى الظلمـة التى أحاطت به ـ يعانى جوعا شديدا ، لفرط حاجته إلى سماع كل ما يقال عنها من العالم المضىء الذى تعيش وتتحرك فيه .. إذ كان اليأس قد داخله من سماع صوتها .. وما درى ـ طيلة هذه الأثناء ـ أن « روبى » الكهل كان يستطيع أن يحدثه عنها .. وكان كل ما يسمه هو الاستفسار عنها من الدكتور براند فى حيطـة شديدة ، حتى لا يكشف سره وسرها .. أما مع الدكتـور « روب » والمرضة « جراى » ، فلم تكن به حاجة إلى هذه الحيطة ، بل كان بوسعه الاحتفاظ بسره ، والاصـغاء إلى حديثهما ، والتحدث إليهما . لذلك لم يلبث أن تساءل قائلا : « أين .. ومتى ؟ » .. فأجابه الدكتور روب : « سـأخبرك متى .. إذا كنت تميل إلى سماع قصة من قصص الحرب ، فى صباح مزدهر بمباهج الربيع » .

واشتد أوار الشوق بجارث ، فقال : « اجلس يا دكتور ، وعسى أن تكون الآنسة جراى جالسة ! » . فأجابه الدكتور روب : « لا أريد مقعدا يا سيدى ، لأننى حين اعتزم الاستغراق فى الاستمتاع بفصاحتى ، أؤثر أن أظل واقفا .. أما المرضة جراى فليست بها حاجة إلى مقعد لأنهـا تقف فى النـافذة سابحة فى جمال الطبيعة ـ ومن الواضح أنها كفت عن الاهتمام بك أو بى ـ ونادرا ما تجد امرأة تبدى اهتماما بما يروى عن امرأة أخرى .. أما أنت يا بنى ، فلك أن تضطجع فى مقعدك ، وتشعل لفافة ، وتدخن . إذ يحلو لى أن أراك تفعل ذلك . فهو خير من أن تدق الحائط بيديك [illegible]

بأننا مدينان به إلى السيدة التى تغض الطرف عنا ، وتتفضل
علينا جمال الطبيعة . ويعلم الله اننى لست بالذى تلذ
رؤيته ، فى حين انك امامها ، فهى تراك طوال اليوم .. يا له
من صنف فاخر هذا الذى تدخنه ! اى نوع هو ؟ ..
« زينيت » ؟.. آه ، صنع ماركوفيتش ؟.. انه نوع لا يفضله
اى نوع للتدخين فى حجرات الاستقبال وفى الحدائق ، حيث
يختلط عبير اللفافة بالزهور .. استلق فى مقعدك ، وتلذذ
بتدخينها ، اما انا فدعنى استنشق دخان البارود .. واصغ إلى
فسأقص عليك اين رايت النبيلة جين لأول مرة .. فى جنوب
إفريقيا ، فى خضم معارك البوير ، وكنت قد تطوعت لأكتسب
مرانا فى الجراحة . اما هى ، فكانت تعمل فى التمريض . وإذا
قلت التمريض ، فثق باننى اعنى المعنى الصحيح لذلك العمل
.. لم يكن به شىء من إغراق المناديل الحريرية الرقيقة
بماء الكولونيا ، وغسل الوجوه بها ، بعد أن يكون الخدم قد
غسلوها من قبل .. والتلطف فى الحديث إلى الناقهين ، والفرار
فى هلع من الموتى أو من المحتضرين .. ثق أنه لم يكن هناك
شىء من هذا ، وما كانت لتسمح به فى مستشفاها ، إذ أن
الآنسة شامبيون كانت صاحبة الأمر هناك ، وأؤكد لك أن
الممرضات كن يوقرنها اى توقير . وكانت تقوم بعمل عشرة
أشخاص ، وتريد من سواها أن يحذو حذوها . وكان الأطباء
والممرضون يعبدونها .. وكانت تنادى دائما باسم « النبيلة
جين » .. وكذلك الجنود الجرحى ! كم من فتى هناك ، كان
نائيا عن الديار والأصدقاء ، حتى إذا واتاه الموت، مات وعلى

شفتيه ابتسامة ، وشعور بأن أمه وداره قريبتان ، لأن ذراع
« النبيلة جين » كانت تحوطه ، ولأن رأسه المحتضر كان ملقى
على صدرها الحنون .. ويا لصوتها وهى تحدثهم !.. كلا ،
اننى لن أنساه أبدا !.. لقد كانت تكلم النساء بصوت حاد ،
وتصدر أوامرها إلى الرجال ، ثم تتحول لتتكلم إلى جندى
مريض وكأنها أمه أو حبيبته ، فكان هذا التغير السريع درسا
ما ازال أفيد منه حتى الآن !.. أما قلبها الكبير المحب ، فلا بد
أن الألم كان يعتصره كثيرا ، ولكنها كانت دائما متجلدة ،
ومشرقة ، فلم يخنها جلدها سوى مرة واحدة . وكان ذلك
من أجل فتى .. شاب حدث ، حاولت جهدها أن تنقذه ،
ووقفت بجواره أثناء العملية الجراحية التى كانت الأمل الأخير
لنجاته ، فلما تبين عدم جدواها ، واستلقى الفتى على صدرها
فاقد الصواب ، تداعت متهالكة وهى تقول : « أواه يا دكتور
.. أنه مجرد غلام .. كيف يتعذب إلى هذا الحد ، ثم يموت
هكذا ؟! » .. وضمته بين ذراعيها . وراحت تبكيه كما لو
كانت أما ثكلى . لقد ذكر لى الجراح ذلك بنفسه ، وقال أن
أقسى قلب — فى الخيمة — تأثر ولان . ولكنها كانت المرة
الوحيدة التى خارت فيها قوى النبيلة جين ! » .

* * *

وضع جارث يده على وجهه ، وقد أفلتت السيجارة من يده
نصف محترقة ، فسقطت على الأرض ، بينما شدت يده —
التى كانت بها السيجارة — على ركبته فى انفعال عصبى .
فالتقط الدكتور « روب » اللفافة ومسح بكل عناية البقعة

التى أحدثتها فى السجادة ، ثم التفت إلى النافذة ، حيث كانت الممرضة « روزمارى » قد اتجهت اليهما ، وهى مستندة إلى حافة النافذة . غير أن نظرها لم يتجه إلى الدكتور « روب » ، وانما استقر على « جارث » فى تطلع ملهوف . واستأنف الدكتور روب حديثه قائلا : « لقد التقيت بها عدة مرات ، فى مراكز أخرى ، ولو أننا لم نكن فى قسم واحد . وتحدثت إلى مرة واحدة ، وكنت قد سارعت من مركز الاسعاف المؤقت ــ الذى كان مكتظا بالوافدين ، وكنا نعالج فيه أسوأ الحالات الوافدة من الميدان ــ إلى المستشفى الرئيسى فى المدينة ، لأحضر كمية جديدة من « الكلوروفورم » .. وبينما كانوا يعدون لى طلبى ، مررت بقاعة المرضى ، وإذا بالآنسة شامبيون جاثية ــ فى ركن من أركانها ــ بجوار رجل حانت ساعته الأخيرة ، وهى تكلمه فى هدوء ، وتعمل ــ فى ذات الوقت ــ على تخفيف آلامه .. وفجأة انبعث دوى يصم الآذان ، وتلاه دوى آخر ، وإذا بالنبيلة جين ومريضها قد غطتهما الأنقاض والأتربة ، إذ سقطت قنبلة من البوير فوق النقطة التى كانا تحتها تماما من السقف. فانتصب المريض جالسا وهو يصرخ فزعا . وما كان المسكين ليلام وهو فى النزع الأخير ، نصف مخدر الحواس . أما النبيلة جين ، فلم تتحرك شعرة من جسدها ، بل قالت له : « ارقد يا رجل ! » . فأجابها باكيا : « ليس هنا » . فأجابته النبيلة جين : « حسنا ، سننقلك من هنا حالا ! » .. ثم أدارت وجهها فرأتنى ، وكنت مرتديا ثيابا رثة من « الخاكى » ، التقطتها دون وعى من الخيمة عند حضورى للمهمة . كما كنت مغبرا من

جراء رحلتى المتعجلة . وقالت لى : « أسمع أيها الجاويش .. ساعدنى على نقل هذا المسكين ، فلست أرتضى له الازعاج فى هذه الفترة بالذات ! » .. كان هذا كل ما صدر من جين عقب سقوط قنبلة على بضع ياردات من رأسها ، فهل يدهشك أن يعبدها الرجل ؟ وبعد ذلك وضعت يديها تحت كتفيه ، ثم أشارت لى بأن أرفعه من تحت ركبتيه ، وحملناه فيما بيننا عبر ردهة قصيرة فى نهايتها ستار يؤدى إلى حجرة هادئة صغيرة ، لم أكن أتوقع أن أراها ، وبها فراش مريح ، وبعض الصور والكتب المنسقة على منضدة الزينة . ثم قالت لى : « لنضعه هنا أيها الجاويش ، إذا سمحت ! » .. فوضعناه فوق الفراش . وسألتها عن صاحب الحجرة ، فأبدت دهشتها من سؤالى ، حتى إذا رأت أننى غريب عن منطقتها ، أجابت بأدب : « أنها حجرتى ! » .. ثم التفتت إليه ، ووجدت أنه قد دخل فى دور الغيبوبة ، فأضافت قائلة : « وستنتهى حاجة المسكين إلى الفراش ، قبل أن أحتاج إليه ! » .. فتأمل هذه الأعصاب العجيبة !.. هذه هى المرة الوحيدة التى تحدثت فيها إلى النبيلة جين .. وما لبثت مدة تطوعى أن انتهت . وعدت إلى الوطن » .

ورفع جارث رأسه وسأله : «ألم ترها بعد ذلك فى بلادنا ؟» . فأجابه الدكتور روب : « نعم رأيتها ، غير أنها لم تذكرنى ، ولم تبد عليها بادرة معرفة . وكيف كان يمكننى أن أنتظر ذلك منها ؟.. لقد كنت ــ يوم رأتنى فى الميدان ــ ذا لحية ، إذ لم تكن إزالة اللحية ميسورة هناك ، لضيق الوقت .. وكانت

سترتى حينذاك تدل على أننى جاويش ، ولست جراحا . فلا
لوم عليها إذا لم يخطر ببالها أن تلقى فى حى بيكاديللى زميلا فى
الحرب ! » .. وبتر روب حديثه ، ثم قال : « أما الآن وقد
أتممت ما نسجته من حديث طويل ، فعلى أن أسارع إلى كوخ
البستانى فى غابتك، لأعود زوجته الطيبة، التى تعانى مايسميه
هو « مضاعفة » ، وعندى أن « نقص » هو التعبير الذى يتمشى
مع حجم كوخه !.. على أننى أريد ـ قبل ذلك ـ أن أتحدث
إلى السيدة مارجرى فى حجرة الطعام .. فهى قلقة لأنها لا تقوى
على أكل لحم الخنزير ، زاعمة أنه يطير بين كتفيها .. وهو
شذوذ عجيب ـ من لحم الخنزير ـ عن الطريق الطبيعى ،
ويحتاج إلى فحص دقيق .. فاذا سمحت لى استدعيت
السيدة الطيبة ! » ..

وهنا ترامى إليه صوت هادىء من ناحية النافذة : « لم يحن
الوقت بعد يا دكتور ، فانى أريد أن أخلو إليك فى حجرة
المائدة ، وسأتبعك إلى هناك حالا .. وبعد أن أحدثك ، سأنتهز
فرصة فحصك « مارجرى » لأرتدى قبعتى وأسير معك فى
الغابة . هذا إذا لم يمانع السيد دالمين فى البقاء وحيدا لمدة
ساعة ! » .

وعندما وصلت « جين » إلى حجرة المائدة ، كان الدكتور
روبرت ماكينزى واقفا على سجادة المدفأة ، وقفة نابوليونية
.. تماما كما استقبلها يوم وصولها . وعند دخولها ، ألقى
عليها نظرة متشككة ، ثم قال : « حسنا .. هل أدفع الأجر
للزمار ؟ » . فدنت منه جين ويداها مبسوطتان ، وهى تقول :

« أواه أيها الجاويش .. أيها الجاويش الكهل العزيز الوفى ..
أرأيت ما يترتب على ارتداء ثياب شخص آخر ؟ إن مشكلتى
قد نجمت عن انتحال اسم امرأة أخرى .. وإذن فقد عرفتنى
طوال هذه المدة ، منذ أول لحظة خطوت فيها إلى حجرة
المكتبة ؟ » فأجابها الدكتور روب : « منذ أول لحظة خطوت
فيها إلى الحجرة ! » . فسألته جين : « ولم لم تبين لى ذلك ؟ » .

ـ لقد استخلصت من انتحالك اسم الممرضة روزمارى
جراى ، أن لديك أسبابا قوية تستلزم ذلك ، ولم يكن من
اختصاصى أن أستطلع عن حقيقة شخصيتك ..

ـ واها لك أيها العزيز !.. هل وجد يوما مثل هذا الذكاء ،
ومثل هذه الحكمة ، ومثل هذا النظر البعيد الذى يذهل
العقل ، مستقرة على ساقين فوق سجادة المدفأة ؟! وعندما
أذكر كيف قابلتنى بقولك : « إذن فقد وصلت يا ممرضة
جراى » ، أتصور أنك كنت تردد فى نفسك : « كيف حالك
يا آنسة شامبيون ؟.. ما الذى أتى بك إلى هنا منتحلة اسم
شخص آخر » .

فأجابها الدكتور روب وهو ساهم : « لقد كان ذلك محتملا
جدا ، ولكننى لم أنطق بشىء من ذلك ، والحمد لله ! » .
فسألته جين : « ولكن بربك نبئنى ، ما الذى دعاك لأن تبوح
بالأمر الآن ؟ » . فوضع الدكتور روب يده على ذراعها ،
وقال : « اننى رجل عركته السنون يا عزيزتى ، وكان ديدنى
طيلة حياتى أن أتفهم الأشياء قبل أن تقال لى ! .. لقد مرت
بك أيام مضنية أنهكت قواك .. قضيت وقتا طويلا فى إرهاق

يشتد حينا ويهون حينا ، دون راحة أو ترفيه .. إرهــاق لا تطيقه سوى قلة نادرة من النساء . لا بسببه هو وحـده ، وانما لأنك كنت مضطرة إلى التزام الحذر معنا جميعا .. ولقد أدركت منــذ اللحظــة الأولى ، أنه لا بــد لك ـــ إذا أردت الاستمرار ـــ من شخص تفضين إليه بهذا السر .. شخص يمكنك أن تكشفى له جلية نفسك من آن إلى آخــر .. ولما اكتشفت أنك كتبت له هنا ، وأرسلت الخطاب ليلقى فى بريد القاهرة ـــ وهو إجراء لا تقوى عليه سوى المراة التى تناضل بعوضة بعد أن ابتلعت جملا ـــ وانك لبثت أياما طويلة متوالية تترقبين وصول الخطاب ، حتى إذا وصل اضطررت لأن تقرئى عليه رسالتك بنفسك ، وتكتبى الرد الذى أملاه عليك ، والذى قرأت سطوره على وجهك عند دخولى الحجرة ، وأدركت أنه رفض حضورك إليه .. عند ذلك ايقنت أن الساعة قد أزفت ، لتجدى بجوارك صديقا يشترك معك فى سرك ، وتبوحى له بمكنون قلبك .. وذلك الصديق الكهل مثل غيره ممن التقوا بك فى جنوب إفريقيا ، يستشعر أكبر سعادة إذ يمد يده اليمنى إلى النبيلة جين ! » .

فنظرت إليه جين ، وعيناها تنطقان بعرفان الجميل ، إذ انعقد لسانها ، وأخيرا قال لها الدكتــور روب : « ولــكن أخبرينى يا عزيزتى ، إذا استطعت .. ما السبب الذى يدفع فتانا المحبوب ، لأن يصد عنه ـــ فى عناد وتصميم ـــ ذلك الذى هو خليق بأن يكون عظيم القيمة ، رائع الأثر ، قديرا عــلى إدخال العــزاء والخير على نفســه ، إذا كان من حقــه أن

ينشده ؟ » . فأجابته جين : « أواه يا دكتور .. ان للأمـر قصة مليئة بعدم الاطمئنان والأخطاء المحزنة .. وواحسرتاه ، لقد كان عدم الاطمئنان والأخطاء من جانبى ! .. وإلى ان تفحص « مارجرى » اكون قد تهيأت للتريض ، فنسير معا خلال الغابة ، وسأبذل ما بوسعى لأسرد لك الأمر تفصيلا ، وابين لك المشكلة المحزنة التى قامت بينى وبينه ، وفصلت حياتينا بهذا البعــد الشاســع .. ولسوف أستمد العون من نصحك الغالى الحكيم ، وسيهدينى فكرك الثاقب ومعلوماتك الثمينة بطبائع الرجــال وبالقلوب البشرية ، إلى منفــذ للخــروج .. لأننا ولا ريب محصوران بين المجدل والبحر ! » .

* * *

وبينما كانت جين تجتاز البهو ، وتهم بصــعود السلم ، القت نظرة على باب حجرة المكتبة المغلق .. وتولاها جــزع مجائى ، خشية أن يكون الانصات إلى قصة الدكتور «روب» قد أنهك أعصــاب « جارث » . فما كان لسواها أن يدرك الذكريات التى توقظها رواية قصص الجنود الذين كانوا يموتون وقد وسدوا صدرها رؤوسهم ، والمصادفة العجيبة التى جعلت الدكتور روب يذكر فى قصته تلك العبارة : « أنه مجــرد غلام كيف يتعذب إلى هذا الحد ؟! » .. ورأت أنها لا تقوى على الخروج قبل أن تستوثق من سلامته . ولكن خــوفا غريزيا جعلها تخشى أن تتطفل عليه ، وهو يعتقد أنه سيمكث وحيدا لمدة ساعة ! وإذ ألح عليها القلق ، بادرت إلى ما لم تأته من قبل ، ففتحت الباب الخارجى بكل سكون ، ثم سارت حــول

الدار إلى الشرفة ، فلما دنت من النافذة المطلة على حجـرة المكتبة ، خطت فوق الحشـائش اللينة حتى بلغت النـافذة متكتمة خطاها ما استطاعت ! ابدا لم تتلصص عليه من قبل ، إذ كانت تعلم انه يكره ــ بل يمقت ــ مجرد التفكير فى التطفل المستخفى على وحدته ، ولكن .. لتكن هذه المرة فحسب !.. واطلت خلال النافذة .

كان جارث جالسا ، موليا النافذة جانبه ، وذراعاه مطويتان على المنضدة المجاورة له ، وقد دفن وجهه فيهمـا .. وكان يجهش منتحبا ، كما سمعت ــ من قبـل ــ بعض الرجـال يجهشون عقب العمليات الجراحية المؤلمة .. بكاء صـامت يستمر إلى أن يفضفضوا أوجاعهم .. وكانت زفرات جـارث الموجعة ، تنطـلق بهذه الكلمـات : « أواه يا زوجتى .. يا زوجتى .. يا زوجتى ! » .

وأسرعت جين بالابتعاد فى حذر ، دون أن تدرى كيف أمكنها ذلك . ولكن غريزة فى أعماقها ، بأنها خليقـة بأن تفسـد كل شىء ، إذا هى كشفت عن نفسـها ــ إذ ذاك ــ وفاجأته فى حال لا تليق به ، وقد حركت قصة الدكتور «روب» شجونه وافقدته صلابة الرجولة .. وراح صوت دريك يدوى فى رأسها : « إذا كنت تقدرين قيمة سعادته وسعادتك الدائمة .. ! » . ثم أن الارجاء كان قصير الأمد ، ولن يلبث أن يفكر فى هدوء وسكينة ــ بعد هذه العاصفة ــ فيتغلب عليه الشعور بحاجته إليها .. ومن الممكن تنقيح الخطاب ــ الذى لم يرسل بعد إلى البريد ــ

ليذكر فيه كلمة واحدة : « احضرى » .. فان هى إلا دقيقة حتى يكون فى أحضانها !

وهكذا ابتعدت عنه ، دون أن تحدث صوتا !

وعادت بعد ساعة من نزهتها مع الدكتور روب ــ وقلبها ملىء بالأمل والاستبشار ــ فوجدت « جارث » واقفـا فى النافذة ، منصتا إلى الأصوات العديدة ، ليدرب أذنيـه على التمييز بينها ..

وبدأ مرهف العود ، طويلا ، فى ملابسه الصوفية البيضاء ، وقد دس يديه داخل جيبى سترته ، حتى إذا أصبحت على مقربة منه ، استدار اليها . وخيل إليها أن عينيه البراقتين ما تزالان موجودتين !.. وسألها : « هل الجـو بـديع فى الغابات ؟.. سيأخذنى سمسون هناك بعد الغـداء . وحتى ذلك الوقت ، هل لديك وقت لكى نتم عمل الصباح ، إذا كنت لا تشعرين بتعب يا آنسة جراى ؟ »

وأملى عليها خمسة خطابات ، كما حررت تحويلا مصرفيا . واستلفت نظر جين عدم وجود الخطاب الذى وجهته إليه ، بين الخطابات الأخرى . أما خطابه الذى أملاه عليها ، فكان فوق المنضدة معدا للبريد . فترددت وقالت : « وماذا تنوى العمل بالخطاب المكتوب للآنسة شامبيون!.. هل تبغى إرساله كما هو يا سيد دالمين ؟ » . فأجابها : « طبعا .. أما انتهينا منه ؟ » .

« ظننت أن . . » . نطقت جين بالكلمتين فى لهجة عصبية ، وهى تشيح بعيدا عن وجهه الصامت ، ثم اضافت : « ظننت أن . . بعد قصة الدكتور روب . . أن . . ! » . فقاطعها جارث قائلا : « ليس لقصة الدكتور روب أن تحدث أى تغيير أو تعديل بصدد قبولى حضورها إلى هنا او عدم قبولى ! » . . نطق جارث بهذه الجملة وهو يضغط على كل كلمة ، ثم أضاف فى لهجة اكثر رقة : « إنها فقط ذكرتنى . . فسألته جين ويداها تضغطان صدرها : « ذكرتك بماذا ؟ » . فقال « جارث » وهو ينفث نفسا طويلا من الدخان ، فى هواء الصيف : « بمدى عظمة هذه المراة وجلالها ! » .

الفصل الثالث والعشرون

عندما هبط الدكتور دريك براند على رصيف المحطة الشمالية الصغيرة ، التى بنظرة على الرصيف المرصوف بالحصى ، وهو شبه موقن بأنه سيرى جين . . وكانت الساعة مبكرة ، ولكنها اعتادت أن تقول عن اى مشروع يستدعى اليقظة : « هذا افضل كثيرا ! » . ولم يكن البصر يقع على شىء اللهم إلا حقيبة ملابسه على مسافة منه ، وكأنها احتلت ـ حيث أودعها حارس القطار ـ مكانا منعزلا ، دائما . . وفيما عدا الحقيبة ، لم يكن هناك سوى حمال بطىء ، كان يسير متهاديا وقد غاظه أن كان الوحيد المكلف باستقبال القطار . . كذلك لم يغادر القطار راكب سوى الطبيب ، فلم يكن أمام الحمال متاع سوى حقيبة . . وتعلق حارس القطار بعربته ، عندما تحرك القطار ، فوقف الحمال يشاهده ، وقد بسط راحته فوق عينيه ، اتقاء لأشعة شمس البكور ، حتى اختفى القطار عن بصره . وإذ ذاك ، تحول الحمال وئيدا إلى الناحية الأخرى ، ليتأكد من عدم وجود مسافرين آخرين . . ثم لمح حقيبة الملابس ، فسار متسكعا نحوها ، وانحنى فاحصا إياها وهو يفكر ، ثم دار حولها ليقرأ أسماء وبطاقات الفنادى المختلفة التى تنقلت الحقيبة بينها مع صاحبها فى أنحاء القارة .

ولم يكن من عادة الدكتور « براند » أن يتعجل الناس ، بل كان يقول : « أن تركهم يستغرقون الوقت الذى يلائمهم ، يثمر

خير النتائج ، على مر الزمن .. ان الدقيقة او الدقيقتين اللتين تكتسبان بتعجلهم ، تروحان سدى فى النتائج النهائية ! » .. غير ان هذه النظرية قد تصح مع المرضى فى حجرات الفحص ، او طلبة الطب المتحمسين فى المستشفيات ، او الممرضات اللائى يشتد بهن الارتباك عندما ينتبهن — فى بداية عهدهن — إلى انه كان يوجه الحديث إليهن . وقد ادت به عادة إهمال الناس — حتى فى لحظات اضطراره إلى العجلة — إلى ان فقد معطفه مرة .. كما كاد يتخلف عن اللحاق بقطار ، فى مرة اخرى ، بيد أنها اكسبته اعز شىء كان يشتهيه فى الحياة .. ولكن لهذا تتمة اخرى .

وكان مشوقا إلى تناول الفطور فى ذلك الصباح الربيعى البهيج ، كما كان يصبو إلى ان يرى « جين » ، فلما لم يقترب منه الحمال والحقيبة ، قطع الطبيب رصيف المحطة بخطوات واسعة ، وقال : « وبعد ، ايها الرجل ؟! » . فأجابه الحمال الاسكتلندى : « ماذا تريد يا سيدى ؟ » . فقال : « اريد حقيبة ثيابى » .. وسأله الحمال مستريبا : « اتكون هذه حقيبتك ؟ » . وكان جواب الطبيب : « اجل .. ولابد لها ولى من ان ننطلق إلى قصر (جلينيشى) ، إذا تكرمت بحملها إلى السيارة التى أراها فى الانتظار ، خارج المحطة » .. فرد الحمال : « سأحضر عربة انقل الحقيبة عليها » . ولكنه عند عودته — وهو يجر العربة خلفه بكل حرص — وجد أن الطبيب وحقيبته والسيارة قد اختفوا .. فظلل الحمال عينيه بيده ، ونظر إلى الطريق قائلا : « لست املك سوى أن آمل أن تكون الحقيبة حقيبته ! » . ثم عاد إلى فطوره !

وفى أثناء ذلك ، كانت السيارة تصعد التلال مسرعة بالطبيب ، وذهنه متحفز شوقا ولهفة إلى لقاء « جين » ، حتى يعلم منها التطورات التى تمت فى الأيام الأخيرة .. وقد ملأ قلبه القلق لعدم حضورها لاستقباله بالمحطة . فقد كان خليقا بها ان تسارع إلى لقياه ، منتهزة الفرصة لتتبادل معه الحديث على انفراد ، قبل بلوغهما القصر .. وكان قد تمثلها — قبل وصوله — فى صورتها الحية ، وهى تنتظره على الرصيف ، مشرقة الوجه ، نشيطة الحركة ، ثابتة الخطوات ، قوية .. تلك القوة التى تفيض صحة ورواء ، والتى تنبع عن استجمام ونوم عميق فى الليل ، ويقظة بهيجة مبكرة وحمام بارد منعش .. وبعث الأسى لعدم التقائه بها ، نذيرا غريبا فى اعماقه . ترى هل خارت اعصابها تحت ضغط الارهاق المضنى ؟

وعرجت السيارة حول منحن فى الطريق ، فاذا ابراج جلينيش السمراء تتبدى لعينيه ، على قمة الجانب الآخر من الوادى ، كما ظهرت منطقة المستنقعات ممتدة أمام السيارة وخلفها . واستطاع الطبيب أن يرى فى ضوء الصباح — عندما اجتازت السيارة الوادى ، وصعدت فى طريق المستنقعات — حديقة (جلينيش) الكبيرة ، وشرفته وما كان يحيط بها من احواض الزهور الزاهية ، والطرقات المرصوفة بالحصى الدقيق ، والسياج الحجرى العريض ، الذى يكاد يكون فى وضع رأسى بالنسبة للوادى السحيق .. فلما وصل ، استقبله « سمسون » عند مدخل القصر . وكاد الطبيب أن يسأل عن الآنسة شامبيون ،

ولكنه سارع إلى ضبط نفسه ، وقد ذكره هذا التهور الذى كاد يفضى إلى زلة شنيعة ، إلى ما كان مفروضا عليه من حرص فى انتقاء الكلمات التى يتفوه بها والتصرفات التى يأتيها فى هذه الدار ، حيث نجحت « جين » فى أن تسدد خطواتها بمهارة فائقة ، فى طريق شاق ، وعر .. وما كان ليصفح عن نفسه ، لو أنه زل !

وقال سمسون : « ان السيد دالمين فى المكتبة فى انتظارك ، يا سير دريك » . فسار الطبيب بخطوات نشيطة ، وذهن صاح، فى أثر الرجل ، عابرا البهو .

***

نهض جارث من مقعده ، وتقدم ليلقاه باسطا يده اليمنى ، وقد ارتسمت على وجهه بسمة الترحيب ، ولازمه فى كل حركة ثبات وثقة وعدم تردد ، مما دعا الطبيب إلى أن يصوب نظره نحو الرجل الضرير ، ليستوثق من ان صاحب هذا القوام النحيل الممشوق ، السريع الحركة ، هو بذاته المريض الأعمى الذى جاء لزيارته . واستلفت نظره شريط حريرى بنى اللون ، ممتد من ذراع مقعد جارث إلى الباب ، ليتلمسه الشاب بيده اليسرى مهتديا به فى سيره .. ووضع الدكتور يده فى اليد التى امتدت نحوه ، وشد عليها فى حرارة قائلا : « اى تحول طرأ عليك يا صديقى العزيز ! » . فأجابه جارث مبتهجا : « أليس كذلك ؟ .. كل هذا قد تم بفضلها هى .. المرأة الكاملة الصغيرة التى أرسلتها إلى .. دعنى أخبرك بأنها أعظم من أن توصف بأنها من الطراز الأول ! » . وكان ـ فى تلك الأثناء ـ قد عاد إلى

مقعده ، ثم عثر على المقعد الثانى الذى كانت جين تجلس عليه، فقدمه إلى الطبيب . وأشار إلى الشريط الحريرى قائلا : « هذا من ابتكارها ! » .

ثم فك الشريط وتركه ينزلق إلى الأرض . فلم يبق منه إلا خيط رفيع معلق بيد المقعد ، يسهل به أن يستعيد الشريط كلما أراد الاستعانة به . ثم قال : « وهناك شريط آخر غيره يتصل بالبيانو، وثالث يتصل بالنافذة.. والآن قل لى، كيف تميز بين الأشرطة؟» . فأجابه الدكتور: «ان احدها بنى، والثانى ارجوانى ، والثالث برتقالى ! » . فهتف جارث : « أجل ، انك تعرفها من الوانها .. أما انا فأهتدى إليها بفارق بسيط فى سمك كل شريط ونوع نسيجه ، لا تكاد تتبينه عيناك ، ولكننى أميزها باللمس . ومما يسرنى أيضا التفكير فى الوانها .. وكثيرا ما ارتدى أربطة العنق وغيرها ، بحيث تتناسق مع الوان الأشرطة .. ارأيت كيف أعرفها ، وما كان هذا الابتكار ليصدر عن غير هذه السيدة ، فهذا هو طابعها ، إذ هى تتذكر كل شىء .. ان اية ممرضة عادية قد تضع أشرطة حمراء وخضراء وزرقاء ،فكنت ـ إذ ذاك ـ أجلس وانا كاره مجرد التفكير فى الوانها ، مدرك مدى بشاعة تباين ألوانها الصارخة مع سجادتى العجمية .. أما هى ، فتعلم جيدا ما للألوان من أهمية لدى ، ولو لم يكن فى استطاعتى النظر إليها ! » . فأجابه الدكتور قائلا : « يمكننى ان افهم أنك تقصد بذلك الممرضة روزمارى .. كم انا سعيد برضاك عنها وبنجاحها فى مهمتها ! »

فصاح جارث قائلا : « نجاح ؟! .. لقد أعادت لى الحياة .

وانى ليفيض بى الخجل كلما ذكرت ما انحدرت إليه وما صدر عنى ، فى . . آخر مرة زرتنى فيها يابراند ! . . لم اكن املك سوى أن ادق الحائط بيدى . . كما يقول روبى الكهل . . لا بد انك قد خلتنى أحمق مخبولا ! » . « فقـال الطبيب : « ما فـكرت فى شىء من ذلك يا صـديقى العزيز . . فلقد كنت تخـوض معركة قاسية ، لم يسبق لأحدنا ان كابد مثلها ، والحمد للخالق إذ قدر لك أن تنتصر ! » . وقال « جارث » بحرارة : « اننى مدين بالكثير إليك يابراند ، وبأكثر منه للآنسة جراى ! . . كم كنت أود لو انها كانت هنا لتقابلك . ولكنها رحلت فى عطلة نهاية الأسبوع !» . فصاح الطبيب : «رحلت ؟ . . عند حضورى ؟» . وكاد ينزلق مرة أخرى ، فيذكر اسمها :

ــ نعم لقد سافرت مساء أمس ، لتقضى عطلة الاسبوع فى بلد مجاورة . . أبلغتنى أنها لن تكون بعيدة عن هنا ، وانهـا ستعود لتكون معى فى ساعة مبكرة من صباح الاثنين . . ويخيل إلى انها فى حاجة إلى تبديل المناظر ، وقد رأت فى حضـورك فرصة سانحة ، إذ ساستبقيك معى اكثر الوقت . . وانى لاعتقد حقـا يابراند انه كرم يفوق كل حـد ، ان تقطع كل هـذه المسافة لترانى . انه لصنيع فوق كل تقدير ، من رجل مثلك ! » .

ــ يجب الا تبالغ فى تقـدير ذلك يا عزيزى . وإذا كنت فى الواقع قد حضرت لأراك ، فانما قصدت ــ فى ذات الوقت ــ أن أرى احد أصدقائى القدامى ، وهو يقيم قريبا من هنا ، لاننى مهتم بأمره . وانه يهمنى جدا . . ولست اذكر لك ذلك ، الا لاكون

نزيها تماما ، وحتى ارفع عنك كل عبء قد يثقلك إذا شـعرت انك مريضى الوحيد !

فأجابه جارث : « شكرا لك . . ان هذا يخفف من وخزات ضميرى ، ولكنه لا ينقص من عرفانى بالجميل لك . . والآن ، لا بد أنك بحاجة إلى ازالة وعثاء السفر ، وتناول الفطور ، وقد احتجزتك عن الأمـرين بأنانيتى . . قل لى يابراند . . » . ثم توردت وجنتا جارث كأنه غلام غرير ، وأتم قوله بعد تردد : « لشد ما يؤسفنى . ألا تجد زميلا يشاطرك الوجبات ، لغياب الآنسة جراى ! . . ولست أحب أن أفكر فى انك ستتناول طعامك وحيدا . أما أنا ، فاننى أتناول طعـامى دائما بمفـردى . . وسمسون يتولى مساعدتى فى ذلك » . . ولم يقدر له أن يرى مسحة الأسى السريعة ، التى غامت على وجه الطبيب ، ولكن العطف والادراك اللذين تمثلا فى لهجته ــ وهو يقول : « آه ، أجل . . حقا ، طبعا » شجعا جارث على أن يمضى قائلا : « اننى لم استطع ان أشرك الآنسة جراى فى مائدتى ، فكل منا يتناول طعامه منفردا . . ليس بوسعك أن تتصور بشـاعة منظر من يتصيد طعامه من كل جوانب الطبق ، وهو غير آمن من ان يقلب الطعام على غطاء المائدة ، أو ربطة عنقه ، فى سعيه ليتصيد صنفا آخر ! » .

فأجابه الطبيب قائلا : « ليس بوسع إنسان أن يتقن الأمر بدون مران . ولكن ، كيف تكون أكثر احتمالا لهذا الموقف مع سمسون ، منك مع الممرضة « روزمارى » ؟ . . انها مدربة لمثل هذه الأمور ، كما تعلم ! » . واحمر وجه جارث مرة أخرى .

وقال : « ولكن لا يغيب عنك أن سمسون هو الشخص الذى يزيل لى شعر لحيتى ، ويلبسنى ثيابى ، ويصطحبنى فى تحركاتى .. ومع ما فى ذلك من محنة للنفس ، إلا أنها محنة أوشكت أن أتعودها . وبوسعك أن تصورها على هذا النحو : أن سمسون هو العينان لجسمى ، والآنسة جراى هى البصيرة لعقلى .. وسمسون هو الوحيد الذى يلمسنى فى الظلام . أتتصور أن الآنسة جراى لم تلمسنى قط .. بل إنها لم تصافحنى ؟! وانى لمغتبط لذلك ، وسأبين لك السبب حالا .. ان ذلك يجعل منها مجرد عقل وصوت لى ، لا أكثر .. ولكنه صوت رحيم ، معين بدرجة عجيبة ، حتى لأحس أننى لن أقوى على الحياة بدونها ! » .

ثم دق جارث الجرس ، فلما أقبل سمسون قال له : « رافق السير دريك إلى حجرته ، وسيخبرك عن ميعاد فطوره . وعندما تفرغ من كل ذلك يا سمسون ، أحب أن أخرج فى رياضة قصيرة .. وسأكون ـ بعد ذلك ـ حرا يا براند . ولكن ، لا تمنحنى مزيدا من الوقت ـ فى هذا الصباح ـ إذا أردت أن تستريح ، أو أن تخرج للرياضة بين البرك المائية ، لتنعم بعطلة ، بعيدا عن الأفكار والناس ! » .

* * *

وبعد أن اغتسل الطبيب ، وارتدى سروالا (بنطلون) من النوع الذى ينتهى تحت الركبتين بانتفاخ ، وسترة قديمة من طراز (نورفولك) ، ذهب إلى قاعة الطعام ، واستطاب الفطور الرائع .. وكان ما يزال يفكر فى مشكلة « جين » ،

بينما انشغل جزء آخر من عقله بالتفكير فى نوع الآلة التى تستعين بها مارجرى العجوز فى عمل قهوتها الفاخرة .. وإذا بالسيدة العجوز تقبل محوطة بجو من الغموض ، فسارع الطبيب إلى مواجهتها بالسؤال .. وأجابت مارجرى العجوز : « انها قدر خاصة .. ولكن ، هل لك ياسير دريك فى أن تأتى معى فى هدوء ودون جلبة .. حالما تنتهى من طعامك ؟ » . وعادت تكرر : « فى هدوء ، ودون جلبة » ، وهما يعبران البهو ، والطبيب يسير فى أعقابها بقامته الفارعة . وبعد أن صعدا بضع درجات ، التفتت إليه وهى تهمس فى جد : « ليس الأمر أمر الإناء الذى تصنع القهوة فيه ، وانما هو فى كيفية عملها » .. وبعد ان صعدت بضع درجات أخرى ، قالت له : « الأمر كله يتوقف على كلمة طازج » .. ثم استمرت فى صعود السلم .. « طازج فى تحميصه ، وطازج فى طحنه .. والماء طازج فى غليانه » .. وبلغت مارجرى العجوز آخر درجات السلم وقد تقطعت أنفاسها ، ثم انحرفت متسللة فى ممر معتم مغطى بسجاد كثيف ، وعلى جانبيه خزانة قديمة وبعض الصور .

وسألها الطبيب وهو يوائم بين خطواته وخطواتها .. خطوة منه فى مقابل اثنتين منها : « إلى أين نذهب يا سيدة مارجرى ؟ » . فأجابته : « سترى عندما نصل للمكان ياسير دريك .. ويجب الا تلمسها بأى معدن ، بل ادفع بها فى قدر من الفخار ، وأضف الماء المغلى عليها حالا ، ثم قلبها بملعقة خشبية ، وضعها فوق نار الموقد لعشر دقائق ، حتى يتم نضجها .. وسترسب قطع البن المجروش فى قاع القدر ، ولو أنك قد لا تفطن إلى ذلك .

ثم تصب القهوة صافية ، قوية ، ذات نكهة .. ولكن السر كله فى ان كل شىء طازج ، طازج ، طازج .. ويجب الا تقتصد فى كمية البن ! » .

ثم توقفت مارجرى العجوز أمام باب فى نهاية الردهة ، وطرقته طرقا خفيفا ، ثم نظرت إلى الطبيب ويدها على مقبض الباب ، وقد فاضت عيناها الاسكتلنديتان الوفيتان باهتمام وحماسة ورجاء . وقالت : « ويجب الا تنسى الملعقة الخشبية، ياسير دريك » . فتأمل الطبيب الوجه المكتهل الرحيم ، الذى كان يتطلع إليه فى النور الخافت ، وقال لها فى جد ورصانة : « لن انسى الملعقة الخشبية ياسيدة مارجرى » .. فأدارت مارجرى العجوز مقبض الباب ، وهى تهمس بغموض شديد : « ها هو ذا السير دريك يا آنسة جراى ! » .. ثم أشارت إلى الدكتور بالدخول إلى حجرة استقبال صغيرة مريحة .. وكانت النار تتقد فى المدفأة ، وقد جلست جين فى مقعد كبير ـ ذى ظهر مرتفع ـ أمام النار ، وقدماها فوق حاجز المدفأة . ولم ير سوى قمة رأسها وركبتيها الطويلتين اللتين لا يملك أن يخطىء معرفتهما . ولكنه سمعها تقول ، وفى صوتها رنة الشكر العميق : « أواه يا ديكى ! أهذا أنت ؟ .. ادخل يا صديقى ، وأغلق الباب خلفك ! .. هل نحن على انفراد ؟ .. تعال سريعا ـ من هنا ـ لنتصافح ، حتى لا أتعثر فى البحث عنك ! » .

وفى لحظة ، بلغ الدكتور بساط المدفأة ، فجثا على ركبة واحدة أمام المقعد الكبير ، وامسك باليدين الممدودتين إليه .. وهتف : « جانيت .. جانيت » . ثم عقدت الدهشة واللهفة



بلغ الدكتور بساط المدفأة ، فجثا على ركبة واحدة أمام المقعد الكبير ، وأمسك باليدين الممدودتين إليه ..

لسانه ، فصمت .. إذ الفى جين معصوبة العينين بوشاح حريرى أسود ، طوى أربع طبقات وعقد على شعرها الناعم خلف رأسها .. وكان ثمة عجز مؤثر يشيع فى الجو المحيط بهذا القوام الكبير ، القادر ، وقد جلست صاحبته وحيدة فى هذه الحجرة الصغيرة ، المشرقة ، لا تحرك ساكنا !.. وللمرة الثالثة ناداها الدكتور قائلا : « جانيت ! .. أتسمين هذه عطلة الأسبوع ؟ » . فأجابته جين : « لقد ذهبت لأقضى عطلة الأسبوع فى بلاد لا تبصر ، يا عزيزى .. أواه يا دريك ! .. كان لا بد من أن أفعل هذا ، إذ ان الطريقة الوحيدة لمساعدته حقا ، هى فى تعرفه كنه حاله ، بكل دقائقها المؤلمة .. أننى لم اكن قط واسعة الخيال ، وقد استنفدت القدر الضئيل الذى كنت أمتلكه منه . و « هو » لا يشكو مطلقا ، ولا يوضح كيف تقسو عليه الظروف ، لذلك كانت الطريقة الوحيدة لتبين ذلك ، هى أن أعيش فى حياته هذه لثمان وأربعين ساعة .. والعجوز مارجرى وسمسون يعملان على معاونتى فى ذلك ، على أبدع وجه . فسمسون يخلى لى الطريق إذا أردت النزول أو مغادرة الدار .. ذلك لأن وجود اثنين ضريرين فى بقعة واحدة ، قد يؤدى إلى مشكلة إذا اصطدما معا ، دون أن يفطنا إلى ذلك .. أما مارجرى فتعاوننى بكل الأمور التى أعجز عن القيام بها ، وما أحسبك تصدق كثرة هذه الأمور يا ديكى ! .. ثم هناك الظلام الفظيع .. الفظيع .. أنه ستار سوداء مسدلة دواما أمام عينيك ، تبدو أحيانا صلبة متينة كجدار من الفحم على بعد بوصة من وجهك .. وتغوص أحيانا فى أعماق لينة من السواد .. أميال وأميال من الظلام البعيد ، الصامت ،

الرهيب ، إلى أن تشعر بأنه لا بد لك من أن ترتمى فيه ، فتغرق ، ويبتلعك .. ومن ذلك الظلام تخرج أصوات ، فاذا كانت مرتفعة ، فانها تقرع رأسك كما لو كانت مطارق ثقيلة .. وإذا كانت دمدمة غير واضحة ، فانها تبعث فيك الجنون ، لأنك لا ترى مبعثها .. لا ترى أنهم يضعون فى أفواههم دبابيس تضطرهم إلى الدمدمة ، أو إذا كانوا يدسون رؤوسهم تحت الأسرة بحثا عن أشياء سقطت منهم ، ولهذا تلوح أصواتهم وكأنها صادرة من تحت الأرض .. ولأنه لا يمكنك أن تستبين سببا لذلك ، فان تباين الأصوات يعذبك .. آه ! وهناك ساعة اليقظة فى الصباح ، إذ ترى ذات الظلام الذى اكتنفك طوال الليل .. لقد جربتها مرة واحدة ، فقد بدأت ظلامى بعد تناول العشاء مساء أمس ، وأؤكد لك يا دريك أننى أرتعد فزعا من تكرارها صباح باكر .. فكر قليلا فيما تشعر به حين تستيقظ كل صباح ، وليس لك أى أمل أو احتمال لأن تعود ثانية لرؤية نور الشمس .. ثم ، هناك الوجبات .. » .

فانبعث صوت الدكتور فى قلق بالغ : « ماذا ؟ .. أتبقين على هذا الحال ؟ » . فأجابته جين : « طبعا .. ولا يمكنك أن تتصور ذلة المرء حين يتحسس جوانب الطبق بحثا عن الطعام ، فيجده أحيانا فوق غطاء المائدة .. أو حين تعتقد تماما أن فى الصحاف بقية من الطعام ، حتى إذا يئست من العثور عليها ، وطلبت كمية جديدة ، إذا بك تكتشف فجأة أن البقايا ملقاة فوق ملابسك .. لقد أدركت الآن السر فى أن فتاى المسكين يأبى أن يشركنى وجباته . أما بعد الآن ، فاعتقد أنه سيقبل ،

وسأعرف تماما كيف أساعده وكيف أبتكر له وسائل يتمكن بها ـ مع الوقت ـ من تناول طعامه دون مشقة .. آه . باديكي ! كان لا بد أن أفعل ذلك ، إذ لم تكن ثمة وسيلة أخرى ! » . ورد الطبيب فى هدوء : « أجل .. لم يكن ثمة بد من أن تفعلى ذلك » . ولم تتبين جين ـ فى عماها ـ خلجات وجهه عندما أضاف قائلا : « وما كنت ثمة وسيلة أخرى ، بالنسبة لك أنت بالذات ! » . فهتفت : « آه ، ما أشد سرورى يا دريك إذ أراك أدركت الحاجة الماسة إلى ما أعمل .. فلقد أوجست من أن تحمل عملى على محمل العبث أو السخف .. ولقد اقتضى الأمر أن أقوم بذلك الآن، وإلا فلن أقوم به مطلقا ، لأننى أثق تماما بأنه إذا صفح عنى ، فستكون هذه آخر عطلة أسبوعية أقضيها بعيدة عنه .. أتعتقد يا فتاى أنه سيصفح عنى ؟ » .

ومن حسن حظ جين أنها لم تكن ترى فى تلك اللحظة ، إذ ابتلع الدكتور كلمة على طرف لسانه ، وقال : صه يا عزيزتى .. انك تبعثين فى نفسى الحسرة لغياب ببغاء الدوقة . ولن يجدى حضورى إلى هنا ، إذا لم أتذرع بالصبر مع دالمين .. والآن خبرينى ، أحقا لن تخلعى هذه العصابة ؟ » . فأجابته جين قائلة : « لن أخلعها إلا لأغسل وجهى ، وسأكون مطمئنة إلى أننى لن أفتح عينى لمدة دقيقتين . لقد شعرت ليلة أمس براسى يلتهب ، حتى أننى لم أتمكن من النوم ، فأزحتها عنى لمدة ساعة أو ساعتين . ولكنى استيقظت قبل الفجر وأعدتها إلى مكانها ! » . فهتف متسائلا : « أو تعنين أنك ستبقينها هكذا إلى صباح باكر ؟ » . وابتسمت جين فى عزم وحرارة ، فقد

أدركت ما انطوى عليه سؤاله ، وأجابته فى رقة : « بل إلى مساء باكر ! » .

وإذ ذاك صاح الطبيب فى استنكار واحتجاج : « ولكن يا جانيت .. لا ريب أنك تودين أن نلتقى قبل سفرى ، يا بنيتى العزيزة .. ألا ترين فى أطالتك التجربة مغالاة لا ضرورة لها ؟ » . فأجابته جين وهى تميل نحوه ، وعيناها المعصوبتان تثيران الاشفاق : « مطلقا .. ألا ترى يا عزيزى أنك قد أتحت لى الفرصة التى تمكننى من أن أجتاز تجربة ـ ستكون عندما تحين ـ من أقسى صنوف التجارب التى يمر بها « هو » .. حين يأتى إليه أصدقاؤه ، ويذهبون ، فلا يكونون له سوى مجرد أصوات ولمسات .. إذ أنه لا يرى وجوههم ، ولا يذكر سوى صور باهتة لها .. أن مجرد سماع صوتك دون رؤيتك ـ يا دريك ـ أمر قاس ، حتى أننى لأشعر بما فى عملى هذا من اكتساب ميزة تمكننى من أن أشاركه ما هو فيه .. يجب ألا يضطر إلى أن يقول : « آه ، ولكنك رأيته قبل أن يرحل » .. بل أود أن يكون بوسعى أن أجيبه : « لقد جاء وذهب يا صديقى الحميم ، دون أن تراه عيناى البتة ! » .

وسار الطبيب إلى النافذة فوقف بجوارها ، وهو يردد صفيرا خافتا . وأدركت جين أنه يغالب استياءه ، فانتظرت متجلدة .. وبعد حين ، كف عن الصفير ، وسمعته يضحك . ثم عاد فجلس إلى جوارها ، وقال : « لقد كنت دائما عزيزة تنشدين الكمال الشامل ، ولا ترتضين انصاف الحلول ، لذلك فلابد لى من أن أوافق » . فمدت جين يدها تبحث عن يده قائلة : « آه يا فتاى !.. الآن يمكنك أن تساعدنى ، وما

عهدتك من قبل ميالا إلى الأنانية قدر ما كنت فى هذه المرة ! » .
وأجابها الطبيب : « ان الرجل الآخر ، هو « المشكلة دائما » .
ففى طبيعتنا ــ نحن الذكور المتوحشين ــ ما يدفعنا لأن نستأثر
بالمكانة الأولى لدى نسائنا .. ليس لدى امرأة واحدة فحسب.
وإنما لدى كل النساء اللاتى نعتبر أحيانا ــ فى غرور مسف ــ
أن لنا عليهن حقوقا .. انك تجدين ذلك فى كل مكان .. الآباء
مع بناتهم ، والاخوة مع اخواتهم ، والأصدقاء مع صديقاتهم .
فاذا جاء « الرجل الآخر » ، كان بمثابة حبة من دواء ، لا بد من
ابتلاعها !.. وإذا لم يخب ظنى فالأمر طبيعى ، ولو انها طبيعة
آيلة للتداعى ، ولذلك يجب مغالبتها . ولكن دعينى أذهب الآن
لأبحث عن قبعتك ومعطفك ثم اصحبك فى نزهة إلى الغابة ..
كلا ؟.. ولم ؟ لقد تعودت البحث عن حوائج فلاور ، ولذا فلى
دراية بالأماكن التى توضع فيها . لا بأس ، فلأستدع لك
مارجرى .. ولكن لا تبطئى ، ولا تخافى ان يسمعنا « دالمين »
لأننى قد رأيته ــ منذ لحظة ــ يسير ذهابا وإيابا فى الشرفة .
وهو يلمس الجدار بعصاه لمسا خفيفا ، بين حين وآخر ..
إلى أى حد قد بلغ بك المطاف حتى الآن ؟.. سنتحدث طويلا
فى حرية ، ونحن نسير فى الغابة . وأثناء قيادتى إياك ،
يمكننا أن نهتدى إلى الحلول التى تنفعك عندما يحين الوقت
لتقودى بنفسك « الرجل الآخر » .. فقط ارجو ان تكونى
حريصة فى هبوطك درجات السلم مع العجوز مارجرى ..
تصورى ما يحدث لو انك سقطت فوقها يا جين .. خسارة،
فانها تجيد عمل القهوة الفاخرة ! » .

الفصل الرابع والعشرون

ساد حجرة المكتبة بقصر (جلينيش) سكون عميق ، وقد
جلس جارث ودريك معا ، يدخنان فى ائتلاف كامل .
ويتذوقان الشعور بالارتياح والهدوء اللذين يتولدان فى أعقاب
عشاء فاخر وقضاء النهار فى استنشاق هواء المروج .. وكانت
جين تجلس فى الحجرة التى احتبست نفسها فيها ــ بالطابق
الأعلى ــ معصوبة العينين، وقد استسلمت إلى ظلمة اختيارية
لا تملك فيها سوى الانصات .. وخيل لها أنها تسمع دمدمة
خافتة فى الحجرة الواقعة تحت حجرتها ، تنم عن حديث
طويل مستمر .. كان من المؤسف حقا ، أنها لم تكن تستطيع
أن تراهما وهما جالسان معا ، وقد بدا كل منهما فى خير حال
.. كان جارث فى سترة العشاء التى تناسقت مع قوامه
المشوق ، بينما ارتدى الطبيب ملابس السهرة الأنيقة على
اكمل طراز ، وقد تكبد مشقة احضارها ، لعلمه بأن جين
تحب من أصدقائها الحرص على ارتداء ملابس السهرة فى
أوقاتها . وما كان ليحلم بأنها لم تؤت عينين لترياه !

وكان الطبيب مجبولا على الأناقة الدقيقة فى ملبسه . وكان
حريصا على أن تتمشى ملابسه مع احدث ما يعرف فى عالم
الأناقة ، ما عدا السترة الرياضية المصنوعة من صوف
(نورفولك) ، والتى كان يصر على الاحتفاظ بها ــ للمناسبات
التى يريد أن يشعر فيها براحة جسدية ــ برغم ما بذلته
الليدى براند من محاولات رقيقة ، تكررها فى كل مناسبة .

حتى يقلع عن ارتداء هذه السترة . وكانت تقول له : « لو قدر للحائك المسكين ــ الذى صنع لك هذه السترة ــ أن ينهض من قبره ويراك مرتديا إياها الآن ، فانى اعتقد انه سيثب إلى قبره ، يحدوه الخجل إذ يرى لباسا عتيقا مثل هذه السترة يحمل اسمه ، وما يزال معلقا على كتفى أحد عملائه ! » . فكان الدكتور يقارعها الحجة قائلا : « يا حبيبتى ، لم تدرجين فى عداد الأموات حائكى المبدع ، الواقع أنه ما تزال أمامنا ــ هو وأنا وهذه السترة المريحة ــ سنوات عديدة من العمل والجد ! » .

وفى مناسبة أخرى أرسلت فلاور زفرة عميقة ، وهى على مائدة الافطار ــ بعد أن أطلت من النافذة على مظاهرة سار فيها حشد من العاطلين ــ فسألها الدكتور عندما سمع تنهدها ، وهى ظاهرة لا تفوته : « ما خطبك يا جميلتى ؟ » فقالت له : « كنت أمنى النفس يا دريك بأن يبدو هؤلاء العاطلون أكثر رثاثة ــ فى المظهر ــ مما هم ، فكنت أعطى سترتك « النورفولك » العتيقة لواحد منهم . أما وهم كما رأيتهم ، فاننى أخجل من أن أقدمها لأحدهم ! » . فقال الطبيب مبديا الحزم ، بينما كانت عيناه تتطلعان إلى الوجه الجميل الذى أمامه بنظرة حنو ورقة : « آمل الا تفعلى ، يا عزيزتى ! » .

ــ ولكن ، ثق يا دريك أننى سأعطيها لأى شيخ فقير مهلهل الثياب يمر ببابنا !

فقال الطبيب : « حسنا يا حبيبتى » . وبذلك ختم الحديث ، وجمع رسائله ، والقى نظرة على ساعته ، وهو يقول لها : « ولكن ، تأكدى من أننى سأوفد توا من يقتفى أثر الفقير

الكهل ، ويشترى منه سترتى بثمن باهظ ، على أن تتكفلى أنت ــ يا فلاور ــ بدفع الثمن . ولذا أرى من الحكمة أن تعطى الفقير شلنا ولا تتدخلى فى أمر سترتى ! » . فدمدمت فلاور قائلة : « ان الفقير المسكين سيعتقل بلا شك إذا مر بشارع (ويمبول) مرتديا هذه السترة » .. فوافقها الطبيب قائلا : « أجل ، فان أشد رجال البوليس غباء سيدرك أنها ــ ولا بد ــ مسروقة .. بينما تنجو السارقة الحقيقية التى سأضطر إلى أن اتقدم لدفع الكفالة عنها ، لو أنهم قبضوا عليها ! » . ثم وقف بجوار مقعدها ، ولف الوجه الجميل براحتيه النحيلتين السمراوين ، وقال لها فى رقة : « وبذلك لن تكون سترتى العتيقة أول ما سرقته منى ! » .. وكان رد فلاور كافيا لأن يجعله ينطلق إلى عمله راضيا كل الرضى !

* * *

وكانت السترة « النورفولك » الرياضية قد اشتركت فى نزهة ــ فى ذلك الصباح ــ مع جين ، وقد عرفتها « جين » بالملمس عندما تأبط الدكتور ذراعها ، فتبادلا الضحكات عنها .. أما فى المساء ، فقد طواها سمسون ووضعها فى حقيبة ثياب الطبيب ، الذى ظهر فى أروع أناقة . وجلس فى مقعد ذى ذراعين أمام مدفأة المكتبة ، وقدماه الطويلتان معقودتان احداهما فوق الأخرى ، وكتفاه العريضتان غارقتان فى المقعد ! . أما جارث فكان يجلس فى مقعد يشعر فيه بدفء المدفأة ، مما كان يبعث فيه ابتهاجا فى تلك الأمسية الباردة التى أعقبت دفء ذلك النهار من أيام الربيع .. وكان مقعده موازيا فى

وضعه ، بحيث يستطيع « جارث » أن يخفى وجهه بيده عن زائره ، إذا هو شاء .

وما لبث الدكتور براند أن بدأ الحديث ، وهو يجهد ذهنه فى التفكير : « أجل . . بوسعى أن أدرك بسهولة أن كل الأشياء — التى تصل إليك فى هذه الظلمة — تتفاوت نسبيا ، وتكتسب قيما عالية ، مغالى فيها . . بيد أننى أعتقد أنك ستلقى — مع مضى الزمن ومع تدرجك فى الاختلاط بالناس — تعديلا كبيرا ، يعيد الأمور إلى نصابها ، فتصبح أقل حساسية للأصوات واللمسات التى تواتيك من الغير . أما الآن ، فان جهازك العصبى بأسره ، شديد التوتر ، فهو يتجاوب — باهتزازات مغالى فيها — مع كل مؤثر يقع عليك . ذلك لأن الجهاز العصبى الشديد التوتر ، يغالى فى تصوير المؤثرات . . وفى حالة فقدان وسيلة الإبصار ، تجمع بقية وسائل الاتصال بالعالم الخارجى — مثل السمع واللمس — حول نفسها مزيرا من قوة أعصاب ، وتصبح مرهفة الحس إلى درجة مؤلمة . ثم لا تلبث الأمور أن تقوم نفسها ، فتصبح هذه الحواس الباقية حادة ودقيقة بالقدر النافع ، فحسب . والآن ، ما الذى كنت تريد أن تقوله بصدد عدم مصالحة الممرضة روزمارى إياك ؟ » .

وقال جارث : « آه ، حقا . . ولكننى أريد — قبل ذلك — أن أستفسرك عما إذا كان لمهنتها أو لنقابتها أو لمعهدها أو لأية جهة تتصل بها ، قانون يمنع الممرضات من مصافحة مرضاهم » . . فأجابه الطبيب : « لم أسمع بشىء من ذلك » . فاستأنف جارث حديثه قائلا : « إذن فلا بد أن ما دعا إلى ذلك ، هـو

تقدير الآنسة جراى السليم لما احتاج إليه وما لا احتاج إليه . فهى — منذ اللحظة الأولى — لم تسمح لنفسها بمصافحتى ، بل ولم تمسنى بأية وسيلة أو علة . . حتى أننى لم أشعر بأصابعها تمسنى مرة واحدة ، وهى تدفع إلى بالرسائل والأشياء ، الأمر الذى يحدث عشرات المرات يوميا ! » . فتساءل الطبيب وهو ينفث دخان لفافته فى حلقات متصاعدة فى الهواء ، ويرمق وجه الرجل الأعمى بدقة بالغة : « وهل يسرك هذا ؟ » .

فأجابه جارث فى حماسة : « آه ، اننى لشديد الامتنان لعملها هذا . . أتعلم يا براند بأن شعورا راودنى — عندما اقترحت أن توفد لى امرأة تعمل ممرضة وكاتمة سر — بأننى لن أطيق وجود امرأة بجانبى ولن احتمل ملمسها ؟! » . فعقب الطبيب عليه فى هدوء : « هكذا قلت لى ؟ » فهتف جارث : « لا ! . . هل قلت ؟ . . لا بد أنك ظننتنى فظا ! » . فأجابه الطبيب : « أبدا . . ولكنك مريض فى ظروف غير عادية . . وعادة . . » . فقاطعه جارث بشىء من الضجر : « اننى لأجرؤ على القول بأننى صادفت فترة فى حياتى ، كنت أتوق فيها إلى أن تكون ثمة يد ناعمة صغيرة حولى . . وأقول الآن — ولا أخشى شيئا — إننى كثيرا ما كنت خليقا بأن أمسك بتلك اليد ، ولعلى كنت أقبلها . . من يدرى ؟ . . لقد اعتدت أن أفعل أمورا كهذه ، بخفة لا بأس بها . . ولكن ، عندما يتعود الرجل — يا براند تأمل ما أقول . . عندما يعرف الرجل ملمس امرأة معينة ، ثم لا يبقى من هذه اللمسة غير ذكرى . . ويجد نفسه

ملقى فى غياهب الظلام .. فان تلك الذكرى تصبح من الأمور القلائل التى تبقى له ، وفى بقائها عزاء له لا سبيل إلى وصفه .. فهل يدهشك إذا أوجس الرجل خوفا من لمسة أخرى ، قد تعكر أو تطمس ـ لأى سبب ـ تلك الذكرى وتحل محلها ، أو تنتزع منها قداستها المطلقة ! » . فأجابه الطبيب فى تأن : «اننى أفهم جيدا ما تقصد .. صحيح أن هذا لم يدخل فى نطاق تجاربى ، ولكننى أفهمه جيدا .. غير ان هذا ـ يا فتاى العزيز ـ لا يتم إلا إذا كانت تلى « المراة الوحيدة » موجودة . وهو ما يجوز لنا ـ فى حالتك هذه ـ أن نرتاب فيه ، فقد كانت فى حياتك نساء كثيرات .. ولو أنها كانت موجودة ، فمن المؤكد أن مكانها يجب أن يكون بجانبك ، وأن لمستها تصبح من أهم ما بقى لك ! » .

وقال جارث ، وهو يشعل لفافة أخرى : « آه قل لى هذا الرأى ، فانى أحب أن أسمعه منك ، ولو انه أشبه بقولك : ما دام المنظر الذى تطل عليه الشرفة باقيا ، فان بوسعى أن أراه !.. ذلك لأن المنظر مايزال باقيا ، ولكن عجزى عن الابصار يحول دون أن أراه ! » . فأجابه الطبيب وهو يميل قليلا ، ليلتقط عود الثقاب الذى لم يلقه جارث فى المدفأة تماما فسقط بعيدا عنها : « وبتعبير آخر : انك لم تكن « الرجل الأوحد » لها ، بالرغم من أنها « المراة الوحيدة » لديك ؟ » . فأجابه جارث فى مرارة ، وبكلمات خافتة : « نعم .. لقد كنت مجرد غلام .. فى نظرها ! » . ولكن الطبيب استطرد ، وكأنه لم يسمع العبارة : « أو لعلك ظننت أنك لم تكن » « الرجل الأوحد » ، فى حين أنك ـ فى الواقع ـ « الرجل الأوحد » لتلك المرة الوحيدة ،

ما لم يكن قد سبقك فى الميدان شخص آخر .. ولا يتطلب الأمر سوى صبر ووقت لاقناعها ! » .

* * *

واعتدل جارث فى جلسته ، والتفت نحو الطبيب بوجهه الذى ارتسمت عليه الدهشة ، وقال : « ياله من منطق غريب .. هل تعنى ما تقول ؟ » فأجابه الطبيب باقتناع بالغ : « تماما .. فاذا أنت استبعدت كل الاعتبارات الأخرى ، كالمال ، والأراضى ، والألقاب ، ورغبات الأصدقاء ، والشواغل الظاهرية .. أعنى إذا استبعدت إعجاب كل منهما بالجمال البدنى الآخر فحسب ـ لأن هذا لا يعدو أن يكون تفضيلا قائما على أسس تشريحية ـ وإذا نحن تحررنا من كل تلك النواحى الاجتماعية المعتادة ، أمكنك أن تضع الرجل والمراة فى « جنة عدن عقلية » ، وأن تدع كلا منهما يواجه الآخر وقد تجردا من كل طلاء مصطنع ومظهر متعارف عليه ، ويصبحان مجرد روح تطل على روح ، استطاعت « هى » ـ تحت هذه الظروف ـ أن تكون الأليفة ونفس تنظر إلى نفس فى تجرد ، وفى غير خجل .. فاذا استطاعت « هى » ـ تحت هذه الظروف ـ أن تكون الأليفة الحقة له ، إلى الدرجة التى تجعل أنبل ما فى الرجل يصيح : « هذه هى المراة الوحيدة ! » ، فاننى أقول انه كذلك يكون أليفها ، ولا يمكن أن يخفق فى أن يكون « الرجل الأوحد » لها .. وكل ما ينبغى عليه هو أن يثق بنفسه ثقة تمكنه من إقناع أليفته بأنه كذلك . وهذه الحقيقة تتفجر فى أعماقه فى قوة كاشفة . أما بالنسبة للمراة ، فانها تتكشف لها فى بطء وتؤدة ! » .

وغمغم جارث فى تخاذل : « يا الهى . . لقد كان الأمر كذلك تماما . . جنة عدن . . روح تطل على روح ، دون أى تحفظ ، ولا وجل ، ولا مواراة . . لقد عرفت فيها زوجتى ، ودعوتها بذلك . وفى اليوم التالى دعتنى « مجرد غلام » لا تستطيع أن تفكر لحظة فى الزواج منه . فما مصير نظريتك الخرقاء إزاء ذلك ، يا براند ؟ » . فأجابه الطبيب فى هدوء : « ان ما تقوله يدعمها . فان حواء تهرب من آدم ، وتختبىء بين أشجار الجنة ، فى غمرة التوجس من الهناء الهائل ، والشك فى النفس ، والخوف من عجزها عن تحقيق ما يتصوره فيها من مثل أعلى . فلا تتكلم عن النظريات الخرقاء يا بنى ، وإنما تكلم عن الواقع الأخرق الذى يتمثل فى آدم إذا لم يسارع إلى مطاردتها وامتلاكها ! » . فاعتدل جارث فى مقعده ويداه تشدان على ذراعى المقعد ، إذ أن صوت الطبيب بدأ يوقظ فيه الشكوك إزاء رأيه فى الموقف ، لأول مرة منذ اللحظة التى استدار فيها وأدبر خارجا من كنيسة قرية (شنستون) ، من ثلاث سنوات مضت .

وكان وجهه شاحبا ، واستبان الطبيب ــ على وهج نار المدفأة ، الذى كان ينعكس عليه ــ أن العرق كان يتصبب على جبينه . وما لبث جارث أن قطع السكون قائلا : « أواه يا براند ، اننى اعمى ! . . فرحماك وترفق بى . أن الأمور تتخذ فى الظلام معانى اقسى وامر ! » . فتروى الطبيب مفكرا . . ولو تسنى لمرضاته وطلبته ان يشاهدوا منظره ونظرته فى تلك اللحظة ، لحدسوا انه كان يجرى عملية جراحية دقيقة وخطيرة

إلى أبعد حد ، بحيث أن أتفه زلة من المبضع تكفى لأن يموت المريض . . وما كان حدسهم مجانبا للصواب ، فقد كان مستقبل شخصين معلقا بأكمله فى الميزان ، متوقفا ــ فى هذه الأزمة ــ على رباطة جأش الجراح وثباته ، وعلى خفة لمساته بوجه خاص . ولم يكن الطبيب قد حسب حسابا لهذا الوجه المرهق المتقع ــ تحت وهج نار المدفأة ــ وحبات العرق المتفصدة عن عذاب النفس ، وهتافه : « أنا أعمى ! » . . تلك كانت صورة « للرجل الآخر » لا يجسر على تأملها دون تأثر وألم . غير أن أفكار ذاك الشخص الصبور المعصوب العينين ــ الذى كان يجلس فى الحجرة العليا ، ينتظر فى قلق ، وقد بسط يديه الحبيبتين فى عجز تام ــ ردت إلى أعصاب الطبيب هدوءها ، فأخذ يحدق فى النار ، ثم قال فى هدوء : « قد تكون أعمى يا دالمين ، ولكنى لا أحب أن تكون أخرق ! » .

وسأله جارث : « هل أنا . . أترانى كنت . . أخرق ؟ » . فأجابه الطبيب : « وكيف لى أن أحكم . . اشرح لى الظروف بجلاء ــ من وجهة نظرك ــ أعطك رأيى فى الأمر ! » . . وكانت لهجة الطبيب رزينة وواقعية ، فسكبت فى نفس جارث سكينة وسلاما . . كأنما كان الطبيب يتحدث عن التهاب فى الحنجرة أو مبادىء داء « عرق النساء » . فاضطجع « جارث » فى مقعده ، وغرس يده فى جيب صدر سترته ، ليتحسس خطابا كان فى داخله . . أيجرؤ على المجازفة ؟ . . هل له ــ ولو مرة واحدة ــ أن يخفف عن نفسه ، فيفضى بمتاعبه إلى رجل يثق به أعظم ثقة ، على ان يتجنب ــ فى الوقت ذاته ــ إفشاء حقيقة شخصيتها لرجل كان يعرفها أوثق معرفة ؟

وراح « جارث » يزن الأمور بعقلية لاعب الشطرنج ، ليحدس كل الحركات التى قد تقع بعد تصميمه .. فهل من الممكن أن يكون الحديث من الوضوح بحيث يكون ذا جدوى ، مع تجنب أية إشارة تكشف عن أن « جين » هى المرأة الوحيدة ؟ .. ولو أن الطبيب أصر أو تعجل أو اقترح ، لدفع ذلك جارث إلى الصمت . ولكن الطبيب لم ينبس ببنت شفة .. كل ما آتاه هو أنه مال نحو المدفأة ، ليذكيها بطريقة بالغة الحذر . ثم ألقى إلى النار بقطعة من خشب الصنوبر الزكى الرائحة . وعندما انتهى من هذه العملية ، راح يصفر المقطع الختامى لترنيمة : « تعالى أيتها الروح الخالقة » .. ولأول مرة ، لم يفطن « جارث » — وقد شغل بالصراع الذى كان يدور فى ذهنه — إلى وجود صوت خارجى ، فلم يدر كيف ترددت فى ذهنه — فى تلك اللحظة الدقيقة — كلمات المقطع فى إصرار رفيق :

« ابعد عنا أعداءنا .. وهب السلام للوطن ..

« وحيث تكون مرشدنا ، فلن يكون ثمة مرض » .

وتفاءل بهذه الكلمات ، فاذا بها ترجح كفة الميزان . ومن ثم قال : « براند .. إذا كنت — كما أعهدك — كريما بحيث تجود على برأى ، فسأتيح لنفسى الراحة البالغة التى تنجم عن ائتمانك على سرى . فهل تعدنى بألا تسعى قطعا إلى كشف شخصية « المرأة الوحيدة التى أقصدها ؟ » . فابتسم الطبيب وتجلت الابتسامة فى صوته ، مما زاد من شعور جارث بالطمأنينة : « يا صديقى العزيز ، ليس من خلالى أن أسعى

للإيغال فى أسرار الناس ، فهذا نوع من الرياضة الذهنية لا يروق لى ، ولا أستسيغ أساليبه ، ولا أستشعر فيه تسلية أو فائدة .. فاذا كنت أعرف حقيقتها فلن تكون بى حاجة إلى الحدس .. وإذا لم أكن أعرفها ، وكان أصحاب السر راغبين فى أن أبقى جاهلا هويتهم ، فاننى أوثر أن أسرق نقودهم على أن أختلس أسرارهم ! » ..

فأجابه جارث : « شكرا لك .. لو كان الأمر يتعلق بشخصى ، لما وجدت ما يضيرنى فى أن تعرف السر .. ولكن السر يتعلق بها هى .. حتى لا يظهر اسمها ! » .

فقال الطبيب : « لا شكّ فى ذلكَ . فما لم تختر « المرأة الوحيدة » أن تكشف شخصيتها ، فانها ستبقى دائما فى طى الكتمان ، فهيا أتمم قصتكَ يا صديقى ، ولن أقاطعك ! » .

وشرع جارث يقول : « سأسرد عليك الأمر مبسطا ومختصرا بقدر ما أستطيع ، وستفهم — خلال الحديث — بأن هناك من التفصيلات ما لا يملك إنسان أن يتحدث به .. لقد عرفتها لسنوات طويلة ، معرفة صداقة ، إذ كنا ننزل ضيفين فى دور واحدة ، ونلتقى فى قصور اللوردات وعلية القوم ، وغيرها من الأمكنة التى تجمع أبناء البيئة الواحدة . وكنت دائم الميل لها ، أشعر معها براحة وسرور . كما كان لآرائها عندى المقام الأول .. وكانت هى — من ناحيتها — صديقة وزميلة لى ولكثيرين من أمثالى ، غير أن أحدا منا لم يفكر يوما فى أن يرتبط معها بغرام ، فقد كانت تضحكَ من المفاجآت والتعبيرات السخيفة التى يتداولها الشبان مع غيرها من النساء . وإذا أرسل اليها أحد

باقة من الزهور لتتزين بها، فانها كانت تضعها فى إناء الزهور، وهى تتساءل عمن كانت مقصودة بهذه الهدية ! .. وكانت تجيد الرقص ، وركوب الخيل . على أن من كان يراقصها ، كان يلتزم بمراعاة قواعد اللياقةالتامة، وإلا أسلمته إلى حيرة وارتباك .. أما الذى كان يطمع فى التبارى معها فى ركوب الخيل ، فقد كان عليه أن يعد نفسه لأن يجتاز أى حاجز أو جدار . ولست أذكر أنى رأيتها مرة تخرج للصيد ، فقد كان حبها للحياة والألعاب الهادئة ينأى بها عن ذلك .. انما أردت أن أخطط لك هذه الصورة الوصفية ، لأبين ما جبلت عليه . وكان مما يبعث الغبطة فى كل قلب ، أن توجد فى الحفلات الخاصة ، وإن لم يدر أحد لتلك الغبطة مبعثا .. من المستحيل أن توصف .. لقد كانت .. هى .. هى .. » .

ولقد قرأ الطبيب كلمة « جين » تراقص بين شفتى « جارث » ، وإن لم ينطق بها، وأدرك مدى عجز أى وصف عن إيفا ذلك الاسم حقه . ولم يشأ أن يوقف تيار اعترافات « جارث » . فراح يساعده بامداده بالكلمات ، قائلا : «انها نوع نادر .. نعم ، أفهم جيداما تعنى .. وبعد ؟ » . فاستطرد الصوت الشاب المتاع ، قائلا : « لقد خبرت حالات الهيام كثيرا ، وكنت أظن ان الشىء الأوحد الذى يعنينى فى المرأة ، هو المظهر الخارجى .. كان الجمال بكل أنواعه ، وبأى أنواعه ، يستهوينى لحظة . ولكنى لم أفكر مرة فى الزواج من إحداهن ، بل كنت أهفو دائما إلى رسم صورهن . وكانت أمهاتهن وعماتهن وغيرهن من المسنات ـ فى تلك الحفلات

الخاصة ـ يعتقدن بأننى كنت أهدف إلى الزواج .. ولكن الفتيات أنفسهن كن يدركن حقيقة الأمر .. ولا أعتقد أن أية فتاة على وجه الأرض ـ ممن مررن فى حياتى ـ تملك أن تتهمنى بأننى غازلتها ! .. كنت أبدى إعجابى بجمالهن ، وكن يعرفن ذلك ، ويعرفن أننى لا أقصد شيئا سوى الإعجاب . وكانت تجارب لطيفة ـ فى حينها ـ وكثيرا ما ساعدت على التمهيد لزواج أولئك الفتيات . ولأضرب لك مثلا ببولين ليستر ، فقد لصق اسمها باسمى خلال موسمين كاملين ، ولكنها تزوجت أخيرا من الرجل الذى رسمت صورتها على سلم داره الفاخرة الجهيلة !.. اما لماذا لم التقط منهن زوجة ، فيرجع ـ فيما أحسب ـ إلى أنهن كن كثيرات ، فضلا عن أن جاذبيتهن كانت سطحية !.. ولست أتورع عن أن أصارحك بأن الوحيدة التى كان لجمالها تأثير حقيقى ، هى الليدى « براند » ، ولكننى شعرت بالرضى والاكتفاء بعد أن رسمت صورتها وأظهرتها للعالم فى أكمل آياتها . وما سألت أية امرأة أكثر من أن أرسم صورتها ، وأن أتبين فيها نواحى صالحة للتصوير .. وما كان فى مقدورى أن أشرح ذلك للأزواج أو الأمهات أو الوصيفات ، ولكن النساء أنفسهن كن يفهمن ذلك جيدا .. ولا تحضرنى ـ وأنا جالس فى ظلماتى هنا ـ أية ذكرى تثير ضميرى ! » .

فقال له دريك براند ضاحكا : « يالك من فتى طيب .. لقد أسىء فهمك كثيرا فى كل وسط اما انا فأصدق قولك ! » .. فاستأنف جارث حديثه قائلا : « وبهذا ترى أن الامر كان سطحيا فحسب ، ولم أتجاوز به السطح مرة . أما النساء اللائى فهمتهن كل الفهم ، فمنهن أمى ـ التى ماتت وأنا فى

التاسعة عشرة من عمرى ــ ومارجرى جرايم ، التى تعودت أن أحتضنها وأقبلها عند وصولى أو سفرى ، وسأظل على ذلك حتى أقبل وجهها الكهل وهى مسجاة فى تابوتها ، أو حتى تسلمنى هى إلى تابوتى .. أن تلك الروابط التى ترجع إلى طفولة المرء وصباه ، هى من الصق وأقدس الروابط فى حياة الإنسان .. وهكذا سارت الأمور ، إلى أن كان ذات مساء من أمسيات شهر يونية ، منذ سنوات !.. كانت هى ــ « المراة الوحيدة » ــ وأنا معا ، فى حفلة خاصة فى أحد القصور القديمة المحبوبة ، فى الريف . وبعد ظهر أحد الأيام ، كنا نتبادل الحديث ــ على حدة ــ ولكنه كان حديثا صريحا وعرضيا . ولم تكن لدى فكرة عن الرغبة فى الزواج بها ــ إذ ذاك ــ لولا أن حدث أمر .. فجأة .. ولا يسعنى أن أزيدك عنه إيضاحا لئلا تتبين منه شخصيتها . ولكن الذى حدث ، كشف لى ــ فى لحظات قلائل رائعة ــ عن حقيقة المرأة والزوجة والأم فى كيانها .. وعن القوة والحنان ، وعن الكمال التام الذى كانت عليه روحها الصادقة النقية .. وفى خمس دقائق استيقظ فى داخلى تعطش إليها ، لم يتمكن شىء من تهدئته ، ولن يقدر لشىء أن يهدىء سورته ، حتى اقف إلى جوارها فى العالم الآخر .. فى « المدينة الذهبية » ، حيث لا جوع ، ولا عطش ، وحيث لا يكون ظلام ولا حاجة إلى نور الشمس أو القمر أو ضوء الشموع ، لأن مجد الله سينيرها إلى الأبد ، وحيث لا حزن ولا الم ، لأن الأمور الماضية تكون قد ولت ! » .

وتألق وجه الأعمى أمام نار المدفأة .. كانت عودته إلى الماضى قد زودته برؤى المستقبل المرتجى ! .. وكان الطبيب جالسا فى سكون تام ، يرقب الرؤى حتى خفتت ، ثم قال : « وبعد ؟ » . واستأنف الصوت الفتى حديثه من بين الظلال . فى لهجة من هبط إلى الأرض حيث لم يلق سوى الهم والأسى : « وبعد ؟ .. لم يساورنى ــ إذ ذاك ــ اقل ريب فيما طرأ على . فقد أيقنت بأننى أحببتها .. أيقنت بأننى كنت أبتغيها .. ايقنت أن فى حضورها نهارى، وأن غيابها ليل قارس البرودة، وأن كل يوم لم يكن متألقا إلا لوجودها ! » .

وصمت جارث قليلا ليستعيد انفاسه ، وليمتع نفسه لحظة بالذكريات الماضية الصامتة . ولكن صوت الطبيب قطع عليه الصمت ، وهو يسأله فى وضوح وصراحة : « اكانت امرأة حسناء ، مليحة ، جميلة ؟ » . فردد جارث كلماته وهو شارد البال : « امرأة حسناء ؟.. كلا ، وحق السماء !.. مليحة ، جميلة .. ها قد أحرجتنى ، فيمينا بشرفى إننى لا أدرى ! » . فقال الطبيب : « انما قصدت : هل كنت مشوقا لأن ترسم صورتها ؟ » . فأجاب جارث : « بل لقد رسمتها ! » .. وجاء رده فى صوت خافت جدا ، يسيل حنانا ورقة . ثم أردف : « ومع أن الصورتين اللتين رسمتهما لها ، قد تمتا فى أسى ، ومن الذاكرة ، إلا انهما ابدع تحفة انتجتها .. ولم تكتحل عين بشرية برؤيتهما سوى عينى .. أما الآن ، فلن تراهما عين مطلقا ، اللهم إلا عينا الشخص الذى اراني مضطرا إلى أن أعهد إليه بالبحث عنهما وإحضارهما لى .. لأمزقهما ! » ..

فسأله الطبيب : « وذلك الشخص .. ؟ » . وأجابه جارث :
« الممرضة روزمارى جراى » !

وحرك الطبيب قطعة خشب الصنوبر، فى المدفأة ، فتأججت نارها بلهب زاه ، ثم تكلم وهو يجاهد ليمنع الفرح الذى ارتسم على وجهه ، من أن يبين فى صوته : « لقد احسنت الاختيار . فان الممرضة روزمارى ستكون خير حفيظ للسر .. حسنا جدا . إذن ، لنا أن نقول أن « المراة وحيدة » كانت جميلة . اليس كذلك ؟ » . فتجلت على جارث أمارات الحيرة ، وأجاب فى تريث : « لا أعلم .. فليس بوسعى أن أراها بعيون الآخرين .. أما طيفها الذى تجلى لى فى تلك اللحظة المتألقة ، فقد كان يطابق الأمور التى املاها إلهامى : النفس والروح والجسد .. كانت لها روح نقية ، وكاملة .. ونفس جميلة نبيلة ، جمعت كل ما ينشد فى المراة حتى أن الجسد الذى كان كساء للروح وللنفس ، قبس من كمالهما ، فأصبح حبيبا غاليا ! »

وقال الطبيب بكل لطف : « فهمت .. أجل ايها الصديق العزيز ، لقد فهمت ! » .. ثم همس لنفسه : « أواه يا جين .. يا جين !.. لقد كنت عمياء بغير عصابة على عينيك ، فى تلك الأيام ! » .

* * *

وما لبث جارث أن استأنف حديثه قائلا : « مرت بنا أيام مجيدة رائعة . وقد تحققت الآن من أننى كنت أعيش فى وهج يقينى الخاص بانها هى « المراة الوحيدة » .. كانت

هذه الحقيقة ــ بالنسبة لى ــ واضحة ، عذبة ، رائعة ، حتى اننى لم أحلم بأنها لم تتبين لها هى ، كما تبينت لى . ورحنا نعزف الموسيقى معا لمجرد الاستمتاع الطاهر ، واخذنا نتحدث عن الفير لمجرد التفكه .. وكان كل منا يستمتع بآراء الفير وافكاره ، ويقدرها . ولكنا لم نتحدث عن نفسينا ، لاننا كنا نعلم كل شىء .. أو على الأقل ، كنت أعلم واظن ــ واشهد الله ــ أنها كانت مثلى .. وفى كل مرة كنت أراها ، كانت تزداد تألقا وكمالا فى عينى . ووجدت فى يدى المفتاح الذهبى الذى كشف لى عن بسائط لم اكن اعيرها ــ من قبل ــ اهتماما . فقد كنا ــ نحن الشبان الذين جمعتنا جامعة الإعجاب بها ــ نتندر بفكاهات عن ارتدائها «ياقات» وجوارب وأحذية طويلة ، وأثواب قصيرة ، وكيف كانت تضرب ساقها بسوط الخيل ، وتحرك نار المدفأة بمقدم حذائها .. ولكنى ــ بعد تلك الليلة ــ ادركت أن كل ذلك لم يكن سوى سياج أخفت خلفه أنوثتها الرائعة ، التى ثبت أنها من نوع أعمق من أن يسبر غوره أى رجل ممن ينظرون إلى مجرد القشور السطحية .. وعندما قدمت ــ فى المساء ــ متهادية فى ثوب أسود ثمين ، التصق بقوامها ، وقد زينت صدره بطبقات من « الدانتلا » الرقيقة الفاخرة ، التى استلقت على صدرها ، وراحت تهتز مع خفقات قلبها الكبير الحنون .. أواه ! لقد طربت نفسى ــ إذ ذاك ــ وامتلأت عيناى غبطة !. .لقد رأيتها فى المساء ــ كما وجدتها طوال النهار ــ كاملة فى أنوثتها الأبية، العذبة ! » .

وقال الطبيب لنفسه : « ألم يفطن حقا إلى أن الصورة التى رسماها بحديثه لا تنطبق إلا على جين ؟ » .

وعاد جارث إلى حديثه قائلا : « وسرعان ما اضطررنا إلى الافتراق لثلاثة أيام ، ثم التقينا فى عطلة الأسبوع ، فى حفلة خاصة أخرى ، بأحد القصور . وكانت بين الحضور إحدى جميلات الموسم ، وقد استباح القوم لأنفسهم أن يقرنوا اسمها باسمى .. وقالت « المرأة الوحيدة » شيئا بهذا الصدد ، اقترن بالفراغ الرهيب الذى عانيته فى تلك الأيام الثلاثة التى لاحت لى دهرا ، فعقدت العزم على أن أفاتحها دون توان .. وسألتها أن تقابلنى ـ فى الشرفة ـ فى تلك الليلة .. وكنا وحيدين ، والليلة قمرية صحوة » ، وصمت جارث طويلا ، فلم يشأ الطبيب أن يتكلم ، إذ أدرك أن صديقه كان يستعرض فى فكره كل المسائل التى لا يتحدث بها رجل إلى آخر .. وأخيرا عاود جارث حديثه ، فقال بكل بساطة : « وإذ ذاك ، بحت لها .. » .

ولم يعقب الطبيب بأى تعليق ، وقد أومض فى فكره ـ فى تلك الآونة ـ التعبير الذى استخدمته جين : « وإذ ذاك .. حدث الأمر ! » . هكذا قالت عندما بلغت فى قصتها هذه النقطة !.. وبعد لحظات من الصمت ـ قضاها جارث سابحا فى ذكريات من ضوء القمر ، وقضاها الطبيب فى تفسير عبارات « جين » حرفا بحرف ـ عاد الصوت الفتى الحزين يقول : « لقد ظننت أنها كانت تفهم الأمر كما فهمته . ولكنى فطنت ـ بعد أن أخبرتها ـ إلى أنها لم تفهمه مطلقا . كانت تصرفاتها قد حملتنى على الاعتقاد بأننى لقيت لديها قبولا ، وأننى قد ضممت إلى نعيم حبها الكبير ، حتى وهى محاطة بحبى .. وما كان الذنب ذنبها .. آه ، كلا ، فما هى أهل لأى لوم .. وإنما كان الذنب ذنب أنها لم تفهمنى ، ولم تستطع أن تفهم ما كان لأية لمسة من لمساتها من أثر فى نفسى . وما كان فى حياتها الغالية أى رجل من قبل . هذا وما أيقنت منه بغريزة لا تخطىء ، وباعترافها هى . ولقد فكرت ـ أحيانا ـ فى أن من المحتمل أن تكون قد تعلقت فى صغرها بمثل أعلى ، راحت تقيس الرجال ـ فيما بعد ـ على أساسه ، فيتضح لها أنهم أقصر منه ، ومن ثم فهى تستبقيهم على بعد مناسب . ولكن ، إذا صح هذا ، فلا بد أن مثلها الأعلى كان مخبولا أعمى ، إذ لم يحس بهذا الحب الذى يفوق كل ثمن ، والذى كان خليقا بأن يظفر به ، لو أنه حاول . ذلك لأننى أوقن من أنه لم يقدر ـ حتى تلك الليلة ـ لحب رجل آخر أن يتأجج حولها ، وأنها لم تشعر يوما بأنها محوطة بصرخات الوله والهيام العارم الذى يفوق كل تصوير ، والذى يوحى بحاجة ماسة جارفة إليها .. وبينما كنت أظنها قد أدركت ، واستجابت ـ والله على ما أقول شهيد ـ إذا بها لم تفهم شيئا البتة ، وإنما كانت تحاول أن تبدى العطف والكرم ! » .

وهنا تململ الطبيب فى مقعده ، وعقد ساقيه فى سكون ، راح يتأمل الوجه الأعمى .. فقد وجد اعترافات « الرجل الآخر » أشد لوعة وضنى مما كان يتوقع !. وما لبث أن سأله فى صوت أجش : « أواثق أنت مما تقول ؟» . فأجابه جارث : « كل الثقة .. أصغ إلى ، لقد ناديتها بما كنت أشعر أنها كانت لى فى تلك اللحظة ، وبما أردتها أن تكون إلى الأبد

ـ بالنسبة لى ـ وبما ستظل إلى الموت وما بعده .. تلك
الكلمة ـ لا ، بل كانتا كلمتين ـ تلكما الكلمتان جعلتاها تفهم .
هذا ما أتبينه الآن .. وما كان منها إلا أن هبت واقفة لدى
سماعها الكلمتين ، وابعدتنى عنها وهى تتذرع بحاجتها إلى
أن امهلها اثنتى عشرة ساعة ، حتى تبحث الأمر فى هدوء .
ووعدت بأن تقابلنى فى كنيسة القرية ـ صبيحة اليوم التالى ـ
لتطلعنى على ردها .. وقد تحكم يا « براند » بأننى كنت
أبله . ولكنك لن تتصورنى حمارا كبيرا ، بالقدر الذى أتصور
به نفسى الآن .. بيد أننى كنت أوقن يقينا ثابتا بأنها لى ..
وكنت متأكدا من ذلك عندما حضرت إلى الكنيسة ، وعندما
بقينا منفردين فى بيت الله ، فلم أتجه إليها بلهفة العاشق
المتوسل ، وإنما ناديتها لتقف إلى جانبى على عتبة الهيكل ،
كما لو كنت حقا زوجها ، وصاحب الحق فى الأمر .. وجاءت ،
فرأيت ـ اتباعا لأصول اللياقة ، وقبل أن أضمها إلى صدرى ـ
أن أسألها ردها .. فكان جوابها : « ليس بوسعى أن أتزوج
من مجرد غلام ! » .

واختنق صوت جارث وهو ينطق الجملة الأخيرة ، ودفن
رأسه فى راحتيه .. كان قد بلغ النقطة التى وقف لديها الكون
عن الحركة .. النقطة التى كفت عندها كل الأشياء عن أن
تكون ـ كعهدها من قبل ـ إلى الأبد !.. ولاح أن الحجرة
كانت فى سكون عجيب ،وكأنما سكب فيها الصوت ـ المتهدج
وجدا ـ فيضا جارفا من الحب والأمل والحنين .. فكشف
عن روح أضفى عليها الحب الصادق للجمال شبابا أزليا ،

وعن قلب تحرر وسما بمثله العليا عن كل عبث بحب أدنى ،
وامتلأ بقوة جبارة ، وبلغ أعلى ذروة عندما عثر ـ أخيرا ـ
على الحب الصادق ..

وارتجف الطبيب عند هذا الحد من القصة ، وكأنما تسربت
إلى عظامه برودة كنيسة خالية .. وأدرك مدى قسوة الأمر ،
بأكثر مما أنبأه « جارث » . فقد كان على علم بالسؤال
القاسى المذل : « كم سنك ؟ » .. لقد اعترفت له « جين »
بذلك ، وعرف كيف خبا تألق ذلك الحب الطاهر ، عندما
انثنى العقل فجأة إلى الداخل ، ليستطلع دخيلة صاحبه ..
لقد كان يعرف كل ذلك بصورة مبهمة ، أما الآن ، فقد رآه
على حقيقته ماثلا أمامه . رأى عاشق جين المصدوم ، الذى
كان بجواره منكس الرأس ، أعمى ، وقد ارتد إلى الماضى
يعيش فى غمرة تلك المناظر والأصوات التى لا يمكن أن تخفيها
ـ أو تحجبها ـ أكثر حجب النسيان رحمة !

ولقد كانت للطبيب ذنوبه ، ولكنها لم تكن كذنوب القديس
بطرس . فما تكلم يوما ـ ومهما تكن الظروف ـ لمجرد أن
يقول شيئا . ولكنه انحنى إلى الأمام ووضع يدا حانية على
كتف جارث ، وقال : « يا لك من فتى مسكين !.. آه ،
يا للصديق المسكين ! » .

وظلا جالسين فى صمت ، على هذا الوضع ، وقتا طويلا !



وقاد الطبيب (جين) إلى الشجرة التى كانت تحظى بأكبر قسط من أشعة الشمس ، ثم جلس بجوارها

الفصل الخامس والعشرون

« إذن فلم تبد أى رأى ، ولا أوضحت شيئا ، بل تركته على اعتقاده !.. أواه ، يا ديكى !.. كان جديرا بك أن تتكلم ، وأن تسهب ! » .

كانت جين قد تسلقت مع الطبيب ذلك الدرب المنحنى ، الذى يمتد ــ من نهاية الشرفة ــ متعرجا إلى بقعة عارية ، وسط أشجار الصنوبر ، فى صباح يوم الأحد الذى ساده الهدوء .. وكانت ثمة شجرتان قد سقطتا على الأرض متباعدتين قليلا ــ بحيث تصلحان لأن تكونا مقعدين فى أشعة الشمس ، تجاه منظر بديع يمتد إلى أسفل التل ، ثم عبر الوادى ، ويترامى إلى التلال الأرجوانية القائمـــة خلفه .. وقاد الطبيب «جين» إلى الشجرة التى كانت تحظى بأكبر قسط من أشعة الشمس ، ثم جلس بجوارها ، وراح يسرد عليها ــ فى أناة ــ حديث الليلة الماضية حرفا بحرف ، ثم قال : « لم أبـد أى رأى ، ولا أوضحت شيئا ، بل تركته على اعتقاده ، لأن هذا كان المسلك الوحيد حتى تبقى متربعة فوق البرج العاجى الـذى بواك إياه . ولو أدلينا بأى سبب لتصرفك ــ سوى جهل بالرجال يشبه جهل الأطفال ــ لفتحنا الباب لأشياء تقال فتلقى قبولا ، وإذ ذاك تهوين يا فتاتى المسكينة ، ويكون الوقـوع أليما . وشلت يدى إذا كانت هى التى تدفع بك إلى تلك الهوة .. تقولين إنه كان جديرا بى أن أتكلم وأسهب ، ولكن هـذا كان خليقا ــ كذلك ــ بأن يجعلنى أعيش متحسرا نادما ! » .

وقالت جين فى استهتار : « لأن أسقط بين ذراعيه وابقى هناك ، أحب إلى من أن أتربع فوق برج عاجى ! » . فأجابها الطبيب : « معذرة يا بنيتى الطيبة ، فقد كان الاحتمال الأصح هو ان تهبطى إلى أول قطار سريع يرحل إلى الجنوب .. بل اننى لا أجزم بأنك كنت تنتظرين القطار السريع ، حتى أنى لأكاد أتمثل النبيلة « جين شامبيون » تبارح محطة صغيرة ، فى عربة فارغة من ناقلات الفحم . كلا ! لا تنهضى ولا تحاولى السير بخطى واسعة بين قرم أشجار الصنوبر » . وجذبها فأجلسها حيث كانت بجواره ، ثم استأنف قوله : « لو انك فعلت ، فلن تجنى سوى أن تتعثرى وتهوى فى وضع رأسى إلى الوادى . وليس من المفيد تعجل السقوط الذى لا مناص منه ! » . فتنهدت جين ، ووضعت ذراعها فى ذراعه ، وأحنت راسها لتخفى عينيها المعصوبتين فى سترته الصوفية الخشنة فى ثنايا كتفه ، وهى تقول : « أواه يا ديكى !.. لست أدرى ما الذى الم بك اليوم . إنك لم تعد لطيفا معى .. لقد مزقت روحى التعسة بتكرارك كل ما قاله جارث فى الليلة الماضية .. وبفضل ذاكرتك المرهفة الفظيعة ، استطعت أن تقلد رنات صوته وتباين نبراته .. ثم ، وبدلا من أن تسرى عنى ، إذا بك تتركنى غارقة إلى أذنى فى الخطأ ، بل اننى قد ترديت ! » .

وقال دريك : ! فى الخطأ ، هذا حق .. أما أنك ترديت فلا .. وما قلت إننى لن افعل شيئا اليوم ، وإنما قلت إننى بالأمس لم اقو على عمل شىء .. فليس فى الوسع أن يأخذ الإنسان شيئا جريحا فيقلبه بين يديه ويحلله . وعندما تبادلنا

تحية المساء ، قلت له اننى سأفكر فى الأمر ، وأدلى إليه برايى اليوم .. وإذا شئت أفضيت إليك بما حدث لى .. لقد تأملت الفجوات الفائرة فى نفس جميلة ، نادرة ، فرأيت مبلغ الدمار الذى تقوى أية امراة على أن تحدثه فى حياة الرجل الذى يحبها . وأؤكد لك بأن الليلة الماضية لم تكن ليلة راحة وتسلية. وقد استيقظت هذا الصباح وأنا أحس كمن ضرب ضربا مبرحا ! » . فسألته جين بلهجة مؤثرة : « فما بالك بى أنا ، إذن ؟ » . وكان جوابه : « انك ما تزالين تشعرين فى نفسك بأنك على جانب من الحق . وما دمت مصرة على الاعتقاد بأن لديك ذرة من المبررات ، وتتعلقين بها ، فلا امل فى حالتك .. يجب أن يكون قولك : انى أعترف .. فهل تصفح ؟! » .

وصاحت جين : « ولكننى تصرفت بما يحقق الخير .. فكرت فيه قبل أن أفكر فى نفسى .. وكان الأسهل أن اتقبل السعادة السائحة ، وأدع المستقبل للقدر ! » .

ـ ليست هذه أمانة يا جانيت .. لقد فكرت فى نفسك أولا .. لم تجسرى على مواجهة الألم المحتمل إذا فتر حبه ، أو خبا إعجابه . إن المرء حين يفكر فى الأمر ، لا يلبث أن يتبين أن كل أشكال الحب الآدمى ـ باستثناء حب الأم وحده ـ أنانية فى جوهرها . وخير فرصة سائحة لدالمين هى أن يوقظ عجزه الكامل وفقدانه بصره ، الحب الأموى فى نفسك ، وإذ ذاك تضاءل حب النفس !

فتنهدت جين وقالت : « واها لى !.. اننى تائهة ، محطمة ،

حائرة فى دياجير الظلام .. ما من شىء يبدو لى واضحا وما من شىء يبدو صوابا ، ولو استطعت أن أرى عينيك الرقيقتين ، لخف إيذاء صوتك القاسى » . وكان رد الطبيب : « إذن ، فاخلعى هذه العصابة وانظرى ! » . فصاحت جين فى غضب : « لن أفعل ! افتحملت كل هذا ، لكى أفشل فى النهاية ؟ » .

ـ يا بنيتى العزيزة ، إن هذه الظلمة التى تفرضيتها على نفسك تؤثر على أعصابك ، فحذار أن تؤدى إلى ضرر أكثر مما تؤدى إلى خير . إذ أن الأدوية الشديدة ..

فهمست جين قائلة : « اصمت ، فانى أسمع خطوات ! » . فأجاب الطبيب بصوت خافت : « إنك تستطيعين سماع وقع الأقدام فى الغابة إذا ما أصغيت إليه » . ثم سكت منصتا . فهمست جين قائلة : « إننى أسمع خطوات جارث .. أواه . ديكى .. تقدم إلى حافة الطريق ، وانظر . ففى وسعك أن ترى القادم فى منحنيات الطريق السفلى » . فسار الطبيب إلى الناحية التى اشارت إليها فى حذر ، والقى بنظره على الطريق الذى صعدا فيه ، ثم عاد إلى جين قائلا : « حقا ، ان الحظ يحالفنا . فان دالمين صاعد إلينا ومعه سمسون ، لن يلبث أن يكون هنا بعد دقيقتين » . فهتفت : « الحظ يحالفنا ؟ ! يا عزيزى ديكى ، إنه لأسوأ طالع ! » . وارتفعت يدها نحو العصابة التى كانت فوق عينيها ، غير أن الطبيب سارع إلى منعها .. وقال : « أبدا .. لا تفسدى تجربتك فى اللحظة الأخيرة ، فاننى خليق بأن أبقيكما متباعدين وأنتما لا تبصران .. اطمئنى إلى ، وامكثى فى الظلام .. أعنى فى سكون . الا تفهمين الآن السبب فى قولى : إن الحظ يحالفنا .. إن

دالمين قادم ليعرف رأيى فى الموضوع وستسمعانه معا ، فيكون ذلك مدعاة لتوفير وقتى ، كما أنه سيبصرك بكيفية تلقيه الرد. فالبثى الآن دون حراك . واعدك بأنه لن يجلس فى حجرك .. ولكن إذا صدرت منك أقل حركة ، فسأدعى انك ارنب برى او سنجاب ، والقى عليك قطعا من اقماع الصنوبر » .

ثم نهض الطبيب ، وسار متريثا نحو المنحنى الأخير فى الطريق . بينما جلست جين فى ظلامها . وما لبثت أن سمعت ديكى يقول : « هالو دالمين ! لقد اهتديت إلى هنا .. انها بقعة رائعة .. هل نستغنى عن سمسون ؟.. هلم تأبط ذراعى ! » . فأجابه جارث : « نعم .. قيل لى بأنك هنا يا براند ، فتبعتك » . ثم سارا معا حول المنحنى ، وبلغا البقعة العارية .

***

وتساءل جارث ، وقد وقف دون حراك : « أأنت بمفردك هنا ؟.. خيل لى إننى كنت أسمع أصواتا » . فأجابه الطبيب : « هذا حقيقى ، فقد كنت أتحدث مع شابة » . وعاد يسأله : « اى نوع من الشابات هى ؟ » . فأجابه الطبيب : « فتاة مليئة بالصحة والنشاط ، ذات مزاج حاد ! » . ومن جديد ، تساءل جارث : « وهل عرفت اسمها ؟ » . فأجاب الطبيب فى غير اكتراث : « جين » . ولكن جارث أسرع قائلا: « ليست جين بل « جان » .. لقد عرفتها ، فهى الابنة الكبرى

للبستانى ، وهى تحمل على منكبيها مسئوليات الاسرة ... مسكينة تلك الفتاة ! » .

وقال الطبيب : « لقد رايتها مكدودة حقا ، وما كنت أعرف ان تبعات الأسرة هى السبب . لنجلس على هذا الجذع . هل تستطيع أن تذكر المنظر الذى نشرف عليه من هنا ؟ » .. فأجابه جارث : « أجل ، فانى أعرفه تمام المعرفة .. ولكن الذى يبعث فى قلبى الجزع ، هو أن الصور الذهنية بدات تبهت جميعا ، عدا صورة واحدة .. فتساءل الطبيب : « وهى .... ؟ » . وقال « جارث » ، وهو لا يبصر : «صورة المراة الوحيدة ! » . فهتف الطبيب: « آه يا صديقى العزيز !.. لم انس وعدى لك بأن أوافيك اليوم برايى فى قصتك . لقد قتلتها بحثا وتفكيرا ، ووصلت إلى عدة نتائج . انجلس على جذع هذه الشجرة ؟.. ألا تريد أن تدخن ؟.. ان الحديث يحلو تحت تأثير رائحة التبغ » .

واخرج جارث علبة سجائره فتناول منها واحدة ، اشعلها بكل عناية ، ثم طوح بالثقاب المشتعل ، فسقط فوق اصابع جين .. وقبل أن يسرع الطبيب اليها ، كانت جين قد القت بالثقاب بعيدا وهى تبتسم .. فقال دريك لنفسه : « يالها من أعصاب .. ان تسعا وتسعين بين كل مائة امراة ، ما كن ليحجمن عن ان يصحن : « آه ! » ، ويثرن ضجة .. حقا إنها لجديرة بأن تنتصر ! » .. وفجأة نهض جارث قائلا: «اظن أن الأفضل لنا أن ننتقل إلى جذع الشجرة الأخرى » ..

واكمل : « لأنها أكثر تعرضا لأشعة الشمس » .. ثم سار ناحية « جين » . ولكن الطبيب قفز أمامه ، فأمسك بيد جين باحدى يديه وجذبها خلفه ، وقاد جارث باليد الثانية إلى حيث كانت جين جالسة .. ثم قاد جين إلى الشجرة الأخرى .. فعل كل ذلك ، وهو يقول لجارث : « ما أدق تقديرك للمسافات ! » .. ثم جلس بجواره وأردف وأنفاسه متهدجة : « والآن لنعد إلى حديثنا ! » .

وهنا سأله جارث : « أواثق أنت من أننا منفردان .. ان إحساسا يخالجنى بوجود شخص آخر سوانا » . فأجابه الطبيب : « يا صديقى العزيز ، هل بوسع إنسان أن يكون منفردا فى الغابة !.. كم من كائنات دقيقة تحيط بنا !.. وكم من عيون براقة تطل علينا من بين فروع الأشجار ! .. وكم من اذناب ناعمة تتسلل من الجحور وإليها .. وكم من أشياء غير منظورة تتحرك بين الأوراق الذاوية تحت اقدامنا .. فاذا اردت الوحدة الكاملة ، فتجنب الغابات ! » . فأجابه جارث : « نعم ، أعلم بوجودها ، وأولع بالانصات إليها .. وإنما كنت أرمى إلى كائن آدمى .. يابراند ، كثيرا ما يساورنى شعور بوجود كائن بشرى غير منظور قريبا منى . أتتصور أننى اكاد أقسم بأنها ـ « المراة الوحيدة » ـ قد جاءتنى فى سكون ـ منذ ايام ـ وتأملتنى فى عماى ، واشفقت على ، بقدر ما وسع قلبها الكبير من حنان . ثم رحلت فى صمت!» . فسأله الطبيب : « متى كان ذلك ؟ » .

ـ منذ بضعة أيام .. كان الدكتور روب يروى لنا كيف التقى



بها فى .. آه ، ليس لى أن أذكر المكان . ثم تركنى هو والآنسة جراى وحيدا .. وفى ظلام وحدتى ، والسكون شامل ، شعرت بعينيها تحدقان فى ...

فاجابه الطبيب : « يا بنى العزيز .. يجب الا تشجع مثل هذه العادة البغيضة المتعلقة بأطياف غير منظورة ، وتذكر ان الذين يهتمون بأمرنا اهتماما عميقا صادقا ، يستطيعون أن يشعرونا دائما بقربهم منا عقليا ، ولو كانوا على بعد شاسع . لا سيما إذا علموا اننا فى ضيق وفى حاجة إليهم .. فلا يدهشك أن تشعر ــ فى كثير من الأحيان ــ بقرب « المراة الوحيدة » .. إذ أنى أعتقد ــ و لا أقول ذلك جزافا يادالمين ــ بأن كل قلبها وحبها وحياتها لك أنت ! » .

فهتف جارث : « يا الهى ! » وهب واقفا وهو ينتفض ، ثم مشى على غير هدى ، فأمسك الطبيب بذراعه .. ولو أنه توانى دقيقة ، لكان جارث قد تعثر فى قدم « جين » . وقال له : « اجلس يا رجل وأصغ لما أقول .. لن تفيد شيئا من اندفاعك الفجائى فى الظلام على هذا النحو .. وسأبرهن لك على صحة ما أقول ، على أن تعيرنى انتباهك فى هدوء . فأنصت إلى : إننا نواجه فى هذه الحال معضلة نفسية .. معضلة من المحتمل جدا أنها لم تحدث لك أنت !.. أريد منك أن تتخيل أمامك ــ للحظة واحدة ــ « الرجل الأوحد » و « المراة الوحيدة » ، وقد واجه كل منهما الآخر فى جنة عدن أو فى ضياء القمر .. حيثما كان ، وفقا لما يروق لك .. فهل تستطيع ؟..

إن الأثر الذى يسيطر على الرجل حين يسقط فى حبائل الحب ، هو أن يخلق فيه فقدانا كاملا لشعوره بنفسه .. بينما يكون الاثر الذى يسيطر على المراة ــ من ناحيتها ــ إذا أحبها شخص وأرادها لنفسه ، فاستجابت لنداء الحب ولتلك الرغبة ، هو أن تشعر شعورا كاملا بنفسها .. فالرجل يفكر فيها وحدها ، وهو يتوق إلى الظفر بها والاستحواذ عليها .. اما هى ــ التى دعيت لكى تستسلم وتمنح نفسها ــ فان عقلها يتركز بكليته على نفسها .. اتلبى نداءه وتقابل رغبته ؟.. أهى كما يظنها تماما ؟.. هل فى مقدورها أن ترضيه إرضاء كاملا ، ليس فى بداية حياتهما فقط ، بل على طول السنين المقبلة ؟.. وبقدر ما تكون قد عاشت عادية ، غير حافلة بنفسها ، تكون قسوة صدمة المفاجاة عليها ، وتكون وطأة الشعور والاهتمام بذاتها !

***

والتفت الطبيب ناحية « جين » ، وهى جالسة على الشجرة الأخرى ، على بعد ست أقدام منهما . وإذا بها ترفع يديها المعقودتين ملوحة له ، وقد أضاء وجهها نور الارتياح والامتنان . فشعر الطبيب بانه قد لمس الوتر الحساس . أما الوجه الاعمى الجالس بجواره ، فقد كسته سحابة قاتمة ، أخذت تزداد قتاما كلما استرسل الطبيب فى حديثه ، وهو يقول : « لقد فهمت منك يا صديقى العزيز ، أنها لم تكن من النوع البارع الجمال الذى عرف عنك أنك كنت تعجب به . أما يكون أقرب للعقل أنها أوجست خيفة من أن مظهرها قد يفشل ــ بعد حين ــ فى إرضائك ؟ » .. فأجاب جارث بصوت جازم : « كلا

.. ان مثل هذا الرأى لا يستحق شيئا .. وفوق ذلك ، فلو أن الفكرة ساورتها ـ على أى احتمال ـ لما كان عليها إلا أن تسألنى عن تلك النقطة . وكان قرارى خليقا بأن يكون قاطعا ، وجوابى كفيلا بأن يطمئنها اكمل اطمئنان ! » .

وردد الطبيب الحكمة المشهورة : « الحب أعمى ! » . فصاح فيه جارث : « كذب وهراء ! .. إن الحب بعيد النظر ، حتى انه ليرى ما تحت المظهر ، وينتشى بآيات الجمال التى لا تراها عيون غيره ! » .

وسأله الطبيب : « إذن ، فأنت لا تقبل نظريتى ؟ » . فكان جواب جارث : « لا أقبلها كتفسير لمعضلتى .. لأننى أعرف جيدا بأن عظمة نفسها كانت تسمو بها فوق مثل هذه الاعتبارات . ولكنى أقر رأيك بشأن النسيان التام للشعور بالذات لدى الرجل المحب ، وإلا فكيف كنا نقوى ونجرؤ على التقدم للمرأة بطلب الزواج منها ؟ أواه ، يا براند ! .. كلما فكر الإنسان فيما وراء ذلك من اقتحام لحياة المرأة الخاصة ، والتماس الحق فى اللمس .. حتى لمس يدها يجب أن يكون بقبولها ورضاها .. كل هذا لا يمكن الإقدام عليه . ما لم يكن الهيام بها ، والتفكير فيها قد جرفا امامهما كل تفكير فى النفس ! .. إننى إذ أرتد بفكرى إلى ذلك الوقت ، اذكر كيف نسيت نفسى تماما ! .. وعندما قالت لى فى الكنيسة : « ما عمرك ؟ » .. آه لقد سهى على ان احدثك عن هذا بالأمس .. إن هياج الشعور ـ الذى احدثه تحويل الأضواء

على نفسى ، فى تلك اللحظة ـ كان قاسيا ، حتى لقد لاح أن فرحى قد انكمش ومات جزعا من عدم جدارتى بها ! » .

وساد الغابة صمت شامل . وأحس الطبيب بأنه يلعب جولة خاسرة ، فاستحيى أن ينظر إلى الجهة الأخرى ، حيث كانت المرأة تجلس صامتة ، واخيرا تكلم قائلا : « هناك حلان محتملان لمشكلتك يادالمين ، هل تعتقد بأن « حواء » ـ فى هذه الحال ـ كانت تتراجع فى خفر العذارى ، متوقعة من « آدم » أن يلاحقها ؟ » . فأجابه جارث بلهجة التأكيد : « آه ، كلا .. كنا قد تجاوزنا كل هذا ، وما كنت لتبدى مثل هذا الرأى لو أنك عرفتها شخصيا .. إنها صادقة ، صريحة إلى أقصى حد ، فما كانت لتخدعنى .. ومع هذا ، فلو أن الأمر كان كذلك ، لكانت خليقة بأن تكتب لى عما كانت تقصد حقا ، بعد أن مرت كل هذه السنوات فى وحدة ، وبعد أن تبينت أننى لم أبد أية إشارة ! » .

وسأله الطبيب : « وهل كنت تعود إليها لو حدث هذا ؟ » . فأجابه جارث فى بطء : « أجل .. كنت أعود ، وكنت أصفح عنها ، لأنها لى .. ولكن ما كان للأمر ـ فى هذه الحال ـ أن يحتفظ بجدة الحال الأولى وروعتها .. إذ أن فيه ما يتنافى مع ما تحلينا به معا ! » .

فاستأنف الطبيب حديثه قائلا : « حسنا ، بقى أمامى الآن الحل الثانى .. فلقد اعترفت لى بأن « المرأة الوحيدة » لم تبلغ

تماما مستوى الجمال ، فى حين كان حبك وشغفك بالجمال معروفا .. أفلا تعتقد أن شجاعتها قد خانتها ، خلال الساعات الطويلة التى مرت بها فى تلك الليلة — واستعرض فى ذاكرتك ما قلت لى من أنها بوغتت حين انهالت عليها منك مفاجأة الرغبة والحب والعبادة — وأن الرعب ملأ قلبها ، خشية أن تعجز عن إيفائك حقك، وعن إشباع حاجتك، من حيث الوجه والملامح التى ستبقى أمامك دواما على المائدة .. وعلى الرغم من حبها العارم وحبك ، فقد دار بخلدها أن الحكمة تقتضى تجنب خيبة الأمل مستقبلا ، بأن ترفض السعادة الحاضرة المؤقتة .. قد يكون حبها العارم لك هو الذى سلحها لتقدم على هذا القرار ! » .

وعند ذلك أومأت الصامتة الجالسة امامهما، وظلت صامتة جامدة وقد عقدت يديها فى صبر وانتظار . فقد تولى دريك الدفاع عن قضيتها خيرا مما لو تولت هى الدفاع عنها .. وساد الصمت الغابة ، وكأن الطبيعة بأكملها قد سكنت منصتة للجواب ، وأخيرا سمعت كلمة « لا » تصدر من جارث فى صوت فتى لا يشوبه تردد .. ثم أردف قائلا : « كان لزاما عليها — فى هذه الحال — ان تكاشفنى بمخاوفها ، فكنت أطمئنها فورا .. فهذا الاستنتاج كذلك لا يليق بمحبوبتى ! » .

وهنا تنهدت الرياح خلال الأشجار ، ومرت سحابة أمام الشمس ، فارتجف الاثنان الجالسان بغير ابصار ، وظلا صامتين . ثم قال الطبيب بصوت عميق الحنان : « يا بنى

العزيز ، اننى اتمسك ولا اتزحزح عن اعتقادى بانك « الرجل الاوحد » لتلك « المرأة الوحيدة » ، وأن مكانها الشرعى — فى حالة فقدان بصرك — هو بجانبك .. ولعلها الآن تتحرق لهفة إلى أن تكون هنا . فهل تخبرنى باسمها ، وتأذن لى بأن أبحث عنها ، وأسمع من فمها تفصيل قصتها .. حتى إذا كانت كما اعتقد ، جئت بها إليك لتبرهن لك — وأنت فى محنتك الحالية — على مبلغ حبها وحنانها ؟ » .. فقال جارث : « أبدا ، أبدا .. ما بقيت فى أنفاس تتردد !.. الا ترى أننى — حين كنت ببصرى وشهرتى وبكل ما يشتهى القلب — لم اتمكن من اكتساب حبها . فأى شعور — سوى الاشفاق — يساورها نحوى الآن ، فى محنتى ، وانا عاجز فاقد البصر ؟.. والاشفاق منها امر لا يمكن ان اقبله إطلاقا .. وإذا كنت « مجرد غلام » — منذ ثلاث سنوات — فأنا الآن « مجرد رجل أعمى » .. موضع شفقة وعطف .. ولو أنك كنت محقا فيما قلت ، من انها لم تطمئن إلى حبى ووفائى ، فقد خرج الآن عن طاقتى — إلى الأبد — أن أثبت خطأها ، وأبرهن على إخلاصى . ولكننى لن اسمح بأن تلوث طيف محبوبتى هذه الاقتراحات .. لقد كانت تحتاج — لاستكمال كمالها — إلى اكثر مما كنت قادرا على أن اتيح لها .. لقد رفضتنى لأننى لم أستكمل كفاءتى لها .. وإنى لأوثر ان يبقى الأمر على هذا الوضع . فلنتركه هكذا ! » .

فقال الطبيب بكل حزن : « ان هذا يتركك مع الوحدة » .. فأجابه جارث بصوته الفتى : « اننى افضل الوحدة على ان

أفقد لذة الخيال .. أنصت ، اننى أسمع طرقات التنبيه إلى موعد الأكل .. فسوف تحزن مارجرى إذا تركنا أطباق يوم الأحد حتى يبرد ! » .

ثم هب واقفا واتجه بوجهه الاعمى نحو المنظر الطبيعى . وقال : « آه ، لكم اعرف هذا المنظر، فعندما أجلس هنا مع الآنسة جراى ، تصف لى هي كل ما تراه ، اذكر لها أنا ما لم تلاحظه ولكنى اعرف انه موجود .. انها مشغوفة بالفن ، وبمعظم الأشياء التى أحفل بها . لا بد لى من أن أسألك أن تعيرنى ذراعك يا براند .. فمع أن الدرب واسع ، مأمون ، إلا اننى لا أستطيع ان اعرض نفسى للتعثر ، وقد وعدت الآنسة جراى بذلك . لقد تعثرت بواحد أو اثنين من النباتات الزاحفة .. ولكن الطريق متسع، يمكننا أن نسير اثنين أو ثلاثة فى صف واحد ، إذا اقتضت الضرورة ذلك .. لقد كان جميلا أن تم تمهيد هذا الدرب المتسع ، فقد كان فى الماضى منحدرا ، وعرا ! » .

وعقب الطبيب : « نعم ، بوسع ثلاثة أشخاص أن يسيروا صفا واحدا ، إذا أردنا ذلك ! » .. ثم عاد أدراجه فأنهض « جين » من مكانها ، وسحب يدها الباردة حول ذراعه اليسرى ، ثم اتجه إلى جارث ، وقال له : « والآن يا صديقى العزيز ، هاك ذراعى اليمنى حتى تتمكن من أن تعتمد بيدك اليمنى على عصاك ! » .

وعلى هذا النحو سار ثلاثتهم هابطين خلال الغابة فى صباح يوم الأحد ، وكان يوما بديعا من أيام مبكرة من الصيف .. وسار الطبيب منتصب القامة بين الشابين الجريحى القلبين . وقد جمع بينهما ، فى الوقت الذى كان يفصل فيه بينهما ! .. مرة واحدة توقف فيها « جارث » عن السير ، وأنصت قليلا ، ثم قال : « يخيل إلى أننى أسمع خطوات شخص ثالث ، إلى جانب خطواتك وخطواتى » .. فأجابه الطبيب قائلا : « أن الغابة ملأى بأصوات الخطوات .. كما أن القلب ملىء بالأصداء .. فاذا توقفت عن السير وأصغيت ، فستسمع ما تشاء من كل منهما ! » . فقال له جارث : « إذن ، فلنمض فى السير دون توقف . فقد اعتادت مارجرى أن تضربنى ، حيث كنت أتأخر عن موعد الطعام ، فى الأيام الغابرة ! » .

١



الفصل السادس والعشرون

« لسوف يكون من المستحيل على إطلاقا ـ يا آنسة جراى ـ أن اعبر لك يوما عما احس به أزاء ما تكبدت من أجلى ! » .

وكان جارث يقف فى نافذة المكتبة المفتوحة ، وقد نفذت اشعة شمس الصباح إلى داخل الحجرة .. وكان الهواء معطرا بعبير الزهور ، يتردد فيه تغريد العصافير . وقد تجلت عليه فى وقفته تلك ـ تحت ضياء الشمس ـ لمحة جديدة من القوة والأمل المزدهر ، شملت كل خط فى قوامه المشوق .. ومد يديه نحو الممرضة « روزمارى » ، فى شوق وشغف ، ولكن .. عن رغبة دافقة فى التعبير عن التقدير والشكر ، اكثر مما هو عن رجاء فى ان تلتقى يداه بيدين تستجيبان له . وقال :
« وها أنذا اتصور انك قضيت عطلة الأسبوع فى مرح ، واسائل نفسى : أين ؟ .. ومن تراهم أصدقاؤك المقيمون على مقربة من هنا .. فى حين انك كنت ـ طيلة الوقت ـ جالسة معصوبة العينين ، فى الحجرة التى تعلو حجرتى .. آه ، إنها لطيبة تعجز الكلمات عن وصفها !.. ولكن خبرينى : ألم تشعرى وانت تفعلين ذلك ، بانك تقدمين على شىء من المخادعة يا آنسة جراى ؟ » .

وكانت جين المسكينة قد شعرت بذلك طيلة الوقت ، ومن ثم أجابت فورا : « أجل . ومع ذلك فاننى أخبرتك بأننى لن

أذهب بعيدا عن هنا .. أما أصدقائى الذين يقيمون فى الجيرة فهما سمسون ومارجرى اللذان اشتركا معى وعاونانى . ولقد كنت صادقة إذ قلت إننى راحلة .. اما كنت راحلة حقا إلى الظلام .. وهو عالم يختلف تمام الاختلاف عن عالم النور ؟ » .
فصاح جارث : « ما أصدق ما تقولين ! .. وما أشق أن تجعلى الناس يدركون ما فى ذلك من وحدة ووحشة !.. وكم يلوحون وكأنهم قد وصلوا فجاة على مقربة من المرء ، قادمين من عالم آخر ، أو هابطين من أحد الكواكب النائية ، يحملون صوتا يفيض عطفا ، وروحا ودية .. ثم يرحلون بعد ذلك إلى عالم آخر ، مخلفين المرء فى عزلة عظيمة ، فى أرض لا ابصار فيها !»

واقرت الممرضة « روزمارى » أقواله ، وأضافت : « أجل .. ويكاد يتملكك الفزع مما هو آت ، لأن الرحيل يجعل الظلام اشد حلكه .. والوحدة اشد وحشة ! » . فهتف : « إذن فقد اجتزت هذه التجربة ؟ .. اتعلمين اننى ـ بعد قضائك عطلة الأسبوع فى « الأرض التى لا ابصار فيها » ـ لن أعود أشعر بأنها مكان موحش ، وسأردد فى كل مرة : « أن شخصا عزيزا مخلصا كان يقيم هنا ! .. ؟ » . وضحك فى ابتهاج الصبى الصغير ، حتىأن كل ما فى حب «جين» من امومة هب وراح يطالبها بأن تقدم على مجهودها الأعظم .. الأوحد .
وأخذت تتأمل القوام النحيل فى ثيابه البيضاء ، وهو متكىء على حافة النافذة فى رجولة ، وهو ما يزال محتفظا بجماله ، وإن صار عاجزا ، فى اشد الحاجة إلى ما كان فى وسعها أن تمنحه من حنان وافر . ثم ولت وجهها نحوه ، وفتحت ذراعيها ؛

وكأنما أوتى هذا المكان الذى أعدته لراحته ــ والــذى كان قريبا منه ــ قوة مغناطيسية كفيلة بأن تجذبه إليها ..

وظلت هكذا واقفة فى الشمس الساطعة ، تسائل نفسها : اهى جميلة ؟.. وهل فيها من المحاسن ما يستحق التصوير ؟ .. وهل يسأم اى رجل من وجه كهـذا يتطلع إليـه ، ومن ذراعين كذراعيها المبسوطتين ؟.. والهفتاه ! لقـد ضاعت الفرصة ، ولن يقدر لعاشق ان يصدر حكما !.. لقـد كانت هذه النظرة من حق رجل واحد ، وهو وحده الذى يقوى على اجتلابها إلى وجهها العاشق . وقد أصبح لا يملك أن يتحدث عن جمالها بصوت الولهان القانع .. لم يعد يملك أن يحـكم على جمالها ، لأنه لا يرى .. لأنه اعمى !

وقالت أخيرا : « هناك كثير من التفصيلات الصغيرة . يا سيد دالمين، ولكنى اريد ــ قبل أن نتحدث عنها ــ ان اخبرك بأعظم درس تلقيته فى الأرض التى لا ابصار فيها » . ثم فطنت إلى أن انفعالها العاطفى بدأ يبعث فى صوتها رنينا عميقا قـد يبعث فى نفسه ذكرى حية لأنغام « المسبحة » ، فأمسكت عن الكلام . ثم استأنفته فى طبقة ثانية من صوتها ، طبقــة عالية رخيمة ، هى الطبقة الأخيرة من صوتها ، وقد خصت بها نفسها الثانية بوصفها المرضة روزمارى : « يبدو لى ــ يا سـيد دالمين ــ أننى قد تعلمت ان أفهم كيف أن الوحدة التى تفوق الوصف بالنسبة للشخص الواحد ، يمكن أن تتحول إلى نعيم من أروع نوع ، بالنسبة لشخصين . وتبينت أن هناك ظروفا قد يصبح الظلام فيها أبدع مكان لملتقى الأرواح » فلو أننى

احببت رجلا فقد بصره ، لأسعدنى أن يبقى لى بصرى ليكون عينين له عند الحاجة إلى عينين .. تماما كما لو أننى كنت ثرية وهو فقير ، فاننى ما كنت أرى لثروتى قيمة إلا فى انها قد تكون ذات نفع له !.. ولكننى اعلم بأن نور النهـار كان خليقا بأن يكون فترة ضيق لى ، لانه من الأشياء التى لا يمكنه أن يشاطرنى إياها .. فاذا جن الليل ، فاننى كنت خليقـة بأن أتوق إلى أن أقول : « لنطفىء الأنوار ، ولنحجب ضوء القمر ، ولنجلس معا فى الظلمة اللطيفــة الناعمة ، التى هى أقوى على أن تربط بيننا من النور ! » .

وبينما كانت جين تتكلم ، امتقع وجه جارث وهو ينصـت إليها ، واختلجت عضلات وجهه .. وفجأة تضرج وجهه بحمرة صبيانية بلغت منبت شعره ، وأجفل من الصوت الذى تدفق بهذه العبارات إلى أذنيه .. ثم تحسس بيده اليمنى الخيط البرتقالى الذى يقوده إلى مقعده ، وبعد أن جلس ، قال لجين التى لم تكد تسمع صوته ، حتى ردت ذراعيها إلى جانبيهـا واتجهت نحوه : « أيتها المرضة روزمارى .. لطيف منك ان تحدثينى عن كل هذه الأفكار الجميلة التى ساورتك فى الظلام . ولكنى آمل أن يكون السعيد الذى يحظى بحبك ، أو الــذى سيسعده الحظ بأن يحظى به ، فى وقاء من تعاسة فقـدان البصر . لخير له أن يقيم معك فى النور ، من أن يكون حجة تبرر الطريقة الكريمة التى تودين بها أن تؤهلى نفسك للحياة فى ظلامه .. والآن ، ما رأيك فى أن نفض الرسائل ؟ » .. وتحسس بيده الخيط البرتقالى ، وسار إلى مقعده . وإذ ذاك ،

ادركت جين ـ بجزع واستياء بالغين ـ مدى ما اقترفت !. ذلك انها كانت قد نسيت المرضة « روزمارى » تماما ، فلم تستخدمها إلا كوسيلة لتبعث فى جارث أدراكا لمدى ما كان لدبها هى ـ حب جين ـ من قيمة بالنسبة لعماه .. كانت قد نسيت تماما أن المرضة « روزمارى » هى الشخصية الوحيدة التى عناها بهذا الحديث مع « جارث » ، فهى التى قدمت له دليلا دامغا على اهتمامها ووفائها .. و .. يا للعزيز المسكين « جارث » !.. ويا لجرأة المرضة « روزمارى » وقحتها !.. فلا بد أنه قد استشف من حديثها أنها كانت تطارحه الحب !. وأحست جين بأنها محصورة بين البحر والنار ، فلم تجد بدا من أن تغامر ـ بما طبعت عليه من قوة الشخصية ـ وتغوص إلى الأعماق !

* * *

وسعت إلى مقعدها ، فى الجانب الآخر من المنضدة ، فارتمت عليه وهى تقول لنفسها : « أعتقد أن التفكير فيه هو الذى جعلنى اتبين ذلك ، على أننا ـ أنا ورجلى الشاب ـ قد هوينا معا ، فى الوقت الحاضر .. فهو لا يعلم بوجودى هنا !» . اما جارث ، فقد اعتدل لفوره .. ومرة أخرى ، ثم تضرج وجهه عن خجله مما تصوره . فقال متعجلا : «يا آنسة جراى ، ارجو الا تحملى أقوالى على محمل الوقاحة أو التطفل .. ولكن هل تعرفين أننى كثيرا ما كنت اسائل نفسى عن وجود رجل سعيد .. الرجل الذى تحدثت عنه ! » . فضحكت المرضة روزمارى ، وقالت : « ليس بوسعنا ـ فى الوقت

الحاضر ـ أن ندعوه رجلا سعيدا ، على الأقل فيما يختص بالنسبة لأفكاره بصددى . ولكن قلبى بأسره ملك يديه ، لو حاول ـ من ناحيته ـ أن يصدق ذلك . غير أن شيئا من سوء التفاهم دب بيننا ، وكان الذنب ذنبى وحدى .. وهو يابى اى إصلاح ! » . فصاح جارث : « يا له من سخيف .. هل أنتما خطيبان ؟ » . فترددت المرضة روزمارى ، ثم قالت : « لا يمكن أن ندعو ما بيننا خطبة بمعنى الكلمة ، ولو أنها بلغت ذلك الحد ، إذ أن كلا منا لا يفكر فى أى شخص عدا صاحبه ! » .

وكان جارث يعلم أن ثمة فريقا من الناس يتخذون من « الزمالة » و « التلازم » خطوة تمهيدية للزواج . وهى مرحلة تعلو على تلك التى درجت عليها الخادمات من «خروج للنزهة» مع أصحابهن .. وإن كان التعبيران يدلان على ظروف واحدة . فبينما تعمد « فيليس » ـ الخادم الجميلة ـ إلى الخروج مع فتاها القروى ، ليسيرا فى الدروب المهجورة ، وبجوار الأسوار العالية ، أو على الأرصفة وفى الحدائق .. ترى أن الفتى والفتاة فى الطبقة الأخرى ، يقضيان الوقت معا فى قاعات الاستقبال وفى الخمائل ، فى دور أصدقائهم وأقربائهم .. ومع ذلك فان جارث ـ لسبب لم يكن يعلمه ـ لم يفكر مرة فى أن المرضة « روزمارى » قد تكون من طبقة غير طبقته . فلعل فتاها الحمار السخيف ـ الذى استشعر نحوه بمقت عميق ـ قد انحدر من طبقة دون طبقتها ، أو لعل لائحة نقابة مهنتها تحول دون إتمام خطبة نهائية ، وإن [illegible] بـ«التفاهم» .

ومهما تكن الحال ، فان الواقع الماثل أمامه هو ان هذه السيدة الصغيره ، اللطيفة ، الماهرة ، ذات القلب الرحيم ـ التي بذلت الكثير في خدمته ـ لها صاحب « رجل شاب » . وادى الاعتراف بهذا الواقع إلى تخلص عقل « جارث » من عبء ثقيل . فقد خشى ـ في المدة الأخيرة ـ الا يكون أمينا بالنسبة إليها وإلى نفسه . إذ أصبحت ضرورية له ، بل لازمة لزوما جوهريا ، واستطاعت ببراعتها وتفانيها ان تكسب مكانة وطيدة في عرفانه بالصنيع .. وكانت علاقتهما تتسم بألفة عظيمة ، وزمالتهما وثيقة مستمرة .

ولقد اخترق الدكتور روب ـ من عهد قريب ـ هذه الرابطة بخطى ثقيلة باقتراح أبداه .. وكان « جارث » قد اختلى به ، وعكف على الافضاء له بمكنون قلبه ، مبينا كيف أن الممرضة « روزماري .» قد أصبحت عنصرا لا غنى عنه لسعادته وراحته ، معربا عن جزعه كلما فكر في انها قد تستدعى يوما بأمر من رئيسها . وقد قال له جارث : « اخشى الا يسمح نظامهن لأية ممرضة بأن تستمر إلى أجل غير مسمى مع مريض واحد . ولكن ، لعل السير دريك يستطيع اقناعهم باستثناء هذه الحالة ! » . فكان رد الدكتور روب : « فلتذهب رئيستها إلى الجحيم ، ودعك من سير دريك .. إذا أردت بقاءها دائما ، فثق من قبولها .. تزوجها يا بني وأنا أضمن انها سترحب بذلك » .. وهكذا داس الدكتور روب ، بحذاء دعم نعله بالمسامير ،على أصابع قدمى الموقف العاريتين!

ولقد حاول جارث أن ينتزع هذا الاقتراح من مخيلته ، ولكنه اخفق .. وبدا يلمس من الممرضه روزماري افكارا ومشروعات لصالحه ، تجاوز نطاق الواجبات التي تفرضها مهنتها بكثير ، وكانما كانت ثمة حوافز من اهتمام عاطفي . وراح يقصي الفكره عن رأسه مرارا .. ناعتا الدكتور روب بالسخف ، وناعتا نفسه بانه حمار مغرور .. ومع ذلك فقد ظل يعاوده ـ تكرارا في حضور الممرضة روزماري ـ جو سحرى من الرعايه المنبعثه عن الحب !.. ثم تعرض ذات ليلة لإغراء شديد ، فناضله !.. لقد ساءل نفسه : لماذا لا يعمل بنصيحة الدكتور روب ؟ لم لا يتزوج هذه الممرضة الساحرة ، القديرة ، الوفيه ، حتى تبقى دائما بجواره في عماه ؟.. انها لم تعتبره «مجرد غلام» .. وماذا يستطيع أن يقدم إليها ؟.. قصرا جميلا ، وكل أسباب الرفاهية ، وثروة طائلة ، وزمالة بدا أنها مرتاحة إليها .. ولكن « الاغواء » نفذ إلى أعماقه عند هذا الحد ، إذ همس لنفسه : « وسيبقى صوتها هو صوت جين دائما .. انك لم تر قط وجه الممرضة ، ولن تراها ، وبوسعك ان تنسب الصوت إلى الوجه والقوام اللذين تعبدهما .. تستطيع أن تتزوج الممرضة الصغيرة ، وأن تظل على حبك لجين ! » .. وعند ذلك صرخ « جارث » في هلع قائلا : « أبعد عني يا شيطان » . وربح بذلك المعركة ضد الاغواء ! » .

* * *

غير أن عقله ظل مضطربا ، خشية أن يكون ـ لسبب من الأسباب ـ قد أزعج طمأنينة قلبها .. ومن ثم ارتاح باله ..



ومع ذلك فقد استشعر غيرة لاذعة ــ لا مبرر لها ــ عندما ورد ذكر الشاب الذى كانت مشغوفة به .. وما أشبه ما لاح عليها من شقاء بسبب فتاها ، بما كان هو فيه من شقاء .. بسبب جين ! ..

وتولاه حافز مفاجىء بأن يتخلص نهائيا من هذه الفكرة التى أصبحت ــ فى المدة الأخيرة ــ تقوم فى ذهنه كحائل بينهما .. وبأن يؤسس علاقتهما الودية على أساس أقوى وأوثق مما هى عليه الآن ، وذلك بأن يكون صريحا معها ــ صراحة تامة ــ فى هذا الصدد . لذلك لم يلبث أن قال لها ، وقد انحنى نحوها ، وعلى وجهه تلك الابتسامة المرحة ذات الطابع الصبيانى ، التى لم تقو كثير من النساء على مقاومتها. وقال لها : « يا آنسة جراى .. حسن منك أن تحدثينى عن نفسك . ومع أننى أعترف بأننى شعرت بغيرة ــ لامبرر لها ــ نحو ذلك الفتى السعيد الذى تملك قلبك ، إلا أننى مسرور لوجوده ، لأننا جميعا نظل نحس بنقص ما ، حتى تدخل حياتنا التجربة العجيبة .. أعنى « المرأة الوحيدة » ، أو « الرجل الأوحد ». وإنى لأود أن أخبرك بأمر يمسنى وإياك يا صديقتى العزيزة اللطيفة ولكنى لن أفعل ، حتى تضمى يدك فى يدى . لاتبينك فى مزيد من الألفة .. إنك ــ وقد زرت « الأرض التى لا أبصار فيها » ــ تقدرين تماما قيمة تماسك اليدين هنا ! » .

ومد جارث يده فوق المنضدة ، وقد توترت حركاته كلها ، فى انتظار ما هو آت .. فأجابته المرضة روزمارى وصوتها

يرتعش قليلا : « ليس بوسعى أن أفعل ذلك يا سيد دالمين ، فقد أصيبت يداى بحروق .. آه ، ليست خطيرة .. لا تبد مهموما إلى هذا الحد ، فان الأمر لم يعد لهيب ثقاب .. نعم حين كنت عمياء .. والآن ، خبرنى بالشىء الذى يمسك ويمسنى ! » .. فاسترد جارث يده وعقدها مع الأخرى على ركبتيه ، ثم استلقى فى مقعده ، ورفع وجهه إلى أعلى ، فإذا عليه أمارات الطهر والنقاء ، المتولدة عن ابتهاج روح سمت فوق تجارب الطبيعة الأرضية ، فاغرورقت عينا « جين » بالدموع وهى تتأمله ، إذ تحققت لحبه إياها من قيمة لديه ضاعفتها رياضة النفس على احتمال العذاب !

وبدأ حديثه فى خفوت موليا وجهه عنها : « خبرينى ، أهو .. ذو قيمة كبيرة لديك ؟ » . ولم تقو عينا « جين » على مفارقة الوجه الحبيب ، والجسم الذى اضطجع فى المقعد . واهتزت عواطف جين فى صوت المرضة روزمارى ، وهى تجيب : « أنه كل شىء لى فى العالم ! » . فسألها : « وهل يحبك قدر ما تستحقين من حب ؟ » . فانحنت « جين » والصقت شفتيها بالمنضدة ، حيث كانت يده المبسوطة إليها قد استقرت وأجابت المرضة روزمارى بأسى « كلا ، واأسفاه ! .. أخشى أن أكون قد فقدت حبه ، بفضل عدم اطمئنانى إليه ، وبسبب ذنبى نحوه ! » .

وهنا قال جارث : « أبدا ! .. إن الحب لا يمكن أن يتلاشى »

.. وقد يظهر ـ فى فترات ـ كأنه قد مات ودفن ، ولكن صباح القيامة لن يلبث أن يبزغ ، وإذ ذاك .. ينهض الحب من رقدته !.. إن الحب الجريح الحزين مثل عصفور مبتل الجناحين ، فهو لا يستطيع أن يطير ، ولا يستطيع أن يرتفع ، وإنما هو يحجل على الأرض ، مشقشقا فى قلق !.. ولكن كل هزة من جناحيه تسقط عنهما مزيدا من القطرات ، وكل لحظة يقضيها تحت أشعة الشمس تجفف ريشه الدقيق . وسرعان ما يحلق طائرا إلى قمة الشجرة ، وهو افضل حالا من ذى قبل بفضل الماء الذى غسله ، والذى بدا أنه قد حرمه من القدرة على الطيران! » .

فغمغمت المرضة روزمارى : « أواه ، ليت محبوبى يقوى على تجفيف جناحيه !.. ولكنى أخشى أن أكون قد فعلت به ما هو ادهى من ابتلال جناحيه ، لقد قلمت ريشه .. بل اكثر من ذلك ، لقد كسرت جناحيه ! » . فسألها جارث فى ترفق بالغ: « وهل يدرك أنك تشعرين بأنك مذنبة إلى هذا الحد ؟ » . فأجابته المرضة روزمارى : « كلا .. إنه لن يتيح لى فرصة للايضاح ، ولا مجالا لأنبئه كيف يظلم نفسه وإياى ، بالفكرة التى يتشبث بها عن مسلكى نحوه ! » . فهتف « جارث » فى عطف وإشفاق : « يا للفتاة المسكينة ! » ثم أردف : « لقد كانت تجربتى مأساة قاسية ، حتى أننى آسى على أولئك الذين لا تمتد امام حبهم طريق ممهدة ، ولكن اليك نصيحتى يا آنسة جراى ، فاعملى بها : ابعثى اليه باعتراف كامل .. لا تخفى عنه شيئا ، واخبريه تفصيلا بكل ما حدث .. فان أى رجل

صادق الحب ، لا بد أن يصدق إيضاحك ، ويتقبله ، ويحمد الحظ الذى واتاه به . على أننى آمل ألا يندفع إلى هنا كالإعصار ، لينتزعك منى ! » .

* * *

وابتسمت جين خلال الدموع ، ثم قالت المرضة روزمارى : « إذا أرادنى ودعانى ، يا سيد دالمين ، فلن اتردد لحظة فى الاسراع إليه ! » . فقال جارث : « كم أمقت اليوم الذى تأتيننى فيه قائلة : « إننى مضطرة للرحيل » .. هل تعلمين باننى اقول لنفسى ـ فى بعض الأحيان ـ إنك قد بذلت الكثير من اجلى، وانك قد اصبحت ذات مكانة كبيرة فى نفسى.. ولقد فكرت أحيانا ـ وبوسعى أن أكلمك الآن بصراحة ـ بأنه قد تراءى لى أن ثمة طريقة واضحة جدا لمحاولة استبقائك على الدوام .. فأنت جديرة اعظم جدارة بكل ما يملك اى رجل من هبات ، ما يستطيع أن يقوم من وفاء . ولما كنت لا استطيع أن أقدم ـ لشخص بهذه الجدارة ـ ما يقل عن خير ما املك ، فانى أريد أن أخبرك بأننى أبوىء عرش قلبى ـ إلى الأبد ـ وجها واحدا حبيبا . أما الوجوه الأخرى فقد انمحت مع الأيام ، فأصبح من العسير على ـ فى عماى ـ أن أتذكر بجلاء الوجوه الجميلة العديدة التى رسمتها وأعجبت بها .. كلها قد طمست ولم تعد واضحة ، وإن تباينت نسب الانطماس . أما هذا الوجه فانه يزداد وضوحا كلما اشتد الظلام ، والحمد لله . وسيظل معى طيلة عمرى ، كما سأراه فى موتى .. وجه

المراة التى احب !.. لقد قلت عن حبيبك إنه قد « أحبك » ، مترددة فى تأكيد بقاء حبه للآن .. أما انا فلن اقول عن محبوبتي إنها احبت او انها تحب .. وذلك لأنها ما احبتنى قط فى حين ان حبى لها بلغ المبلغ الذى لا أجد عنده فيما أملك « خيرا » آخر – غير الذى منحتها – لأقدمه لامراة اخرى !.. فاذا حملت نفسى – بدوافع غير لائقة ، او رغبات أنانية – على أن أسال امراة اخرى ان تقبلنى زوجا ، فانني بذلك أسيء إلى هذه الأخرى إساءة بالغة ، لأن وجهها الذى لا أراه ، لن يكون ذا قيمة تذكر لدى ، بل سيبقى دائما ذلك الوجه الواحد ، والوحيد ، هو الذى ينير ظلمتى .. أما صوت التى لم أر وجهها ، فسيكون عزيزا فى نطاق ضيق ، لأنه يذكرنى بصوت المـــراة التى أحبهـــا .. يا صديقتى العزيزة ، إذا قدر لك أن تصلى من أجلى ، فاطلبى الا انحط إلى درجة أن أعرض على امراة اخرى القشور ... كما ينبغى أن يوصف الزواج منى ! » .

فقالت له المرضة روزمارى : « ولكن هى .. هى ، تلك التى جعلت الزواج منك مجرد قشور لغيرها .. تلك التى كان بوسعها أن تحظى بأشـــهى الثمار .. الثمار الناضـــجة الممتلئة .. ؟ » . فقال جارث : « إنها رفضته .. لم تكن الثمار فى نظرها ناضجة ولا ممتلئة بدرجة كافية ولم تكن الثمار لائقة بها . أواه يا إلهى ! .. يا فتاتى الصغيرة ! بم تقدرين أن يظهر المرء غير كفء للمراة التى يحبها ؟ » ثم أخفى وجهه فى يديه وأرسل أنينا موجعا .. وساد حجرة المكتبة صمت تام ..

وفجأة ، شرع جارث يتكلم بصوت خافت ، سريع ، دون أن يرفع رأسه : والآن .. الآن أحس وجودها ، كما قلت لبراند .. وما شعرت به أكثر وضوحا مما هو الآن إلا فى مرة واحدة وقد كنت وحيدا .. أواه ، يا آنسة جراى ، لاتتحركى!.. لا تبرحى مكانك ، بل ألقى بنظرة فى الحجرة ، وخبرينى هل ترين شيئا ؟.. انظرى إلى النافذة ! انظرى إلى الباب !.. انحنى وانظرى خلف الستار ، فليس بوسعى أن أصدق أننا وحيدان .. لن أصدق ذلك !.. اننى مخدوع وأنا أعمى ، ومع ذلك .. فأنا غير واهم ، إذ أننى أحس بوجود المراة التى احبها .. أن عينيها مصوبتان إلى ، فى اشتياق وعطف وأسى .. إن حزنها لمصابى عظيم إلى حد أننى أكاد أحس به يحتوينى كما كنت أحلم بأن حبها يحتوينى !.. أواه يا إلهى ! إنها قريبة منى .. ان هذا لفظيع ، لأننى لا أريدها بقربى .. بل أؤثر أن يفصل بيننا ألف ميل .. ومع ذلك فاننى أوقن بأنه لا تفصل بيننا سوى ياردات !.. أهى رؤيا روحانية ، أم أنها حقيقة واقعية ؟.. أم ترانى سأجن ! .. انك لن تكـــذبى على ، يا آنســة جراى .. وما من إغراء ، أو رشوة ، أو حيلة لعينة تقوى على دفعك إلى خداعى فى هذا الصدد . بربك يا آنسة جراى ، انظرى حولكِ وأصـــدقينى القـــول ، هـــل نحن وحيدان ؟.. وإذا لم تكن وحيدين فمن هو الشخص الثالث الذى يوجد بالحجرة ، الآن سواك وسواى ؟ » .



غير أن (جارث) لم يرفع رأسه ، وظلت (جين) صامتة ساكنة ، ووجهها بين ذراعيها .

وكانت جين ـ طيلة الوقت ـ جالسة وذراعاها معقودتان فوق المنضدة ، وعيناها الملهوفتان تحدقان فى راس جارث المنحنى .. فلما أبدى أمنيته بأن تكون على الف ميل بعيدا عنه ، دفنت وجهها فى ثنايا ذراعيها .. فقد كانت قريبة جدا منه بحيث أنه لو مد يده اليمنى لمس حلقات شعرها الكثيرة الناعمة .. غير أن جارث لم يرفع راسه ، وظلت « جين » صامته ساكنة ، ووجهها بين ذراعيها .. ثم ساد حجرة المكتبة سكون عميق لبضع دقائق اعقبت اسئلة جارث ورجاءه ... وما لبثت « جين » أن رفعت راسها ، واجابته الممرضة روزمارى : « ليس فى الحجرة أحد يا سيد دالمين سواك وأنا ! » .

الفصل السابع والعشرون

« إذن فأنت تستطيبين ركوب السيارات ، يا آنسة جراى ؟ » .

وكانا قد خرجا فى السيارة معا للمرة الأولى ، ثم عادا ، فأقبلا يتناولان الشاى معا فى المكتبة ، للمرة الأولى أيضا .. وكانت المرضة روزمارى تسكب الشاى فى قدح مريضها ، للمرة الأولى كذلك .. وكان هذا بعد ظهر يوم الاثنين الذى اعقب الأحداث السابقة مباشرة ، وقد أجدت تجربة آخر الأسبوع امتيازات جديدة كثيرة على الممرضة ، التى قالت مجيبة : « أجل يا سيد دالمين .. لا سيما فى مثل هذا الجو البديع ! » . وإذا به يسالها : « وهل سبق لك التمريض فى بعض الدور التى تملك سيارات ؟ » وترددت الممرضة روزمارى ، ثم قالت : « نعم .. لقد اقمت فى دور كثيرة بها سيارات ، ومنها دار الدكتور براند .. ولقد استقبلنى مرة فى محطة (شيرنج كروس) ، وهو فى سيارته الكهربائية ، من طراز بروجهام » .. فقال جارث : « نعم أعرفها .. انها سيارة أنيقة .. اكان ذلك وأنت فى طريقك إلى مريض ، أو عند عودتك بعد فراغك من تمريض احدى الحالات ؟ » .

وأبتسمت الممرضة ، ثم عضت على شفتيها ، وأجابت فى وجوم : « نعم .. كنت فى طريقى لتمريض حالة .. كنت ذاهبة

إلى داره لاتشاور معه بشأنها ولاتلقى منه التعليمات الوافيه » .. فقال جارث : « لا بد ان العمل مع شخص مثل « براند » نعمة رائعة . ومع ذلك فأنا موقن من أن أجل ما قمت به ، كان من تفكيرك أنت .. ومثال ذلك أنه لم يقترح ما قمت به فى عطلة آخر الأسبوع ، أليس كذلك ؟ .. لست اظن . يا التغيير الكبير الذى اخذته .. والآن خبرينى ، حينما كنا فى السيارة ، لم يحدث أن تمهلت فجاة لتتفادى شيئا فى الطريق ، ولا انطلق بوقها لتنبيه شخص كى ينأى عن طريقها ، إلا وكنت قد اخبرتنى قبل ذلك بما كنا مقدمين على أن نمر به ، أو ما كان يعترض طريقنا . فكنت تقولين : « سنمر بعربة ملأى بالدريس عند المنحنى التالى ، وسيكون فى الطريق متسع يكاد يكفى لكى نواصل سيرنا » ، أو مثلا : « أمامنا بقرة حمراء فى وسط الطريق ، وأعتقد أنها ستتحرك إذا انطلق البوق ! » . ومن ثم فاننى لم أكن أفاجأ بالتمهل المباغت عندما يحين ، أو بصوت البوق عندما ينطلق . أتعرفين وطأة الانطلاق بسرعة ثم التمهل فجأة على أعصاب الأعمى الذى لا تكون لديه فكرة عن السبب ، أو وطأة الانحراف فجأة ، دون أن يعلم من الذى كانت تتفاداه المركبة ؟ .. لقد كانت نزهتنا ـ بعد ظهر اليوم ـ متعة خالصة ، لأنك لم تدعينى أتعرض لشىء من هذا .. كنت أعرف كل ما كان يجرى ، بنفس السرعة التى كنت خليقا بأن أعرفه بها او اننى كنت مبصرا ! » .

فضغطت جين صدرها بيدها ، وقد اسعدها أنها كانت توفق دائما إلى أن تملأ حياة فتاها بالسرور الصادق ، وما أقل

ما سيضطر إلى معاناته فى العمى ، لو أنها فازت بحق البقاء بجانبه دواما . وما لبثت الممرضة روزمارى أن قالت : « وعدا ذلك يا سيد دالمين ، فانني رافقت السير دريك فى السيارة إلى المحطة بعد ظهر امس ، وقد شعرت بكل ما ذكرته انت الآن ، وما سبق لى أن احسست الارتباك العصبى اثناء سير السيارة ، ولكننى تحققت بالأمس مدى ما يترتب على هذه الحقيقة . . فان الراكب يظل يرقب الطريق دون أن يشعر ، ويقيس المسافات ، ويقدر السرعة ، ويعرف مرمى كل حركة لعجلة القيـادة . . ولذلك فعندما نخرج فى السيارة معا ، يجب ان تجعلنى عينين تجلوان لك كل هذا .

فأجابها جارث وفى صوته إشعار بعرفان الجميل : « ما أطيب قلبك ! . . وهل رأيت السير دريك عند سفره؟» .

ـ كلا . . فانى لم أر السير دريك طوال مدة وجوده ، وإنما ودعته ، وشعرت بقبضة يده القوية ـ اللطيفة ـ عندما تركنى فى السيارة . . فبقيت جالسة حتى سمعت صوت القطار عندما تحرك ، واندفاعه مسرعا ، حتى ابتعد . .

ـ أو لم تشعرى بمشقة إذ تركته يحضر ويرحل دون أن ترى وجهه ؟

وابتسمت جين ، بينما قالت الممرضة روزمارى : « نعم لقد كان ذلك شاقا على نفسى . . غير أننى كنت قد عقدت العزم على أن اجتاز هذه التجربة القاسية » . فقال جارث : « أنها تبعث فى الإنسان شعورا مبهما رهيبا . . اليس

كذلك ؟ » . وكان جوابها : « اجل ، أنها تكاد تجعل المرء يتمنى لو أن صاحبه لم يأت ! » . فتنهد « جارث » فى شعور عميق بالرضى والارتياح . فشعر القلب الجرىء ـ الذى أبت صاحبته أن ترفع عن عينيها العصابة حتى الساعة المحددة ـ بجزاء طيب فى هذه الزفرة !

* * *

واستأنف جارث حديثة قائلا : « عندما ابلغ خليج الفراق فى « الأرض التى لا إبصار فيها » ـ فى المرة التالية ـ سأقول : هنا « وقف من أجلى شخص عزيز ! » . فعقبت الممرضة روزمارى ضاحكة : « وما أقسى وجبات الطعام ! . . الا تراها تجربة مضنية عظيمة ؟ » .

ـ حقا . . وقد فاتنى أن اتنبه إلى أنك قد أصبحت ملمة بكل هذه النواحى الآن . وما كان فى استطاعتى قبل ذلك ان أبين لك الدافع الذى دعانى إلى أن أتناول الطعام بمفردى . . فانت تعلمين كيف يتصيد الأعمى طعامه !

ـ نعم . . وكثيرا ما يصمم الطعام على الاختفاء من المرء ، ثم يعود فجأة ، دون توقع . . ولكنى يا سيد دالمين قد توصلت إلى عدة أساليب تساعد كثيرا فى ذلك ، وتجعل المهمة اكثر سهولة . فاذا قبلت أن تتناول وجباتك معى ، على مائدة صغيرة ، فسوف ترى كيف تفلح هذه الأسـاليب . وعنـدما تستقبل ضيوفا ، فدعنى ـ إذا قدر لى أن ابقى هنا ـ اجلس إلى يسارك حتى يتيسر لى بوسائلى الخاصة ، أن أعـاونك دون أن يستبين احد اى تدخل منى !

فقال لها جارث : « شكرا لك .. ان قلبي ليفيض بالاعتراف لك بالجميل . لكم اتذكر لعبه سحيقه كنا نلعبها في (أوفردين)، أثناء تناول الحلوى ، في حفلاتنا الخاصة المرحه ، في ضيافة الدوقه ميلدرم . اتعرفينها !.. لا بد انك سمعت عنها ، فان السير دريك يعرفها ، وقد دعته مره لفحص ببغائها ، ولم تذكر له الببغاء في دعوتها التليفونيه ، فظن السير دريك انه مدعو لفحص الدوقه ، والغى ميعادا هاما ، وسارع إليها فورا .. ومن حسن الحظ انها كانت تقيم – وقتئذ – في دارها بلندن ، ولو أنها ما كانت لتتردد في دعوته لفحص الببغاء في (أوفردين) .. ولدى وصول براند ، ولم يكن في ذلك الوقت قد بلغ الشهرة التي ينمتع بها الآن – ولو أنه كان في طريقه إليها – وكان للوقت قيمة كبيرة في نظره .. لدى وصوله إذا به يرى الدوقة في اتم صحة وقوة ، ولكنها في قلق جنوني .. وإذا بالببغاء « تومى » يجلس على أرجوحته منكمشا ، لا يكاد يفتح سوى عين واحدة ، ولا يلفظ سوى كلمات نابية ، في صوت واهن .

« واعتقد ان « براند » احتمل الموقف ، وقام بالمهمة بخير مسلك طبي ، فقاس حرارة « تومى » من تحت جناحه ، بينما راح « تومى » يلعن مقياس الحرارة ، ثم كسره اخيرا .. وقد منع « براند » تغذيته بعجينة اللوز المنقوعة في النبيذ – وهو الطعام الوحيد الذي كان تومى يتوق إليه في ذلك اليوم – ثم كتب له تذكرة العلاج ، واصدر تعليمات مفصلة ، كما اكد للدوقة بأن لديه الكثير من مقاييس الحرارة غير الذي كسر .. ولما

تبين بان ذلك لم يكن سبب همها . فقد أقنعها بأن قليلا من الزئبق قد تعيد المريض ، وهو – في هذه الحالات – يقدم في قدح أحيانا . ثم اشار بجمع شظايا الزجاج المحطمة – بكل عنايه – من تحت مجثم « تومى » ووضعها جنبا إلى جنب التأكد من عدم إغفال شيء منها . وتناول قبعته، غير ان الدوقه أعربت عن رغبتها في جمع حطام مقياس الحرارة قبل رحيل « براند » ، حتى لا تضطر إلى استدعائه مرة أخرى . ولذا انتظر « براند » ، بينما زحف رئيس الخدم على يديه وركبتيه، ووقفت الدوقة فوق رأسه تشير إلى كل قطعة من الزجاج بعصاها السوداء .. واعجب هذا المنظر الببغاء المريض ، فارسى مخلبه الذي كان يرفعه ، وفتح عينيه معا ، وانحنى مرسلا وابلا من التعبيرات اللاذعة عن ماضى وحاضر ومستقبل الخادم المسكين ! فكادت الدوقة تبكي فرحا ، وأطرت البراعة التي أبداها الطائر العزيز .. ثم سمحت للدكتور دريك بالانصراف ، كما وعدته بأن تتصل به تليفونيا قبل المساء ، لترفع له تقريرا عن صحة الببغاء . وانحنى على يدها وانصرف .. »

« وعندما قدمت الآنسة شامبيون بعد ذلك بقليل ، وعلمت بما حدث – وهي كما قد تعلمين ابنة اخ الدوقة ، وتقيم في دارها عندما تأتي إلى المدينة – غضبت أشد الغضب . فقد كانت والسير دريك صديقين حميمين من عهد الصبا ، وتعتقد أن قليلا من الناس قد بلغوا من المكانة او القيمة ما يؤهلهم لأن يكونوا من مرضاه .. وكانت في ذلك الحين شديدة الاهتمام

بما يكتب وما يلقى من محاضرات . وبلغ بها الأمر أنها كانت
تحنق إذا استدعاه أحد أفراد الأسرة المالكة لعيادته فى قصره.
فما أن علمت بجلية الأمر ، حتى خلعت قفازيها ، ولطمت بهما
« تومى » بشدة . وكانت الدوقة قد استقلت مركبتها وسارعت
بنفسها إلى الصيدلية بتذكرة السير دريك . ومن ثم فقد تلقى
« تومى » اللطمات بينما وقف كبير الخدم والساعى يشهدان
ذلك فى سرور مكتوم ، مما دفع الببغاء إلى حالة عصبية ، فاخذ
يرقص ويتأرجح على مجثمه صارخا ببعض النعوت فى وجه
الآنسة شامبيون ، حتى أفاق من تأثير عجينة اللوز المزوجة
بالنبيذ !.. ولقد قصت الآنسة شامبيون على هذا الحادث ،
واضافت أنها اضطرت إلى أن تذهب بنفسها إلى الدكتور
« براند » معتذرة عما حدث، وأنه كان رقيقا فى تلقى اعتذارها،
وقد اخبرها بأنه سيبعث إلى الدوقة مطالبا بعشرين جنيها
أتعابا ، على أن يبعث بالمبلغ ـ بمجرد استلامه ـ إلى حديقة
الحيوان .

« وبينما كانت الآنسة «شامبيون» معه فى مكتبه ، ولم تهدأ
بعد من سورة غضبها ، إذا بجرس التليفون يرن ، وإذا بالدوقة
العزيزة تتكلم فى صوت يحكى شقشقة العصافير ، مقدمة
للدكتور دريك تقريرا مسهبا . فحاولت الآنسة شامبيون ان
تمسك ببوق التليفون، لتسمع الدوقة كيلا من التقريع القاسى،
غير أن الدكتور حال بينها وبين ذلك ، وصد يدها بشدة، ثم
ختم حديثه مع الدوقة بكلمات رقيقة .. وبعد ذلك كتبت له
الدوقة تسأله عما يطلب من أتعاب، فأجابها السير دريك بخطاب

لطيف . ذاكرا ان طرافة علاج طائر بديع وذكى ـ كذلك
الببغاء ـ كانت تفوق كل ما بذله من جهد ووقت . ثم وضع
الرسالة كالآتى : « طبيب شرف ، فى الحالات العادية للسير
توماس ».. يعنى الببغاء . وما كان اشد سرور الدوقة بهذا
الخطاب ، حتى لقد أطلعت عليه كل أصدقائها ، ولم تدرك
سببا لما كان ينتابهم من ضحك عنيف .. وتكرمت بعد ذلك
بدعوة أسرة براند إلى حفلة من حفلاتها الرائعة حقا ! » .

وكانت الممرضة « روزمارى » تضحك بإفراط يكاد يكون
هستيريا . فأردف « جارث » قائلا : « قصة أخرى عن الببغاء
ما دمت معجبة بقصصه .. أن من عادته ان يصيح بكلمات نابية
يوجهها إلى الدوقة ، التى كانت شديدة الاعجاب بذلك . وفى
احد الأيام ، كان جاثما فوق أرجوحته فى البهو الأسفل لقصر
(أوفردين) ، بجوار الباب الكبير المؤدى إلى الشرفة ..
وهبطت الدوقة من الدور الأعلى ، وعلى رأسها قبعة الحديقة،
وقد حملت فى ذراعها سلة ، فى طريقها إلى قسم الزهور
بحديقتها .. وكان ثمة عدد منا جالسا فى جنبات البهو ، فهب
صديق يدعى رونى انجرام من مقعد عميق ، والقى سيجارته
بعيدا ، وفتح الباب للدوقة .. وفى تلك الأثناء ، كانت هى قد
عرجت على منضدة ، باحثة عن المقص والقفازين التى كانت
تستخدمها فى اقتطاف الزهور . ومن ثم ظل رونى واقفا إلى
جانب الباب ، ممسكا به .. فى حين اخذ الببغاء يتراقص
صاعدا هابطا فوق مجثمه فى الجانب الآخر للباب . حتى إذا
طال بحث الدوقة فى الأدراج ، مال الببغاء برأسه فجأة على

ناحية ، وهتف فى لهجة وقحة : « هيا أسرعى أيتها الفتـــاة العجوز ! » .. وكان رونى ــ الذى جبل على اخلاق سامية وعنى مراعاة أدق آداب السلوك ــ ما يزال ممسكا بالباب ، فلتفت إلى الببغاء ، فى استنكار ، وقال له : « تومى .. يجب ان تقول : فخامتك » .. فما كان من الببغاء إلا أن وضع مخلبه فوق منقاره ، وأجابه مغمغما فى خشونة : « أتقول لها هذا فى مقابل ما سنحصل عليه منها ؟! » . وبوسعك ان تتصورى كيف رحنا نقهقه .. ولا بد انه تعلم هذه الجملة فى « عنبر » ولكن وقعها كان مضحكا للغاية .

« وقد اعتدنا ــ بعد هذه الفكاهة ــ أن نطلب إلى الدوقة أن تتلكأ ــ عند خروجها إلى الحديقة وهى ترتدى قبعـــة الحديقة ــ ونحن نتبعها ، حتى يشحذ تومى قريحته ويطلق صيحاته الوقحة مستحثا إياها ، فتتعالى الأصوات تطالبه بأ ن يقول « فخامتك » ، فلم يكن تومى يخيب رجاءهم مرة . وأؤكد أننى رأيت الببغاء يغمز بعينه وهو يسترق النظر من بين مخالبه ! » .

وسكت « جارث » لحظة ، ثم استطرد قائلا : « وفى أحد الأيام كان معنا شخص أصر على أن « تومى » كان يفعل كل ذلك آليا ، دون إدراك .. وانه سيردد الكلمات عينها ردا على أية عبارة أو ملاحظة تبدى له . وكان من أولئك الذين يحلو لهم دائما إفساد طرافة اية واقعة بايجاد تفســير لهـا ، أو بالتشكك فى صحتها ، او بالمجادلة فيها . فعرض عليه كثيرون

الرهان ، فتحداهم جميعا ليثبت صحة رأيه .. وقد اشتدت حماسة الدوقة لذلك ، فوضعت على رأسها قبعة الحديقة ، واجتمعنا جميعا فى البهو الأسفل. وكان «تومى» فوق أرجوحته رصينا ، وفى أبهى حمرته . وبين صمت الجميـــع ، هبطت الدوقة السلم ــ وعليها قبعة الحديقة ــ ثم تقدم ذلك الرجل المتشكك وفتح الباب ، ووقف مترقبا مرور الدوقة ، بينما كانت الدوقة تهتز لهفة ، وقد انتحت جانبا متظاهرة بالبحث عن المقص .

« ولم يحدث شىء لفترة طويلة ، كان الببغاء ــ خلالها ــ يترنح فوق أرجوحته ، وهو يقهقة لنفسه تهكما ، ثم صمت وسكن فى مكانه ، وثبت عينيه على الدوقة ــ وهى تنقب فى أدراج المنضدة وظهرها نحوه ــ وصاح بها بلهجته المعتادة : « هيا أيتها الفتاة العجوز ! » .. فصاح الرجل المتشكك قائلا: « تومى .. يجب أن تقول أيتها الدوقة العزيزة » . وفى غمرة السكون الذى ساد القوم ، رفع تومى مخلبه . وقبل ان يصل إلى منقاره رده ثانية ، ثم مال إلى الأمام نحو الرجل ، وصاح به : « لتنفجر غيظا ! » . ثم انطلق فى قهقهة قاصفة .. وعلا منا الضحك والتصفيق ، حتى لقد خشيت أن تصاب الدوقة باختناق لتعسر أنفاسها ، لفرط الضحك . وانسحب الرجـــل إلى مقعد كبير بعيد ، وجلس صامتا ، ولكن .. اية قصص رحنا ننسجها للتندر على مائدة العشاء ! .. لكم احب الحديث عن تلك الأوقات البهيجة !.. لكم تبدو وكأن الزمن تقـادم عليها ، وأن برزخا يفصل بينى وبينها ! » .

* * *

وأطرق « جارث » برهة ، ثم قال : « وددت لو انك عرفت (أوفردين) . أن الدوقة تقيم « حفلات ممتازة » لا مثيل لها ، يلتقى فيها كل الأصدقاء التواقين لأن يكونوا معا ، فينعمون بفاخر الطعام ، وبطيب المقام ، ويفعلون كل ما يحلو لهم ، بينما تكون الدوقة فى ذهاب وإياب ، تتفقد حيواناتها وطيورها العجيبة المنوعة ، وهى تغدق سيلا من الرقة والكرم أينما ذهبت . ولقد كانت — فى آخر مرة كنت هناك — تطلق فى قاعة الاستقبال بعد العشاء — فى كل ليلة — ستة يرابيع (جرابيع) .. وهى حيوانات مصرية لطيفة ، مضحكة ، تشبه «الكانجارو» ولكنها صغيرة الحجم . فكانت هذه الحيوانات تقفز فى كل مكان على ساقيها الخلفيتين ، فتخيف بعض السيدات إلى حد الجنون ، إذ تختبىء تحت ملابسهن ، مما يؤدى إلى سقوط بعض الخدم بأقداح القهوة .. وكان آخر ما جلبته من أمريكا الجنوبية ، طائر من نوع « التوكان » . وهو طائر له منقار كقرن الموز ، وصوت كصوت نعجة عجوز حائرة . ولكن « تومى » — الببغاء القرمزى — ظل صاحب الحظوة الأولى ، وجدير بى أن أقول أنه ذكى جدا ويعرف أكثر مما يخطر ببالك !

« وفى (أوفردين) اعتدنا ان نلعب بالزبيب لعبة مضحكة اثناء تناول الحلوى .. كان على كل شخص ان يضع خمس حبات من الزبيب حول طبقه ، على مسافات متفاوتة ، ثم كنا نغمض عيوننا ، ونتسابق فى تصيد الحبات بالشوكة ، فمن تمكن من تصيد والتهام الحبات الخمس — قبل سواه — كان هو الفائز . ولم تكن الدوقة تشاركنا هذه اللعبة ، بل كانت تسر بأن تراس التحكيم ، لتصيح فى كل من اراد الغش بان

يحاول فتح عينيه .. وكنت والآنسة شامبيون — وهى كما تعلمين ابنة أخ الدوقة — نلعب بأمانة . وكنا نفوز معا بالأسبقية فى كل المرات تقريبا ! » .

فأجابته الممرضة روزمارى : « أجل ، اننى اعرف هذه اللعبة ، وقد مرت بذاكرتى حينما كنت أتناول الطعام معصوبة العينين » .. فهتف جارث : « آه ، لو اننى علمت، لما سمحت لك بذلك » . فقالت الممرضة روزمارى : « كنت أدرك هذا ، ولذلك قمت بالتجربة فى عطلة الأسبوع » .

ومد « جارث » يده بقدح الشاى لتملأه ثانية ، ثم مال نحوها بقامته ، حتى يسر لها بقوله : « والآن ، أستطيع أن أتجاسر فأنبئك بإحدى تجاربى الصغيرة . فقد اعتدت دائما أن اخشى وجود ذباب فى الأشياء . وكنت — منذ طفولتى — فى فزع من أن أبتلع ذبابة فى الطعام ، دون أن افطن . فلما بلغت السادسة من عمرى ، سمعت إحدى زائرات أمى تقول : « لا بد للإنسان من أن يبتلع ذبابة فى كل عام » . وأضافت أنها قد ابتلعت ذبابة ، وهى فى طريقها لزيارتنا . فعلقت هذه الفكرة الفظيعة بذهنى الصغير — بعد ذلك — واعتدت أن أحس بالارتياح كلما وقع لى شىء من هذا ، حتى لا أذكر أننى سارعت بالتهام لقمة من الخبز — مرة — إذ رأيت ساقين وجناحين عالقة بها ، شاعرا بأن الابتلاع أسهل من المضغ ، وأننى بذلك سأعفى من هذا الواجب اثنى عشر شهرا . ولكننى اضطررت لأن أجرى بطول الشرفة وعرضها ، وقد شددت قبضتى ، حتى قدر لى أن أبتلعها ، وعندما اكتشفت زيف

فكرة الذبابة السنوية ، تولانى خوف مغالى فيه ، من أن أبتلع
ذبابة عفوا . ولا أذكر أننى قبلت أكل شرائح الخبز المكسوة
بالسردين ــ فى المطاعم ــ دون أن أنعم النظر تحت السردين،
بحثا عن ذبابة ، برغم أننى كنت أشعر ـ وأنا أرفع السردين ـ
بأننى كالعجوز التى تنظر دائما تحت فراشها ، خشية أن يكون
ثمة لص ، آه ، لكم عذبتنى هذه الفكرة الحمقاء التافهة ،
منذ إصابتى ! فليس بوسعى ان اقول : «اواثق انت ياسمسون
من عدم وجود ذبابة فى الحساء » .. ليجيبنى سمسون : « كلا
يا سيدى .. لا ذباب هناك يا سيدى » ، ثم يضع يده على فمه
ويسعل ، فلا اقوى بعد ذلك على سؤاله » .

فانحنت الممرضة روزمارى فى جلستها ، ووضعت قدح
الشاى بحيث يستطيع تناوله بيده بسهولة ، بمجرد أن يتحسس
حافة الطبق . وقالت له فى لهجة من تفهمه : « تناول طعامك
دائما معى ، واعدك بأن لن تكون ثمة ذبابة فى اى شىء .
الا تطمئن إلى عينى ؟» . فابتسم « جارث» فى شكر واغتباط ،
وقال : « بل اثق فى عينيك الرحيمتين الأمينتين فى كل شىء ..
آه ، ان هذا يذكرنى بأننى أريد أن اعهد اليهما بمهمة لا يمكننى
أن اتمن عليها أحدا .. هل بدأ نور الغسق يا آنسة جراى ،
أو ما تزال امامنا ساعة من النهار ؟ » . فأطلت الممرضة
« روزمارى » خلال النافذة ، ثم استشارت ساعتها ، وقالت:
« لقد بكرنا فى تناول الشاى .. إذ أننا عدنا من نزهتنا جائعين.
أن الساعة لم تبلغ الخامسة بعد ، والأصيل ساطع النور ،
والشمس تغرب فى السابعة والنصف .

وإذا ذاك قال جارث : « إذن فالنور كاف .. هل فرغت
من قدحك ؟ ستكون الشمس ساطعة على النافذة الغربية فى
المرسم . هل تعرفين مرسمى فى أعلى الدار ؟ .. لقد أحضرت
الصور التخطيطية لليدى براند من هناك . واعتقد انك لاحظت
اكداسا من لوحات الرسم فى أركان القاعة ، بعضها بغير
استعمال ، وبعضها يحتوى على خطوط أولية أو تصميمات ،
وبعضها صور اكتملت .. هناك ــ يا آنسة جراى
ــ صورتان ــ بين الصور الأخيرة ــ أتوق إلى العثور عليهما
وإتلافهما .. لقد جعلت سمسون يقودنى يوما إلى هناك ،
ويتركنى وحيدا ، وحاولت العثور عليهما باللمس ، غير أننى لم
أستطع أن أتأكد ، وسرعان ما ارتبكت بين اللوحات ، ولم أشأ
أن اطلب مساعدة سمسون لأن هاتين الصورتين .. أعنى ،
ليستا كغيرهما ، وإذا رآنى أمزقهما ، فقد يعجب ويتكلم ،
وانا لا احب أن أوقظ فضول الاستطلاع فى الخدم . كذلك لم
اجسر على الاستعانة بالسير دريك ، لأنه كان خليقا بأن يعرف
شخصية صاحب الصورتين ، لأنه معروف لديه .. وعندما
رسمت هاتين الصورتين ، لم أفكر لحظة فى أن أسمح ــ بأية
حال ــ لمخلوق سواى بأن يراهما .. ومن ثم ، فانى أعيد إليك
وحدك ــ يا كاتمة سرى العزيزة ــ بهذه المهمة .. فهل لك أن
تقومى بها ، الآن ؟! » .

* * *

ودفعت الممرضة روزمارى مقعدها إلى الوراء قائلة :
« بلا شك يا سيد دالمين .. اننى هنا لالبى كل طلب وافعل

كل ما ترغب فيه ، وأؤديه عندما تشاء ! » . فأخذ جارث مفتاحا من جيب سترته . ووضعه على المنضدة وهو يقول : « ها هو ذا مفتاح باب المرسم ، وأعتقد أن الصورتين ـ اللتين اقصدهما ـ هما فى أبعد ركن عن الباب ، خلف ستار يابانى .. وهما فى حجم كبير .. خمسة أقدام فى ثلاثة ونصف .. فاذا لقيت صعوبة فى حملهما ، فضعيهما وجها لوجه ، واستدعى سمسون ، على الا تتركيه منفردا بهما ! » .

وأخذت المرضة « روزمارى » المفتاح ، ونهضت فاتجهت إلى « البيانو » وفتحته ، وربطت الشريط الأصفر الذى يهتدى به جارث من مقعده ، ثم قالت له : « هيا اجلس واعزف ، بينما اكون فى الطابق الأعلى، أؤدى مهمتى. ولكنى ارجو ان تخبرنى بشىء واحد .. انك تعرف مدى اهتمامى البالغ بأعمالك ، فهل تسمح لى ـ إذا عثرت على الصورتين ـ بأن القى عليهما نظرة عابرة ، تكفى للتعرف عليهما ؟ أو هل لى أن أتاملهما فى ضوء المرسم الجميل ؟.. ولك ان تطمئن إلى أننى سأنفذ ما توافق عليه ! » . فلم تقو شخصية الفنان على مقاومة الرغبة فى أن تتأمل العيون أعماله وتقدرها . ومن ثم قال : « لك أن تريهما إذا أردت .. انهما بلا مراء ابدع صورتين رسمتهما فى حياتى ، مع أننى قد رسمتهما من الذاكرة فحسب اى .. اقصد أن هذه كانت « فلتة » منى. على انهما ليستا من وحى الخيال إطلاقا، فقد رسمت فيهما ما رأيته بعينى تماما .. لا سيما فيما يتعلق بوجه وتكوين المرأة . وهذان كل ما فى الصورتين .. أما ما عدا ذلك فملحقات ! » .

ونهض فسار حتى بلغ مقعد « البيانو » ، وبدات أصابعه تعزف ـ فى رفق ـ أنغام « تعالى أيتها الروح الخالقة » .. واتجهت المرضة « روزمارى » إلى الباب ، ثم توقفت لتسأل : « وكيف أستدل على الصورتين ؟ » . فانخفضت النغمات ، وارتفع صوت جارث من خلف البيانو جليا واضحا ، وهو يتمايل مع نغمات الأنشودة ، وكأنه يتحدث على الألحان : « امرأة ورجل وحيدان فى حديقة .. ولكن ما يحيط بهما لا يكاد يبين إلا خفيفا .. وهى ترتدى ثوبا للسهرة رقيقا، أسود، جرارا.. وبه « دانتيلا » فوق الصدر .. واسم اللوحة : « الزوجة !» .. أما الصورة الثانية ، فلنفس المرأة ، وذات المنظر ، ولكن بدون الرجل .. إذ لم تكن ثمة حاجة لتصوير الرجل ، فهو ـ فى هذه الصورة ـ موجود ، سواء أكان ظاهرا أو غير ظاهر .. لقد توقفت نغمات البيانو الخافتة تماما ، فشمل الصمت كل الحجرة . ثم اتم قوله : « وهى تحمل على ذراعها طفلا صغيرا ، واسم اللوحة : الأم ! » .

وهنا علا صوت النشيد ، فى دوى غير منقطع ، وهو يبتهل : « أبعد عنا أعداءنا ، وهب السلام لبلادنا » ، وكانت المرضة « روزمارى » قد بارحت الحجرة ، وأغلقت الباب خلفها !



الفصل الثامن والعشرون

صعدت جين إلى المرسم ، ففتحت البـاب ، ودخلت . ثم أغلقته خلفها .. وكانت أشعة شمس الغروب تنساب خـلال نافذة غربية ، مضيفة مزيدا من البهاء ، على الستائر الحريرية والتحف المعلقة على الحائط : من قطعة يابانية بنفسجية اللون مطرزة ، وسجادة من اشغال الصين تمثل تنينا ذهبيـا على رقعة حمراء ، وقد التف ذيله الطويل حوله ، وبرزت مخالبه المسنونة من اجزاء من جسمه لا يتوقع ان تكون فيها مخالب . وكانت « جين » قد دخلت المرسم ـ من قبل ـ مرات متعددة، ولكنها كانت فى كل مرة تسرع بالتقاط الأشـياء التى سـألها « جارث » أن تحضرها ، فلم تكن ثمـة فسـحة من الوقت وحرية للتأمل والبحث .. وكانت « مارجرى » تحمل مفتاحا ثانيا للمرسم ، إذ كانت تدخله يوميا لتفتح النوافـذ وتزيل الأتربة عن التحف الثمينة ـ بكل حرص ، وعناية ـ ثم تضع كل قطعة منها فى مكانها ، الذى كان صاحبها يحب أن تكـون فيه ، عندما كانت عيناه الحادتان تريان كل شيء .. وكانت « مارجرى » تحتفظ بذلك المفتاح فى حلقة مفاتيحها ، فلم تكن « جين » ميـالة لأن تسألها إياه ، حتى لا تتعـرض لرفض يؤلمها ..

أما الآن ، فكان فى وسعها أن تقضى ما شاءت من الوقت ، نجلست فى مقعد من تلك المقاعد الطويلة ، المنخفضة ، ذات المجلس العميق ، وقد زود بوسائد مريحة .. وكان مناسـبا

لحجمها ، وقد زود بمساند لذراعيها وركبتيها ورأسها ، حتى خيل إليها أنها لن ترضى فى المستقبل عن مقعد ، بعـد أن استمتعت بكمال هذا المقعد . آه لو كانت لحبيبها كمـا كان هذا المقعد بالنسبـة لها !.. آه لو اسـتطاعت أن تفى بكل حاجاته عن آخرها ، حتى يكون حضورها مبعث قـوة وراحة وعزاء له دائما !

وجالت ببصرها فى القاعة ، ورأت فيها طابع « جارث » .. كل دقة وكل عناية وكل كمال فى كل شيء !.. كان كل لون يلائم الآخر ، ويتلاءم معه ! .. وتأملت توزيع الضوء ـ سواء من السقف أو النوافذ ـ وترتيب المقاعد ومناضـد الرسـم من كل نوع وكل حجم ، والنظافة المتجلية فى الأماكن الخالية ، العارية من الأثاث ، وخلو المكان من الغبار .. وكلها أمور كان يتطلبها العمل ، كما تأملت أسباب الراحة المترفة حول المدفأة وفى كل زاوية ومنحنى وركن .. كان كل شيء كاملا !.. وورق الجدران البنى ، ذو اللون المتسق الذى لا يتخلله ظل من حمرة أو صفرة .. كان بنيا بلون البندق الصافى .. وعـلى حامل بقرب النافذة القصية ، كانت ثمة لوحة لم يتم إنجازها ، وبجوارها رقعة الألوان والفراجين ، تماما كما تركها «جارث» صباح خروجه ، فى ذلك اليوم المشئوم ، منذ ثلاثة أشهر .. يوم تسلق سياجا ، وتدلى فوقه لينقذ حيوانا صغيرا من آلام لا داعى لها ، فارتمى فى هذا التيه وهذا الأسى اللذين لا حـد لهما !



* * *

ونهضت جين وأخذت تتأمل كل تحفه العجيبة التى كانت تعلو رف المدفأة .. واستلفت انتباهها ــ وفتنها بوجه خاص ــ تمثال نحاسى صغير لدب مكتنز جلس على عجزه فى ثبات واسترخاء ، قابضا بمخلبيه الأماميين على قائم من النحاس ، قد مال برأسه إلى جانب ، وعيناه الصغيرتان الشبيهتان بالخرز تحدقان أمامه .. وكانت فى عنقه سلسلة اتصلت بالقائم النحاسى ، كرمز للأسر وللشراسة المطبوعة . وادركت « جين » أن رأس الدب متحرك ، يمكن برفعه الوصول إلى فجوة تصلح لحفظ الثقاب ، وإن ايقنت « جين » انها لن تجد بها ثقابا إذا فتحتها .. ولم يكن ثمة شك فى ان هذا الدب الصغير من مخلفات أوائل العهد الفيكتورى ، فهو زميل طفولة « جارث » .

وتمثل لها « جارث » فى عامه الأول ، يمد يديه الصغيرتين المكتنزتين نحو النحاس اللامع .. ثم « جارث » الصغير ، ابن الثالثة ، بشعره الأسود اللامع ، وعينيه الشديدتى البريق ، وهو يحملق بشغف فى خرزتى عينى الدب الجامدتين، وينظر برهبة إلى السلسلة .. ثم « جارث » الغلام ، بقامته الطويلة النحيلة ، وقد عاد من عطلته المدرسية ، ورأى الدب فوق رف المدفأة ، فهلل له ، قائلا : « هالو يا برونو .. ما اطيب ان اراك أيها الصديق القديم . إنى لأذكره يا أمى منذ مولدى ، وعندما شعرت بوحشة الغربة فى بداية السنة الدراسية ، أدركت مدى ما فى رؤيته من متعة .. رؤيتك ورؤيته يا أماه ، فتصورى كيف أجمع بينكما .. ذلك لأنكما تمثلان .. البيت ! » .. ثم

تصورت « جارث » وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، وقد أصبح فارع الطول نحيلا ، رصينا فى حزنه ، إذ الفى الدار خاوية ، موحشة ، بعد أن ووري الجسد الرقيق الغالى ــ جسد أمه ــ مثواه الأخير .. ووقف واجفا ، جامد العينين ، بجانب رف المدفأة ــ فى البهو الفسيح الساكن ــ حتى إذا ما لمح التمثال النحاسى الصامت، فى جلسته المألوفة مستسلما، مغلولا إلى القضيب النحاسى ، قال له : « أواه يا برونو !.. أواه يا أماه ! » ثم ارتمى على مقعدها الخالى ، حيث لقى راحة النفس الرحيمة التى كثيرا ما يضن بها الزمن على الرجال فى أحزانهم !

كل هذه التأملات أوحى بها الدب إلى « جين » ، وهى واقفة بجوار الرف ، والدب بين يديها .. وحركت رأس الدب فاذا بالفجوة ــ التى كانت خلفه ــ خاوية . فأعادت الرأس إلى مكانه بكل حذر ، ووضعت الدب فى مكانه فوق الرف .. وعادت إلى صوابها إذ أدركت أنها تتعمد التلكؤ فى تنفيذ أمر مفروض عليها !.. وكان دريك قد أخبرها عن اللوحتين اللتين رسمهما « جارث » للمرأة الوحيدة .. وها « جارث » قد أنبأها عنهما أكثر مما فعل دريك . ولقد حان الوقت ، لكى تراها بنفسها ، فلا جدوى من الارجاء . لذلك نظرت نحو الستار الصفراء ، ثم سارت إلى النافذة الغربية ففتحتها على مصراعيها ، وإذا بأشعة الشمس تنحدر تدريجا نحو التلال الأرجوانية ، وقد أخذت زرقة السماء تبهت ، بينما غاصت فيها سحابة وردية .. ثم رفعت « جين » بصرها إلى السماء،

ودست يديها فى جيبى ثوبها ، وقالت بصوت مرتفع : « اننى اشهد الله .. وإذا قدر لى أن أعجز عن الافضاء بهذا القول ، أو تذكره ، فها انذا أفعل الآن .. اشهد الله على أننى كنت على صواب ، وقد راعيت سعادة « جارث » فى مستقبله ، كما راعيت سعادتى . ومضيت فى قرارى لخيرنا معا ، مضحية بالهناءة الحاضرة .. ولكنى ــ واشهد الله على قولى ــ كنت على يقين ثابت بصواب ما قررت .. وما أزال أعتقد ذلك ! » .

ولم تنطق بهذه الكلمات بعد ذلك قط !

الفصل التاسع والعشرون

وجدت جين خلف الستار الصفراء كومة مكدسة من اللوحات فى غير ترتيب ، مما نم عما فعلته بها اليد العمياء ، وهى تتحسس باحثة فى غير جدوى ، ثم عن المحاولات العقيمة لإعادة اللوحات وتنظيمها .. وأقبلت جين تلتقط لوحة بعد أخرى ــ فى حرص بالغ ــ فتنسويها . بحيث يكون وجهها نحو الحائط .. كانت لمسات وصور رائعة ، بعضها تم رسمه ، وبعضها لم يتم . ووجدت بينها وجها أو وجهين تعرفت عليهما ، وتأملت جمالها المرسوم . غير أنها لم تعثر على اللوحتين .. فهبت من جلستها ونظرت حولها ، حتى لمحت فى ركن آخر ــ على بعد منها ــ كومة أخرى من اللوحات مغطاة بستار مصرية ، فاتجهت إليها . وسرعان ما عثرت على الصورتين المنشودتين ، وكانتا أكبر حجما من اللوحات الأخرى . وقد تسنى لها التحقق منهما بمجرد أن لمحت ثوب السهرة الأسود الذى كان يتوسط كلا منهما !.. لذلك حملتهما إلى النافذة الغربية ــ دون أن تمنحهما أكثر من نظرة عابرة ــ ووضعتهما بحيث يسقط عليهما أكبر قسط من النور، وأدنت منهما المقعد الذى كانت تجلس فيه ، وأمسكت فى يدها اليسرى بالدب النحاسى كتميمة تعينها على ما كانت مقدمة عليه . ثم وضعت اللوحة الثانية على المنضدة ، مقلوبة على وجهها ، وجلست تتأمل مليا الصورة الأولى .

كان أول طابع تنقله العين منهـــا إلى المخ ، هو وجه كريم المحتد ، رسم بيد لا تقل عنه كرما .. نبل بنبل ! اجل ، كان النبل يتجلى أولا ، فى وضع مهيب ، وجبين مرفوع فى اعتزاز عارم .. حتى إذا أمعنت النظر فى الجسم الممتلىء ، المتسق فى أبدع تناسب ، وإن كان كبيرا ، مفرط النمو .. وحتى إذا تأملت طول الأطراف ، وثبات القـدمين على الارض ، وقوه اليدين الكبيرتين ، تجلى لك الطابع الثانى الذى تحدثه الصورة فى نفسك .. قوة فى العمل .. قوة موجودة .. قوة مستمرة ! فاذا نظرت إلى الوجه ــ بعد ذلك ــ صادفت مفاجأة كبرى .. كانت الفكرة الثالثة ــ التى توحى بها الصورة ــ هى «الحب» .. حب من أسمى درجة ، وأقدس نوع ، وأرق وأرقى مثال ! .. وهى إلى ذلك ، تبين أوفر حنان أودع نفسا بشرية !.. كل هذا تجده فى الوجه !

كان الوجه كبيرا فى تناسب تام مع الجسم ، لا مخايل فيه تطابق الجمال العادى .. كانت القسمات حسنة ، ليس فيها اى أثر للدمامة ، ومع ذلك فقد كانت كل قسمة منها تفتقد الجمال .. وكان الطابع العام لها هو : وجه عادى ، ومنظر حسن ، فى غير زينة ، ولا تستر ولا استحياء . ولكن الوجه كان يزداد اجتذابا لك ، كلما أمعنت النظر فيه .. وكلما أغفلت تجرده ، ازددت إعجابا بما اتسم به من نزاهة ، وطهر ، وقوة عزم غائقة ، وبساطة كريمة معتزة .. فاذا استوعبت كل هذه التفصيلات الخارجية ، ونأيت لتتأمل الوجه عن بعد ، إذا بالمعجزة تحدث ، إذ يتسلل إلى الوجه « نور لم ينتشر

يوما على بحر أو على أرض » .. نور يشع من العينين الرماديتين الوادعتين . وهما تطلان إلى خارج الصورة ، من فوق رأس الرجل الذى كان جاثيا أمامها ، وقد تجلى فيهما استسلام علوى من روح انثويه لعاطفة جياشه ، قد تكون متسلطه مسيطره ، ولكنها تنفث فى المرء القدره على ان تكون أصدق احتفاظا بشخصيتها كاملة ، ومنها فى اى وقت ، من نبل .. وكانت فيهما ــ فوق ذلك ــ دهشة مليئة بالفرح ، وعجب من سر غامض لم يتجل لصاحبتهما بعد ، وحنان دافق .. ثم كانت هناك رحمة تكاد تكون سماوية ، تفيض على ذلك الشعور الجارف العاتى الذى ألقى بالرجل جاثيا على ركبتيه ، ودفعه إلى أن ينشد فى صدرها ملاذا .. وكان هناك حنين إلى المواساة ، وإلى البذل ، وإلى الارضاء .. كل هذه المشاعر امتزجت فى نظرة كانت تقطر منها عذوبة ، حتى ان لناظر إليها لم يكن يتمالك دموعه !

وكانت المرأة جالســة على حاجز رخامى عريض ونظرها مصوبا أمامها، وركبتاها مثنيتين قليلا إلى الأمام ، وقد تهدلت اهداب ثوبها الأسود فملأت الفراغ الواقع إلى يمينها .. وعلى مقربة منها ــ إلى يسارها ــ جثا رجل ذو قوام ممشــوق ، فى ثياب السهرة ، وقد احاط ذراعاه بخصرها ، واختفى وجهه بأكمله فى ثنايا « الدانتيلا » التى تزين صـدرها ، ولم يبين من ذلك الوجه سوى جـزء خلفى من رأسه الأسود ، ومع ذلك فان الشكل الاجمالى للراس ، كان ينم عن وجد متأجج ، وقد ضمته المرأة إليها ، بحركة رائعة ، توحى باستسلام المرأة ، وإشفاق الأم الحنون .. فقد كانت يداها معقودتين

خلف رأسه تشدانه إليها ، دون أن يتبادلا كلمة واحدة ، فان الوجه المختبيء كان بلا شك صامتا ، كما أن شفتي المرأة كانتا تبدوان — من فوق رأسه السوداء — مطبقتين فى قوة عزيمة ، برغم ما حام عليهما من إشراق بسمة هناء لا سبيل إلى وصفها .. وظهر فى يسار الصورة عود من الورد الأحمر متسلقا بعض القوائم المصنوعة من الخشب ، لا تستبين العين منها سوى القليل ، وقد تدلت الورود قانية متوهجة فى أعلى الركن الأيسر ، فكانت تمثل اللون البهى الوحيد فى الصورة !

ولكن العين كانت لا تلبث — بعد أن تستوعب كل هذه الدقائق الصغرى — أن ترتد إلى ذلك الوجه الهادىء الحنون، وقد تألق بالحب .. وإلى اليدين القويتين وهما تتعلمان — لأول مرة — كيف تدفعان العاطفة الواقعية التى ينطوى عليها حنان المرأة ، فاذا بالعقل يهمس بالاسم الوحيد الذى يصح إطلاقه على الصورة : « الزوجة ! » .

وتفرست « جين » فى الصورة طويلا ، فى صمت بالغ ، ولو أن دب « جارث » الذى أمسكت به يدها كان من مادة أخرى غير نحاس أوائل العهد الفيكتورى المتين ، لالتوى وتحطم تحت ضغط يديها المتقلصتين !.. ذلك أنها ما ارتابت لحظة فى أنها كانت تنظر إلى نفسها . ولكن ، أواه ، رحماك يا سماء! ما أبعد البون بين هذه الصورة وبين ما تعكسه عليها مرآتها!.. لقد جمد عقلها — مرة أو مرتين أثناء تحديقها فى الصورة — وكف عن التفكير ، فظل نظرها ساهما فى الدقائق الصغيرة . غير أنها كانت — فى كل مرة — تعود إلى التأمل ، وقد جذبها تعبير

العينين الرماديتين ، إذ أعاد إلى ذهنها صورة حية ملموسة لكل المشاعر التى اجتاحت كيانها ، والتى مرت بها حينما ارتمى ذلك الرأس المحبوب على صدرها بغتة ، لائذا بملجئه الأمين .. وهمست قائلة : « انها صادقة !.. نعم انها صادقة، ولا أملك أن أنكرها .. انها تمثل ما أحسست به تماما ، ولا بد انها تطابق ما ظهرت به إذ ذاك ! » .

ثم خرت فجأة جاثية على ركبتيها أمام الصورة ، وهى تهتف : « أواه يا الهى ! هل كنت هكذا ؟ » .. لقد رفع — بعد هذا المنظر — عينيه البراقتين محدقا فى وجهى تحت ضياء القمر ، أفكانت هذه هى الصورة التى تجلت له ؟ .. وهل كنت أبدو فى هذه الصورة ؟.. وهل كان فى وسع المرأة التى كانت بهذا الشكل ، والتى ضمت رأسه ثانية إلى صدرها — كما هو واضح — أن ترفض فى الصباح التالى أن تتزوجه ، ارتكانا إلى صغر سنه، وإلى كبرها ؟! أواه يا جارث،. يا جارث،.. أواه يا الهى ! ساعده على أن يفهم الحقيقة .. أعنه لكى يصفح عنى ! » .

* * *

وتحت قدميها — فى الغرفة السفلى — طرق مسامعها صوت الخادم « ماجى » تغنى ، وهى تحيك الملابس ، وقد سرى صوتها حتى نفذ من النافذة المفتوحة واضح النبرات والكلمات ، بلكنته الاسكتلندية الصافية ، حتى بلغ مسامع « جين » وهى جاثية . وكان عقلها — الذى أحاله الألم إلى


ولكن الرجل لم يظهر معها ، وإنما ظهر بين ذراعيها طفل صغير ..

جمود كامل ــ قد تشبث فى لهفة بنشيد « ماجى » ولحنه ، وهو يجرى كما يلى :

« أيها الحب الذى لا يريد فكاكى ..
« ها أنذى أسلم نفسى المرهقة إليك ..
« ها أنذى أعيد إليك الحياة التى أنا مدينة بها ..
« لتغوص فى أعماق محيطك ..
« عساها تزداد غنى وامتلاء ..
« أيها النور الذى يقفو أثرى ..
« أنى أسلمك مشعلى الخافق المرتعش ..
« ان قلبى يختزن شعاعه المعار ..
« عسى أن يزداد بريقا وصفاء ..
« ويجد نهاره فى وهج شمسك ! » .

ثم أمسكت جين بالصورة الثانية ووضعتها فوق الأولى .. كانت تمثل المرأة نفسها ، وفى نفس محلسها فى الصورة الأولى .. ولكن الرجل لم يظهر معها ، وإنما ظهر بين ذراعيها طفل صغير ، توسد رأسه الأسود صدرها الناهد .. ولم تكن المرأة ترسل البصر من فوق الرأس الصغير ، وإنما كانت تحدق فى وجهه .. وكان عود الورد الأحمر قد نما وانتشر على جانب الصورة ، مكونا قوسا مزدهرا فوق الأم والطفل ، وقد تمثل فى كيان المرأة جلال الحنان .. ولم يكن الوجه ــ فى إطاره وتقاطيعه ـ أقل خلوا من الجمال من ذى قبل ، ولكنه

كان ــ فى هذه الصورة ايضا ــ يبدو جميلا ، بما ارتسم عليه من حب الأمومة . ولقد علمت أن صورة « الزوجة » حققت أكثر مما كان يرتقب منها . أما فى هـــذه الصـــورة ، فقد تجلت « الزوجة » فى أبهى حقيقتها ، إذ أضافت « الزوجية » أعجوبة « الأمومة » !.. فاذا كل الغوامض تتجلى ، وإذا كل المسرات قد عـــرفت ، وإذا الابتسامة على شفـــتيها الهادئتين تشى بالهناءة !

وكان ثمة فرع من الورد القرمزى قد نما ، وازدهر فوقهما، وتساقط منه وابل من أوراق الورد القرمزية فوق الأم والطفل .. وتشبثت أصابع الطفل بالدنتلا المسبغة على صـــدر الأم ، وقد سقطت ورقة من الورد فوق المعصم الصغير ، فرفعت الأم يدها لتزيحها عنه . حتى إذا وقعت عيناها على عينى الطفل البراقتين الســـوداوين ، توقفت يدها عن الحركة . وافتر ثغرها عن ابتسامة !

وانخرطت « جين » فى بكاء قانط ، وهى تتأمل الصورتين .. ان « مجرد غلام » قد سبر غورها ، وأدرك أعماقها ، وفهم عظمة ما تملك من إمكانيات الأمومة ، أكثر بمراحل مما كانت هى تفهم نفـــسها . فلمـــا رآهـــا ــ فى ومضـــة واحـــدة « الزوجة » ، قفز عقله ليتمثلها فى صورة « الأم » . وإذ ذاك وجدت نفسها مضطرة لأن تردد : « إنها الحقيقة » !.. أجل، هذه هى الحقيقة .. »

ثم عادت بذاكرتها إلى ما سبق لها ترديده من قوله : « لم

يكن بالوجه الذى يود المرء أن يراه دائما على المائدة » . فهل وجهها هو الوجه الذى تحلو رؤيته ؟ وجهها .. هذا الوجه الذى رسمه جارث بعد عام من زواج افترض قبابه ! .. هل يسأم هذا الوجه ، أو يرغب فى أن يحول عينيه عنه ؟

***

والقت « جين » نظرة أخيرة على الصورة ، ثم أعادت الدب إلى مكانه ، ودفنت وجهها فى يديهـــا وقد كست وجههـــا حمرة داكنة امتدت حتى منبت شعر رأسها وخضبت أطراف أصابعها .. وإذا بهـــا تسمع الخادم سادرة فى أغنيتها ــ فى الغرفة السفلى ــ بصوتها الفتى الرخيم :

« أيها الفرح الذى تفتقدنى خلال الآلام ..

« لست أملك أن أغلق قلبى عنك ..

« وها أنذى أتتبع قوس قزح بين الأمطار ..

« شاعرة بأن الوعد ليس عابثا ..

« وان الصباح اليوم سيكون بلا دموع » .

وبعد قليل ، همست جين : « أواه يا حبيبى ، أصفح عنى! .. لقد أخطأت خطأ بليغا . لسوف أعترف ، وليســـاعدنى الله على أن أشرح كل شىء ، وإذ ذاك .. أواه ، ستصفح عنى يا حبيبى ! » . وعادت ترفع رأسها وتتأمل الصورة ، وإذا بها ترى بضع وريقات من وردة قرمزية ، متناثرة على الأرض ، فذكرتها بوريقات الوردة الحمراء التى سقطت من صدرها ، وتناثرت على أرض الشرفة فى (شينستون) .. رمز الآمال

الباسمة ، ولبهجة الحب التى مرغها قرارها ـ فى تلك الليلة ـ فى تراب خيبة الرجاء . على ان فروعا زاخرة بالورود القرمزية النامية ، كانت تتوج هذه الصورة . ومن خلال النافذة المفتوحة ، انصتت إلى الجزء الأخير من اغنية الخادم :

« ايها الصليب الذى ترفع راسى إلى العلا ..

« لست اجرؤ على الهرب منك ..

« اننى استلقى ميتة فى تراب بهجة الحياة ..

« ومن الأرض نبتت الورود الحمراء ..

« انها الحياة التى لا نهاية لها » !

وذهبت جين إلى النافذة الغربية ، ووقفت وذراعاها مرفوعتان فوق راسها ، ناظرة إلى اشعة الشمس المائلة للغروب ، وقد احالت السماء إلى صفحة ذهبية وقرمزية ، وامتد لهبها الأحمر على طول الأفق ، وهو يتدرج فى الشحوب إلى لون وردى باهت ، تخللته غيوم حمراء .. بينما انبسطت ـ فوق راسها ـ صفحة زرقاء داكنة ، لا تدرك لها غور ولا يحدها آخر ..

وارسلت « جين » بصرها إلى القلاع الذهبية ، فوق الربى الحمراء . ثم رددت بعض عبارات من « التوراة » بصوت متوسط الارتفاع : « وكانت المدينة من الذهب الخالص .. ولم تكن فى حاجة إلى الشمس ، ولا إلى القمر ، لينيرها ..

لأن مجد الله قد اضاءها . وهناك لن يكون موت ، ولا حزن ، ولا بكاء .. ولن يكون هناك اى الم ، لأن الأشياء السابقة قد ولت » .

آه ، كم من أمور مرت بها منذ وقوفها فى هذه النافذة الغربية ، ولم تنقض بعد ساعة ؟! .. كأن الحياة بأسرها قد اعتدلت إلى الوضع الصحيح ، وتبدل مظهرها القريب ، كما تغير منظرها البعيد .. حقا لقد تجاوز « جارث » نطاق عماه!

ثم رفعت جين عينيها إلى السماء الزرقاء ، وافترت شفتاها عن بسمة كلها توقع وارتقاب صامتان ، وغمغمت قائلة : « تلك الحياة التى ستظل .. دون ما نهاية » . ثم التفتت حولها .. ورات الدب النحاسى ، فأعادته إلى مكانه على رف المدفأة ، واعادت المقعد إلى مكانه ، واغلقت النافذة الغربية ، وتناولت اللوحتين ، ثم بارحت المرسم واخذت طريقها هابطة السلم إلى الدور الأسفل فى حذر .

الفصل الثلاثون

ـ لقد استغرقت المهمة منك وقتا طويلا يا آنسة جراى . فقد كدت أرسل إليك سمسون ليرى ما حدث ؟

ـ يسرنى أنك لم تفعل ذلك يا سيد دالمين ، فان سمسون كان خليقا بأن يعثر على باكية على أرض المرسم .. وفى استعانتى به ـ فى مثل هذه الظروف ـ مذلة اشد من سؤاله عن الذبابة فى الحساء !

فأجفل « جارث » ودار مسرعا فى مقعده ، فان اذن الفنان فيه التقطت اللهجة التى نمت عن فهم لعمله . وقال : «تبكين! .. ولماذا ؟ » . فأجابته المرضة روزمارى : « لأننى كنت تحت سحر الصورتين ، فقد فاقتا كل وصف . انهما تحركان اعمق اغوار النفس ، ومع ذلك فانهما تثيران الشجون .. آه ، إلى اقصى حد ، لأنك قد جعلت من امراة بسيطة الملامح ، امراة جميلة ! »

فنهض جارث على قدميه ، واتجه إليها بوجه كانت عيناه خليقتين بأن تطلقا شررا ، لولا انهما كانتا فاقدتى الابصار ، وهتف : « من .. ماذا ؟ » . فأجابته المرضة روزمارى فى هدوء : « امراة بسيطة الملامح ، فلا بد انك كنت تدرك أن النموذج الذى نقلت عنه كان امراة خالية من الجمال . وهنا سر الإعجاز فى الصورتين .. لقد جملتها إلى ابعد حد فى الزوجية ، ثم مجدتها فى الأمومة ، حتى ان المرء يمعن فى نسيان

خلوها من الجمال ، كلما أطال النظر اليها ، لأنه يراها كمحبة محبوبة ، ومن ثم فهى جميلة .. انه نصر كبير للفن ! » .

فجلس جارث وقد شبك يديه أمامه ، ثم قال : « انها نصر للحقيقة .. فإنما رسمت ما رأيته بعينى » . فأجابته المرضة روزمارى : « لقد رسمت روحها ، فأضاءت وجهها البسيط ! » .. فقال لها جارث بصوت يكاد يكون همسا : « لقد رأيت روحها .. وكانت تلك الرؤيا من الاشراق بدرجة انها اضاءت حياتى المظلمة . وان الذكرى لتضىء ظلامى حتى الآن ! » . وران على المكتبة صمت رقيق . واشتد الغسق إعتاما . وتكلمت المرضة روزمارى بصوت خافت : « لى رجاء يا سيد دالمين .. اننى ارجوك الا تتلف هاتين اللوحتين ! » .. فرفع جارث راسه قائلا : « بل يجب أن أتلفهما يا بنيتى .. لست أمتلك ان أتركهما ليراهما من قد يعرف جـ .. السيدة التى رسمتها ! » .

ـ مهما تكن الأحوال ، فهناك شخص واحد ، له الحق فى أن يراهما قبل أن تتلفهما !

وسألها جارث : « ومن هو ؟ » . فأجابته المرضة روزمارى فى شجاعة : « السيدة المرسومة » . وإذ ذاك سألها : « وكيف تعلمين انها لم ترهما ؟ » . فسألته : « هل رأتهما ؟ » . وجاء جوابه فى اقتضاب : « كلا .. ولن تراهما ! » . ولكنها قالت: « بل يجب أن تراهما ! » .

واشتم «جارث» من لهجتها الاصرار، فسألها :« ولماذا ؟»«.
ثم انصت باهتمام لردها ، وهى تقول : « لأن اية امرأة تعرف
أنها عادية الوجه ، لا تقدر شيئا مثل تقديرها لأن ترى نفسها
وقد اضفى عليها الجمال بهذا الشكل ! » .

وجلس « جرث » ساكنا لبرهة طويلة ، ثم قال : « امرأة
تعرف أنها عادية الوجه .. » . وكرر هذه الجملة فى دهشة ،
وفى صوته نبرة التساؤل . فاستأنفت الممرضة روزمارى
حديثها متشجعة : « أجل .. افتظن لحظة .. بأن مرآة تلك
المرأة قد عكست لها ـ ولو مرة واحدة ، وبأية طريقة كانت ـ
ما سكبت عليها من جمال فى هاتين الصورتين ؟.. اننا ـ معشر
النساء ـ عندما نقف أمام المرآة يا سيد دالمين ، نتأمل فى قلق
قبعاتنا ، أو اشرطة ثيابنا ، أو مفارق شعورنا ، نري أنفسنا
دائما فى أسوأ صورة . أما تلك السيدة ـ فى أسوأ صورها ـ
فخليقة بأن تكون خالية من الجمال خلوا تاما ! » .

وجلس جارث فى صمت تام ، فواصلت الممرضة روزمارى
حديثها : «ثق من ذلك.. إنها لن ترى نفسها قط كـ«الزوجة»
أو « الأم » .. فهل هى زوجة ؟ » . فتمهل « جارث » نصف
ثانية ، ثم اجاب فى هدوء تام : « نعم » . فأسرعت يدا
« جين » إلى صدرها ، إذ احست بأنها يجب أن تضغط
قلبها ، وإلا سمع « جارث » خفقانه ! .. وعندما قدر للممرضة
روزمارى أن تعود إلى الحديث ، كانت تشوب صوتها رجفة
خفيفة ، وهى تقول : « وهل هى ام ؟ » . فأجابها جارث :

« كلا .. لقد رسمت ما كان ينبغى أن يكون ! » . فتساءلت :
« إذا هى .. »، وأجاب جارث باقتضاب : «إذا هى كانت.. ».
وشعرت الممرضة « روزمارى » بأنه يوبخها ، فقالت فى ذلة
تامه : « يا عزيزى السيد دالمين .. اننى أدرك تماما بمدى
ما اظهر به أمامك اليوم من تطفل ، بما القيه عليك من
استفسارات واقتراحات .. غير أن لومك يجب أن ينصب على
الاثر الذى سيطرت به لوحتاك البديعتان على عقلى .. أواه،
إنهما جميلتان .. جميلتان ! » . فهتف جارث : « آه ! » ،
وقد عاوده سرور الفنان لدى سماعه المديح . ثم اردف :
« لا يا آنسة جراى .. لقد نسيت الصورتين بعض الشىء .
فهل هما هنا ؟ حسبنا ارفعيهما فوق المنضدة ، وصفيهما لى
وصفا دقيقا .. دعينى أسمع منك ما كان لهما من وقع عليك
كصورتين ! » .

***

ونهضت « جين » فسارت إلى النافذة وفتحتها على
مصراعيها ، وبينما كانت تستنشق الهواء النقى ، همست
بدعوات حارة ، حتى لا تخونها أعصابها وصوتها ورباطة
جأشها ، فى هذه الساعة الحرجة .. إن صورتى « جارث »
كانتا تدينانها ـ هى بالذات ـ فعليها الآن أن تقنع جارث بما
تصفهما به .. يجب أن يقتنع ويؤمن بالحب الذى صوره !
وعادت الممرضة روزمارى إلى مجلسها .. وبصوتها الرقيق
العادى ، الذى لم تؤثر فيه الانفعالات العاطفية ، أخذت تسكب
فى اذنى الفنان الأعمى المرهفتين كل ما رأته جين فى الموسم
بدقة بالغة. وأجادت أداء المهمة، فى غير رحمة لنفسها ولا له.

وإذا بظمأ « جارث » نحو « جين » ـ الظمأ القاسى ، الميئوس من ريه ـ يستيقظ فى نفسه . واستيقظ معه إدراكه ـ الذى كاد يفقده عقله ـ بأنها كانت له ، ومع ذلك فهى ليست له ، وبأنه لو كان قد أصر على أن يتلقى ردها فى تلك الليلة لما كان الرد رفضا ، فان التفكير الهادىء ـ فى الساعات التى تلت ذلك ـ لم يكن موجودا فى تلك اللحظات النشوانة !.. ومع ذلك ، فهو قد فقدها .. فقدها ! لماذا ؟ أجل ، لماذا ؟.. أكان هناك سبب آخر خلاف ذاك الذى تذرعت به ؟

واستمر صوت المرضة « روزمارى » فى هدوء ، غير مبالية بما يعانى من لوعة حارة .. وكانت قد أوشكت على إنهاء حديثها ، حين قالت : « ويا لجمال عود الورد الأحمر المتسلق يا سيد دالمين !.. كم انا معجبة بفكرة تصوير الورد براعم صغيرة لم تتفتح فى الصورة الأولى ، ثم متفتحة فى أكمل بهاء فى الصورة الثانية ! » . فتجلد « جارث » قليلا وابتسم .. يجب الا يستسلم إلى هذه الفتاة ! ومن ثم قال : « نعم .. اننى مغتبط بهذه الملاحظة التى تبدينها . والآن اسمعى لى .. اننا لن نتلفهما فورا فلا داعى للعجلة ، ما دمنا قد وجدناهما . واخشى أن اكون قد سببت لك إرهاقا كبيرا .. فهل لك ان تطلبى قطعا كبيرة من الورق البنى ، ولفيهما فيها ، واكتبى على الورق : « لا يجوز فتحه » ، ثم أسلمى اللفة إلى مارجرى لتعيدها إلى المرسم .. حتى إذا ما أردت احضارهما ـ فى أى وقت ـ فلن أجد صعوبة فى العثور عليهما » .

واجابته المرضة روزمارى : « لكم أنا مسرورة بذلك ، فلعل السيدة البسيطة الملامح .. » . ولكنه قاطعها قائلا فى حنق : « لا أقبل أن يجرى ذكرها بهذه اللهجة .. فلست أدرى رأيها

فى نفسها ، بل اشك فى انها فكرت يوما فى نفسها .. ولست أعلم ماذا كنت ترين فيها لو انك رايتها ، وكل ما يمكننى أن اقوله ـ فيما يتعلق بى أنا ـ هو أن وجهها هو الوحيد الذى ينير لى ظلمتى ، والذى اراه بوضوح فى كل لحظة . كل ما رسمته من حسن باهر ، وكل جمال اعجبت به قد أخذ يتلاشى من ذهنى وكأنه قطرات الندى .. انه يتطاير من ذهنى كأوراق الخريف .. أما وجهها هى ، فهو الوحيد الذى يتربع فى قلبى ، هادئا ، فى هالة قدسية ، حنونا ، جميلا .. إنه امامى دائما ، وإنه ليؤلمنى ان يصفها امرؤ لم يرها إلا كما رسمتها يدى ، بأنها بسيطة الملامح ! » .

فأجابته المرضة روزمارى فى خنوع : « سامحنى !.. اننى لم اقصد ان اؤلمك يا سيدى .. ولكى أثبت لك ما حل بى إذ رايت هاتين الصورتين ، فسأدلى إليك بعزم ، وطدت عليه نفسى وانا فى المرسم .. ليس فى استطاعتى ان أفوت على نفسى ما يصفونه بأنه « أجمل مباهج الحياة » ، لمجرد افتقارى إلى الشجاعة للاعتراف بالخطأ ، ولأن أخلع عنى كبريائى وأن اتذرع بالصراحة والتواضع .. سأكتب اعترافا كاملا إلى صديقى الشاب ، عن نصيبى من سوء التفاهم الذى فرق بيننا .. اتراه سيفهم ؟.. وهل تظنه سيصفح ؟ » . فابتسم جارث . وحاول أن يتصورها بوجه جميل مكفهر ، يتوجه شعر هش ناعم متهدل ، فاذا بهذا الوجه لا ينسجم مع الصوت .. ولكن ، هكذا كانت المرضة « روزمارى جراى » كما يراها الآخرون ! .. وأجاب أخيرا : « إنه يكون حيوانا إذا لم يصفح يا بنيتى ! » .

الفصل الحادى والثلاثون

كان طعام العشاء ـ فى ذلك المساء ـ هو أول وجبة تناولاها معا على مائدتها المستديرة الصغيرة ، فأسفر عن نجاح كبير ، إذ أن الأساليب التى ابتكرتها المرضة روزمارى ، أفضت إلى نتائج باهرة ، واغتبط « جارث » بالتدابير التى قللت من شعوره بالعجز .. وكان المجهود الذى بذلاه بعد الظهر قد أحدث رد فعل من المرح . وأدت بعض الأسئلة المتزنة ، إلى مزيد من القصص والفكاهات عن الدوقة وطيورها وحيواناتها ، وورد اسم الآنسة شامبيون بكثرة أطربتهما معا !

كانت تجربة عجيبة لجين أن تسمع بأذنيها « جارث » يصفها بكلماته التى تشبه رسمه ، فقد كانت خالية البال تماما من الشعور بذاتها ، حتى تلك الأمسية المنحوسة ـ فى (شيلستون) ـ ولم تكن لديها أية فكرة عن أنها كانت تحدق فى عيون الناس إذا كلمتهم ، وأن هذا كان سر ارتباك « ذوات العقول الفجة ، اللائى كن يقلن انهن يرهبنها ، وأنها تثير أعصابهن »!.. وأنصتت «جين» إلى « جارث » . وهو يمضى فى تصويرها : « ذلك لأنها كانت تلم مباشرة بنفوسهن الضحلة المذبذبة المتقلبة ، المليئة بالغرور فى أنفسهن ، وبالأفكار العقيمة عنها .. فلا عجب إذا أصابهن الذعر ، وولين الأدبار ، وهن يتحدثن عنها بأنها « تلك الآنسة شامبيون الرهيبة » !.. أما انا ، فما شعرت يوما بأنها رهيبة ، بل اننى كنت احمد الله

على أن ليس بى ما أخجل منه ، كلما سنحت لى الفرصة للتحدث إليها ، فان تلكما العينين الصافيتين كانتا تمسان الأعماق فى كل مرة ، كما يعبر أقرباؤنا الذين يمخرون البحار ! » .

كذلك لم يخطر لجين قط أنها كانت تتكلم وهى ممسكة بمحرك نيران المدفأة فى يدها ، إذا أمكن .. وأنها كانت تنسق الوقود فى المدفأة بينما تكون منصرفة إلى تنسيق الحجج فى الجدال .. وأنها كانت تحرك النار بشدة وهى تهدم حجج مجادلها، وكانت تحرك النار بمقدم قدمها ، دون أن تصاب أحذيتها الرشيقة بسوء ، وكانت تقف ممسكة بذقنها وهى تفكر فى أية مشكلة .. كل هذه الخلال الصغيرة شرحها جارث بلمسات حية ، وارتكزت عليها ذاكرته فى إصرار أدهش « جين » . وكشف عن حقيقته فى علاقته معها ـ منذ ثلاث سنوات ـ فى ضوء جديد !.. لقد باح لها بحبه فجأة ، على أن تتخذ فيه قرارا عاجلا، فإما القبول وإما النبذ، لذلك فقد لاح لها ـ عندما قررت استبعاده ـ وكأنه لم يعش وقتا كافيا لأن يصبح جزءا من حياتها .. فقد استعرضت الأمر ، وتثبتت من كل ما كان يعنيه ، ثم أبعدته عنها .. أما الآن، فقد فهمت تماما كيف كان الأمر ـ بالنسبة لجارث ـ نقيض ذلك . إذ انه تحقق تماما ـ أثناء الأسبوع الذى سبق إعلانه حبه لها ـ معنى مودتهما المطردة النمو . وأخذ يمعن فى مزجها بحياته ، كلما ازداد يقينا .. فقد صورها له خياله الخصيب حبيبة له، منذ البداية .. فأحبها وأرادها له ، فى حين أن علاقتهما لم تتجاوز

ـ قبل ذلك ـ مجرد المعرفة ، والصداقة ، والزمالة الروحية .

لذلك فانها تأثرت كل التأثر ، إذ وجدت نفسها تعتلى عرشا قدسيا فى قلبه وذاكرته ، ولاح لها أن هذا يبشر ـ فى ثقة عذبة ـ بأنه لن يكون من العسير أن تعود لتستقر على هذا العرش ، بمجرد أن تزال كل الحواجز التى قامت بينهما .

* * *

وبعد تناول العشاء ، جلس « جارث » أمام البيانو ، وظل يملأ القاعة بالألحان ، وقتا طويلا ، ولقد انسابت انغام انشودة « المسبحة » ـ مرة واثنتين ـ خلال عزفه ، فكانت حين تنصت لها فى شغف وشوق لسماعها، متوقعة أن يستمر . ولكنه ـ فى كل مرة ـ كان يتحول إلى قطعة أخرى .. حتى لاح اللحن أشبه بطيف يلاحق الألحان الأخرى ، دون أن يكون له وجود واقعى !.. حتى إذا بارح « جارث » البيانو، واهتدى بالشريط الأصفر إلى مقعده ، قالت له الممرضة روزمارى بكل لطف : « يا سيد دالمين .. هل تستطيع أن تستغنى عنى بضعة أيام فى نهاية هذا الأسبوع ؟ » . فأجابها جارث : « آه ، ولماذا ؟ .. إلى أين تذهبين ؟ وكم تتغيبين ؟ .. آه ، اعرف انه كان خليقا بى أن أقول لك : « طبعا ، بكل سرور ! » ، بعد كل ما أسديت لى من صنيع ، ولكنى ـ فى الواقع ـ لا أقوى على ذلك ، فلست تدرين كيف كانت حياتى بدونك ، حين تغيبت فى عطلة الأسبوع الماضية ..

لقد لاح لى كأنك غبت أشهرا ، برغم وجود براند هنا .. إنه ذنبك ، إذ جعلتنى لا أستغنى عن وجودك ! » .

وابتسمت الممرضة « روزمارى » وقالت : « أؤكد لك أن غيابى لن يطول ، وإذا رغبت فى عودتى فسأعود ، ولكن يا سيد دالمين .. لقد انتويت على أن احرر الليلة ذلك الخطاب الذى أخبرتك به ، وسأضعه غدا فى صندوق البريد . ولابد من أن أتبعه فورا ، إذا استطعت ، لأكون بجانب فتاى عند استلامه الخطاب ، أو بعد استلامه بلحظات .. وأحسب ، بل ارجو أن يستدعينى فورا .. اليوم الاثنين، فهل يمكننى أن أسافر يوم الخميس ؟ » . فبدت على وجه « جارث » المسكين امارات الهلع ، وتساءل : « أمن عادة الممرضات أن يتركن مرضاهن ، ويهرعن إلى فتيانهن ليستوثقن من وقع خطاباتهن عليهم ؟ » . وكان الاستفسار يجمع بين الاحتجاج والتهكم ، فأجابته الممرضة روزمارى بأدب واضح : « ليس هذا من عادتنا يا سيدى ، ولكن هذه حالة استثنائية ! » .

ـ سأبعث ببرقية إلى براند !

ـ وسيوفد إليك ممرضة اخرى اكثر كفاءة وتمسكا بعملها منى !

ـ أواه ، يالك من صغيرة شريرة !.. لو كانت الآنسة شامبيون هنا ، لهزتك هزا ، فأنت تعلمين جيدا بأن أحدا لا يستطيع أن يملأ مكانك !

ـ ظرف منك يا سيدى أن تقول لى ذلك ، ولكن .. هل كانت الآنسة شامبيون تدين هز الناس ؟

— لا تنادينى بياسيدى .. اجل ، كانت كلما اصطدمت بأشخاص مزعجين ، قالت إنها تود ان تهزهم هزا ، فلا يتمالك المرء ان يتخيل كيف تصطك أسنانهم من ذلك . وهناك سيدة صغيرة — من معارفنا — اعتدنا أن ندعوها السيدة : « اعمل ولا تعمل » . وهى ليست من ثلتنا ، ولكنها كثيرا ما كانت تقحم نفسها عليها، واحيانا كانت تدعى لتناول الغداء، لمجرد الضحك والتسلية . فاذا سألتها عما إذا كانت تحب شيا معينا ، اجابت دائما : « اننى احبه ولا احبه » .. وإذا سألتها عما إذا كانت ستذهب إلى عمل ما ، كان جوابها : « حسنا ، سأذهب او لا اذهب ! » . وإذا أرسلت إليها فى أمر ، وسألتها ردا حاسما صريحا ، وأتاك الجواب : « نعم ولا » .. ومن ثم فقد كانت الآنسة شامبيون تقول دائما إنها تود أن ترفعها من ياقة معطفها الفرائى ، وتهزها وهى تسألها بين كل هزة واخرى ، « هل اكف عن هزك ؟ » ، إلى ان تنتزع منها ردا حاسما .. ولو لمرة واحدة !

— وهل كانت الآنسة شامبيون قادرة على تنفيذ هذا التهديد ؟.. اكانت ضخمة البنيان ؟

فقال جارث : « أجل ، كانت قادرة ، ولكنها ما كانت لتفعل . إذ انها على جانب عظيم من الرقة ، حتى مع التوافه الذين كانت تضحك منهم . كلا إنها ليست ضخمة . إن هذه الكلمة لا تتفق مع وصفها مطلقا . وإنما هى أوتيت وفرة فى الحجم مع تناسق بديع بين الأعضاء . هل تعرفين تمثال « فينوس ميلو » ؟.. اجل ، فى « اللوفر » . يسرنى انك ذهبت إلى

باريس .. حسنا ، تصورى « فينوس ميلو » فى معطف من أحدث طراز وثوب مماثل .. هكذا كانت الآنسة شامبيون ! » .

وضحكت الممرضة « روزمارى » ويبدو انها لم تستسغ « فينوس ميلو » ، أو الآنسة شامبيون ، أو الجمع بينهما !.. بينما أردف جارث قائلا : « لقد وصف ديكى براند الصغير السيدة « افعل ولا تفعل » خير وصف . فقد زارت دار الطبيب بشارع (ويمبول) ، فى اليوم الذى خصصته الليدى براند لاستقبال الضيوف . وكان « ديكى » الصغير يحدثنى ، وهو فى سترته المصنوعة من المخمل الأسود وصدرية بيضاء — فكان بذلك صورة مصغرة لوالده سير دريك — فما ان لمح عن بعد السيدة « افعل ولا تفعل » ، وقد جلست فى مقعد كبير ، حتى أبدى ملاحظته البارعة بقوله : « هذه السيدة لا تعلم شيئا البتة ، وإنما هى دائما تظن .. فقد سألتها مرة عما إذا كان لابنتها الصغيرة أن تحضر حفلتى ، فقالت : « ربما » .. ولو أنها سألتنى عما إذا كنت أحضر حفلتها ، لأجبتها : « شكرا سأذهب ! » . ما أسخف أن « يظن » من أجل أمور هامة كحفلات الأطفال أو غيرها ، لأن الحفلات تقام سواء « ظنوا » أو « لم يظنوا » !.. وليس لرأيهم فى الأمور الجارية العادية — مثل الطقس — قيمة ، لأن احوال الطقس تحدث سواء أبدوا الراى أو لم يبدوه . ولقد سألت أمى تلك السيدة مرة ، عما إذا كانت قد صادفت مطرا عند حضورها فأجابتها : « لبست أظن ! » . ولا أعلم لم تكثر أمى من الاستعلام عن المطر ، فقد سمعتها — بعد ظهر ذلك اليوم — تسأل سبع سيدات على التوالى عن هطول المطر . أما أبى وأنا فلا نفعل

ـ إذا أردنا أن نعرف إذا كان الجو ممطرا أو لا ـ أكثر من أن نخطو إلى النافذة وننظر إلى الخارج ، ثم نعود ونستأنف الحديث فى أمور أكثر أهمية . . أما أمى ، فانها تسألهم عما إذا كان المطر يهطل ، أو إذا كانوا يعتقدون أن المطر كان يهطل ، أو سيهطل بعد ذلك . . فاذا أبدى واحد لها رأيا ، سارعت إلى توجيه السؤال ذاته إلى الباقين . ولقد سألت مرة تلك السيدة « افعل ولا تفعل » عما إذا كانت تعرف والدى الشابة التى تزوجها « قابيل » ، فأجابتنى : « أعرف ولا أعرف » . . فقلت لها : « إذا كنت تعرفين فأرجوك أن تخبرينى ، وإذا لم تكونى تعرفين ، فالأفضل أن ترافقينى لنلقى السؤال على الأسقف ، وهو الرجل ذو الساقين النحيلتين ، الذى يحمل صليبا ذهبيا ويتحدث إلى أمى . غير أن السيدة تملصت منى بحجة أن لديها أمرا هاما . فودعتها ، ووجهت سؤالى إلى الأسقف » . . وإنك لترين أن « ديكى » الصغير قد رسم صورة دقيقة لهذه السيدة ! » .

فضحكت المرضة روزمارى ، وقالت : « ما أدق ما تقلد ديكى ، حتى لأكاد أسمع صوته الرصين وأراه وهو يشد صديريه الصغير إلى أسفل ! » . فسألها جارث : « ماذا ؟! أتعرفين الغلام ؟ » . وكان جوابها : « أجل ، فقد أقمت معهم فترة . ان الحديث مع « ديكى » نوع من التعلم ، فى حين أن الطفل «بلوسوم» مرح ولعوب . ها هو ذا سمسون قد أقبل . ما أسرع ما انقضت السهرة ! . . أفيمكننى السفر يوم

الخميس ؟ » . فأجابها جارث : « لا حيلة لى ، فلست أملك أن أرد لك طلبا . . ولكن ، هبى أنك لا تعودين ؟ » . فقالت : « أبرق ـ إذا ذاك ـ للدكتور براند » .

وهتف جارث بلهجة العتب : « أعتقد أنك ترغبين فى أن تتركينى ! » . فضحكت المرضة « روزمارى » ، وأجابت وهى تسرع خارجة لتتفادى مصافحة يديه المبسوطتين : « أرغب ولا أرغب ! » .

وعندما أغلقت جين حقيبة البريد فى ذلك المساء ، وسلمتها إلى « سمسون » ، ألقت فيها بخطابين منها ، إلى :

جورجينا ، دوقة ميلدرم ، بميدان (بورتلاند) ـ لندن .

والسيدة دريك براند ـ شارع (ويمبول) ـ لندن .

وكتبت على كليهما : « عاجل ـ وفى حالة غياب المرسل إليه ، يلحق به فى مقره » .

الفصل الثانى والثلاثون

مر يوم الثلاثاء ساكنا دون أية أحداث بارزة ، ولم يدر « جارث » أن الممرضة كانت قد قضت معظم الليل ساهرة ، تكتب .. فاذا شاءت أن تستريح ، قضت لحظات طويلة فى تأمل لوحتيه اللتين وجدتا مكانا أمينا مؤقتا ـ قبل إعادتهما إلى المرسم ـ فى خزانة كبيرة فى حجرتها ، كانت تحرص على إغلاقها والاحتفاظ بمفتاحها . وإذا كانت الممرضة « روزمارى جراى » قد لاحظت ـ والألم يمزق قلبها ـ ما اعترى وجه « جارث » من شحوب وإنهاك ، دلا على ما عاناه فى ليلته ـ هو الآخر ـ من ارق شديد واضطراب نفسى ، فانها لم تبد له ما ينم عن ذلك .. وهكذا مر يوم الثلاثاء على وتيرة هادئة ..

وفى الصباح ، تسلمت الممرضة جراى برقيتين .. تلقت الأولى وهى تقرأ صحيفة « التايمز » لجارث بصوت مرتفع ، إذ أحضرها إليها سمسون قائلا : « برقية لك يا آنسة » .

وكان من بواعث زهو سمسون بعد ذلك ـ أنه انساق منذ بداية الأمر ، لما كان يسميه « غريزة لا تخطىء » ، فتجاهل لقب « الممرضة » ، ولم يكن يدعو « جين » إلا باللقب المصطلح عليه « الآنسة » . وقد أوشك أن يقنع نفسه بأنه اكتشف تقريبا أنها « نبيلة » ، ولكن « مارجرى جراى » ابت فى إصرار أن تصدقه . فانها ـ من ناحيتها ـ قد ساورتها الظنون ، بيد انها احتفظت بها فى دخيلة نفسها ، فى حين أن تخمينات سمسون كلها كانت مثار نقاش مستمر فى حجرتها ، ولم يحدث أن ورد يوما ذكر « النبيلة » على لسان سمسون !.. لهذا

فقد عنفته مارجرى لادعائه شيئا لم يحدث . أما الخادم « ماجى » ، فقد كانت داما على ثقة من أن سمسون يضمر أكثر مما يظهر . ولكن مارجرى كانت تصدها بقولها : « تقصدين أنه يقول أكثر مما يعرف ! » . فتجيبها ماجى محتجة : « لا ، اننى أعرف ما أقول ، وقد قلت ما أعنيه » . فترد مارجرى فى إصرار على رأيها : « ربما قلت ما تعنين ، ولكنها لم تعنى ما تعلمين .. وإذا سمعت كلمة أخرى عن هذا الموضوع ، فسأتلوا صلاة اختتام المائدة ، وارفع الطعام ! » . وهكذا وضعت نهاية للنقاش بما كان لها من سلطان ، الأمر الذى وصفه سمسون وماجى ـ فيما بعد ـ بأنه « وضيع » ، لأنهما كانا ما يزالان راغبين فى مزيد من الطعام !

ولكن هذا لم يحدث إلا بعد وقت طويل من يوم الثلاثاء الهادىء ، الذى دخل فيه سمسون إلى حجرة المكتبة وبيده صحيفة ، فقال لجين وهى مستغرقة فى قراءة « التايمز » : « برقية لك يا آنسة » . فتناولت الممرضة روزمارى البرقية ، واستأذنت « جارث » فى الانقطاع عن تلاوة الصحيفة ، ثم فضت البرقية .. وكانت من الدوقة ، وقد جاء فيها : « آسفة لهذا الارتباك كما تعلمين جيدا . ولكننى سأبرح (ايستون) الليلة وانتظر تعليمات أخرى فى ابردين » .

وابتسمت الممرضة « روزمارى » ، ودست البرقية فى جيبها ، ثم قالت لسمسون : « لا رد هناك . شكرا لك يا سمسون » . فسألها جارث : « أرجو الا تكون أخبارا سيئة » . فأجابته الممرضة روزمارى : « كلا ، وإنما تحتم سفرى يوم الخميس .. فالبرقية من عمتى العجوز ، تبلغنى

بأنها ذاهبة إلى دار فتاى .. ويقتضى الأمر وجـودى هنـاك قبل وصولها ، وإلا حدثت مضـاعفات وإشكالات لا نهـاية لها ! » . فعلق « جارث » على الأمر ، قائلا فى كمد ظاهر : « لا أعتقد أنه سيسمح لك بالعـودة بأية حال ، متى رآك هناك ! » . فأجابته وعلى فمها ابتسـامة عذبة . « أتعتقد ذلك ؟ » .. ثم تناولت الصحيفة ، وعادت إلى تلاوة ما بها .

ووصلت بعد الغذاء برقية أخرى !.. كان جارث جالسـا على البيانو يعزف لحن بيتهوفن « مارش جنائزى فى وفـاة بطل » ، وقد راحت الحجرة تهتز بالنغمات العالية ، وإذا سمسون يظهر بوجهه المليح والشعر النامى على فوديه إلى منتصف خديه . ودخل دون جلبة ولا صـوت ، فوضـعت الممرضة اصبعها على شفتيها محذرة ، وتقدمت إليه بخطواتها الصامتة الثابتة ، فتسلمت البرقية ، ثم عادت إلى مقعدها ، وانتظرت حتى انتهى تشييع جنازة البطل على البيانو ، وهمد صوت دقات الطبول المدوية ، ثم فضت غلاف البرقية .. وفى اللحظة ذاتها : حدث ما لم يكن فى الحسبان . فان جارث بدأ يعزف « المسبحة » .. وأخذت حبات اللآلىء تتساقط من يديه ، بينما كانت « الممرضة » روزمارى تتلو برقيتها وتتبين انها من الدكتور دريك . وكان فحواها : « من السهل الحصول على ترخيص خاص . سآتى وفلاور متى رغبت . أبرقى ثانية » .

وعند ذلك كانت معزوفة « المسبحة » قد قاربت ختـامها المحزن ، فسألها جارث : « ماذا أعزف بعد ذلك ؟ » .

ـ أعزف ترنيمة .. « تعالى أيتها الروح الخالقة » !

ثم أحنت رأسها وهى تصلى .

الفصل الثالث والثلاثون

بزغ فجر يوم الأربعاء أول مايو ـ فكان يوما رائعـا .. وهبط جارث فى الحديقة قبل تناوله الفطور . وسمعته جين ـ أثناء مروره تحت نافذتها ـ يغنى :

« ليس لى أن أتغنى أنشودة بالبهاء المهيب .

« الذى تشعه روح حبيبتى السامية على وجهها !؟

فأطلت من نافذتها ، ورأته يسير تحت نافذتها ـ فى أحدث حلة بيضاء ـ بخطوات خفيفة مرنة ، وفى كل حركة من حركاته رشاقة لدنة ، وليس ما ينم عن عماه سوى عصا من خيزران (ملقا) كان يحملها فى يده ، متلمسا بها الحاجز الأخضر أو جدار القصر .. ولم يكن بوسعها أن ترى سوى قمة رأسه الأسود الشعر ، تماما كما حدث حين أطلت عليه وهو فى شرفة قصر (شينستون) ، منذ ثلاث سنوات . وتاقت إلى أن تناديه من النافذة : « حبيبى .. يا حبيبى ! عم صباحا .. بارك الله يومك ! » .. آه ، ترى ما الذى يتمخض عنه هـذا اليوم .. اليوم الذى يتلقى فيه اعترافها الكامل . وإيضاحاتها، وتوسلاتها كى يصفح ؟ ـ لقد كان فتى يافعا فى كثير من عاداته .. كان مرهف القلب ، موفور الحب، ذا روح فنية ، شاعرية، لا تقبل الضيم .. كان صغيرا برغم حبه العظيم . أما فيمـا يتعلق برجولته ، وحبه ، وحقه المطلق فى الاختيار وفى البت، وفى تمسكه بالرأى الذى يكونه بعد دراسة عميقة ، مطرحا عنه كل رأى للغير متى بدا له أقل قيمة .. كان فى كل هذا صلبا

لا ينثنى . وكأنما كان الألم نفسه بردا وسلاما ، بل كان الألم يحوله من عاشق مصهور القلب ، إلى قضيب من الصلب .

وعندما جئت « جين » أمام نافذتها — فى هذا الصباح — لم يكن ليدور بخلدها أو تدرك ما الذى سيتكشف عنه المساء .. هل ستكون فى طريقها إلى (ابردين) ، لتستقل قطار الليل إلى الجنوب أو تستقر نهائيا فى مرفأ حب « جارث » ؟

وكان الصوت الحبيب ما يزال يغنى فى الحديقة :

« إنما لى أن أسير فى ركابها ..

« وأنفذ مشيئتها فى الفرح والألم ..

« وأحرق على مذبحها بخور الحب الشذى ..

« واعبدها عن بعد فى خشوع » .

فهمست جين : « أواه أيها المحبوب ، ليس عن بعد إذا كنت تريدها .. وما عليك إلا أن تناديها فتكون لك ، على أقرب ما يمكن للحب أن يقرب بين حبيبين . ولن يعود بينك وبينى أى بعد ! » . ثم — وبالطريقة العجيبة التى تقفز فيها إلى العقل كلمات ذات قيمة قدسية ، فى غير مناسباتها الأصلية ، لتوحى بمعان تختلف تماما عن معانيها — هبطت الكلمات التالية على ذهن جين فنطقت بها : « لأنه هو سلامنا ، الذى جمع الاثنين فى واحد ، وهدم الجدار الفاصل بيننا .. عسى أن يصلح بيننا ، بفضل الصليب » . وأردفت هامسة : « يا يسوع الحبيب ! إذا كان صليبك قد فعل هذا اليهودى والوثنى ، افلا يمكن للصليب الثقيل الذى حمله فتاى العزيز فى شجاعة ،



فاطلت من نافذتها ، ورأته يسير تحت نافذتها — فى أحدث حلة بيضاء — بخطوات خفيفة مرنة ..

أن يفعل ذلك له ولى ؟.. وبذلك يتسنى لنا ـ أخيرا ـ أن « نقبل الحليب » معا ! » .

ودوى ناقوس الفطور فى الدار ، فقد كان سمسون يحب نواقيس إعلان أوقات الوجبات ، ويعتبرها « تقليدا تاريخيا » ، فكان يصر على التمسك بها !.. وهبطت المرضة «روزمارى» لتناول الفطور . ووافاها جارث من الشرفة ، وهو يغمغم لحن : « ألف جمال أعرفها جيد المعرفة » . وكان فى أقصى حالات الغبطة والمزاج المنطلق ، وقد التقط من بين الزهور برعوم وردة ذهبية اللون ، وغرسه فى عروة سترته ، بينما حمل فى يده وردة صفراء . وما أن دخل حتى قال لها : « سعدت صباحا يا آنسة روزمارى .. يا له من يوم جميل من أيام الربيع .. لقد خرجت مع سمسون حين غادرت الطيور أوكارها .. أليس كذلك يا سمسون ؟ .. مسكين سمسون ، فلقد أزعجه رنين جرسى الكهربائى فى حجرته ، فى الساعة الخامسة صباحا ، فاننى لم أحتمل البقاء طويلا فى الفراش .. لقد استيقظت وفى نفسى شعور بأن شيئا يوشك أن يحدث . وقد اعتادت « مارجرى » أن تقول ، عندما كنت أستيقظ بهذا الشعور فى صغرى : « انهض يا سيد جارث ، فكلما عجلت بالنهوض ، عجل الأمر بالحدوث ! » . سلها يا سمسون تنبئك ! .. هل تنكرين يا آنسة جراى ذلك القول المشهور : « إذا استيقظت مبكرة ، فأيقظينى ، أيقظينى يا أمى العزيزة ! » .. لقد اعتدت أن أكره الشابة صاحبة هذا القول ، إذ يخيل لى أنها فى انفعالها كانت تستيقظ قبل أمها المسكينة التى كانت ولا بد مضناة مرهقة ! » .

وانتظر سمسون حتى قاده إلى مقعده بجوار المائدة ، ثم رفع الأغطية عن الصحاف ، وخرج . وما أن أغلق باب الحجرة خلفه ، حتى انحنى جارث فى مقعده ، وبدقة وضع الوردة المتفتحة على طبق المرضة روزمارى وهو يقول لها : « الورد لروزمارى .. ثبتيها على صدرك إذا كنت واثقة من أن فتاك لا يعترض على ذلك . لقد شغل بالى بالتفكير فيه وفى العمة ؛ وتمنيت لو أنك دعوتهما للحضور إلى هنا ، بدلا من السفر إليهما يوم الخميس ، فكنا نقضى أبهج وقت حافل بالمرح الصاخب .. كنت ألعب مع العمة ، بينما تلهين أنت مع الشاب خارج الدار . ومن السهل أن أتحايل على حجز العمة من التسلل خلفكما فى الأركان والمخابىء ، بما أوتيت من موهبة السمع المرهف الذى يفوق سرعة نظرات العمات .. فإذا سمعت منك سعلة لطيفة، سارعت إلى التشبث بالعمة، مصرا على أن تقودنى إلى ركن آخر بعيدا عنكما . وقد أرافقها فى نزهة بالسيارة بينما تذهبين مع الشاب فى نزهة بالقارب . وبعد أن يقضيا معنا مدة . نتم فيها تسوية كل الأمور على أحسن وجه ، نحزم أمتعتهما ونودعهما ، ثم نعود معا إلى هنا .. أواه يا آنسة جراى ، هلا كتبت لهما كى يحضرا بدلا من سفرك يوم الخميس ؟ » .

فانحنت المرضة روزمارى ، وقالت له فى لهجة مشبعة باللوم وقد لمست يده بحافة طبقها : « يخيل إلى ـ يا سيد دالمين ـ أن هذا الصباح ، وهو يوم مايو الجميل ، قد أثر فى عقلك .. وسأطلب مارجرى فربما كانت تعرف الأعراض منذ

القدم ! » . فقال لها جارث وقد انحنى بقامته إلى الامام ، وأخذ يحدثها وكأنه يبوح لها بسر : « ليس الأمر كما تخالين ، فان شيئا سيحدث اليوم يا صغيرتى روزمارى ، فما من مرة هفا بى هذا الأحساس الدافق إلا حدث شيء ما .. وكانت أول مرة منذ خمسة وعشرين عاما ، إذ كان لى حصان متأرجح فى البهو الكبير ، أقفز عليه كلما نزلت إلى البهو . ولست أنسى أول مرة امتطيت فيها هذا الحصان المتأرجح .. كنت أشعر بابتهاج يشوبه خوف كلما مال إلى الوراء ، وكنت أخالنى أغوص فى الهواء كلما مال إلى الأمام ، وكنت أشعر بخيلاء كلما تمكنت من أن أكف عن التشبث بمقبضه الجلدى .. ومرة كدت أفتك بابن عمى لأنه خلع ذيله ، فرحت أسوطه بالذيل .. وما أسخف ما فعلت ، فقد أتلفت الذيل فضلا عن أننى قد آلمت ابن عمى . وفى مرة أخرى .. آه ولكنى أشعر بأننى قد ضايقتك « بثرثرتى » . فأجابته المرضة روزمارى بكل لباقة: « أبدا .. كل ما أرجوه هو أن تتناول إفطارك ، فسوف يصل البريد بعد لحظات ! » .

***

وبدأ وجه جارث متألقا ، شديد السمرة .. يا لهذا الغلام المرح العزيز ، وقد تاه بربطة عنقه البنية المشوبة بظلال ذهبية ، وبوردة صفراء ثبتها على صدره . وشعرت جين بما انتابها من شحوب ، وبما كان فى صوتها من توجس حين قالت : « فسوف يصل البريد بعد لحظات » . ولكن جارث صاح : « آه ، دعك من البريد ، ولنقض يوما مرحا ، نستريح

فيه من فض الخطابات أو تلاوتها .. ان اليوم « يوم مايو »، وستقومين أنت بدور « ملكة مايو » ، ونجعل من مارجرى الأم العجوز ، بينما أمثل أنا دور «روبين» ، ذى القلب الكسير ، الذى مال برأسه على حافة الجسر ، تحت شجرة البندق .. أما سمسون فسيقوم بدور الصبى الكبير .. ونذهب جميعا لنقطف الزهور والبراعم ونصنع منها أكاليل زاهية بهجة ! » .

فأجابته المرضة روزماى ، وهى تضحك بالرغم مما كانت تحس به : « يا سيد دالمين ، يجب أن تعود إلى رزانتك وإلا لجأت إلى مارجرى لأستشيرها فى الأمر ، فما عهدتك قبل اليوم فى مثل هذا المزاج » . فأجابها جارث : « لأنك لم تريني قبل اليوم فى يوم كنت أرتقب أن يحدث فيه أمر هام » . وصمتت المرضة روزمارى ، ولم تحاول التضييق عليه أكثر من ذلك .

وبعد انتهاء الافطار ، ذهب « جارث » إلى البيانو ، فعزف بعض الالحان الراقصة الخفيفة ، التى سرت عدواها فى الجو ، حتى أن سمسون لم يتمالك نفسه ، فأخذت قدماه تخطوان فى انتظام موسيقى ، وهو ينظف أدوات المنضدة . أما المرضة روزمارى ، فقد كانت فوق مقعدها شاحبة الوجه قلقة البال ، وأمامها حزمة من الخطابات شغلتها عن تحريك قدميها .. وحمل « سمسون » غطاء المنضدة ، وسار إلى الباب ـ على نغمات الموسيقى ـ ثم خرج ، وأغلق الباب خلفه .. ولم تكن المرضة روزمارى قد تلقت جوابا عما ذكرته على مائدة الافطار عن حزمة الخطابات وفضها وتلاوتها . وما لبثت أن انساب ف

أرجاء الحجرة صوت البيانو وهو يعزف قطعة « تألقى أيتها الذبابة المضيئة الداكنة » ، كرنين أجراس من الفضة . وإذا بالباب يفتح وتظهر مارجرى العجوز فى فراغه ، وعليها مرولة حريرية سوداء ، وقبعة زرقاء . وتقدمت نحو البيانو ، فوضعت يدها على ذراع جارث وقالت : « يا سيدى جارثى — فى هذا اليوم الجميل — أول مايو — هل لك يا سيدى جارثى أن تصطحب مارجرى العجوز إلى جولة فى الغابات ؟ » . فتوقف « جارث » عن عزف البيانو ، وقال لها : « طبعا ، سأفعل ذلك يا مارجرى .. وبهذه المناسبة يا مارجرى ، أخبرك أن شيئا ما سيحدث اليوم ! » . فقالت مارجرى العجوز بحنان ، ووجهها يشرق — وهى تنظر إلى الوجه الأعمى الحبيب — بتعبير ملأ عيون « جين » بالدموع : « أعلم ذلك يا صغيرى ، فقد استيقظت اليوم وأنا أحس بذات الشعور يا سيدى جارثى .. والآن هيا بنا إلى الغابات لنصغى إلى صوت الأرض والأشجار والزهور .. فانها جميعا ستنبئنا عما إذا كان ما سيحدث اليوم أمر مفرح أو محزن .. هيا يا ولدى الحبيب ! » .

ونهض جارث وكأنه فى حلم .. وبدا — رغم عماه — غض الشباب ، مفرط الجمال ، حتى أن قلب « جين » كاد يجمد ساكنا ، وهى تتأمله .. وعند النافذة ، توقف عن السير وهو يقول بلهجة مبهمة : « أين هى كاتمة السر تلك ؟ .. لقد كانت تلح على فى أن أبقى سجينا بين الجدران !» .فقالت له مارجرى العجوز ، وهى تومىء فى اعتذار نحو جين : « أعلم أنها فعلت

ذلك يا بنى ، ولكنك تعلم بأنها لا تعرف شيئا عن اليوم الذى تستيقظ فيه شاعرا بأن شيئا ما يوشك أن يحدث ! » .

وقالت « جين » لنفسها ، وهى تنفذ إلى الشرفة : « أحقا هى لا تعرف ؟ » .. ثم أردفت : « ما دام حبيبى جارث قد فقد رأسه العزيز ، وأسلم قياده إلى مربيته لينطلقا إلى الخارج ، فان « الشىء الذى سيحدث » لن يحدث بعد .. » . ثم جلست جين إلى البيانو — بعد خروج جارث ومارجرى — ومرت بأصابعها عليه ، موقعة لحن « المسبحة » . ثم ذهبت إلى الشرفة ، وظلت عينيها بيدها ، حتى استوثقت من أن القوام المشوق الملتف فى ثياب بيضاء ، قد أوشك أن يبلغ قمة التل ، متابطا ذراع المرأة القصيرة السمراء .. وإذ ذاك ، عادت إلى البيانو ، وبدأت تعزف « المسبحة » .

وخرجت — بعد ذلك — فى نزهة عند برك الماء ، ريثما استردت هدوء أعصابها بالسير بخطوات واسعة، واستنشاق النسيم العليل بعمق .. وأعادت تلاوة البرقية — التى كانت فى جيبها — مرات ، ثم أسرعت الخطى إلى جوف الغابة وهى تردد العبارة : « يسهل الحصول على ترخيص خاص » .. آه ، قد يكون الترخيص أمرا ميسورا ، ولكن .. ماذا عن الغفران ؟.. يجب الظفر به أولا . فلو أن الأمر اقتصر على هذا الفتى العزيز ، فى ثيابه البيضاء ووروده الصفراء ، وهذا الجنون الذى بثه فى عروقه أول أيام مايو ، لجاز الحصول على ترخيص الزواج فورا ، ولأمكن تحقيق كل رغباته فورا .. ولكن هذه الناحية من نواحى شخصية « جارث » ناحية

عابرة . ولكنها كانت مضطرة إلى أن تعالج الأمر مع الرجل صاحب الوجه الأبيض الشاحب ، الذى قال فى عزم وتصميم : « سأحمل صليبى » ، وسار مغادرا كنيسة القرية ، وابتعد عنها طوال تلك السنوات .. ذلك الشخص الذى كان يحبها حبا ملأ قلبه ونفسه ، ولكنه ــ مع هذا الحب الجارف ــ تركها دون كلمة أو إشارة ، ثلاث سنوات طويلة .. إلى هذا الرجل يرفع الاعتراف ، وستكون كلمته هى القرار الحاسم .. وكيفما يكن الأمر ، فانها لم تدهش عندما راته جالسا إلى المائدة ــ عند عودتهما لتناول الغداء ــ وقد تأخرت قليلا ! .

* * *

وإذ شعر بها تلج القاعة ، قال فى لهجة رصينة : « يجب ان أعتذر لك ــ يا آنسة جراى ــ عن مسلكى فى هذا الصباح ، فقد كنت « مسوقا وراء المجهول » .. ومارجرى تفهم تماما هذه النزعة ، وقد استمعنا ــ هى وأنا ــ إلى أمنا الأرض ، ولمسنا بأيدينا طراوتها الحنون ، وكاشفتنا بمكنون سرها .. ثم اضطجعت تحت أشجار الشربين ، واستسلمت إلى نوم عميق استيقظت منه هادىء النفس ، موفور الصحة ، مستعدا لاستقبال ما يأتى به اليوم من أحداث ، فلسوف يأتى اليوم بأمر ما ، وليس هذا بوهم ، فاليوم يوم أحداث جسام .. كل هذا تعرفه مارجرى هى الأخرى ! » . فأجابت الممرضة روزمارى : « ربما .. وقد يكون فى بريد اليوم انباء هامة » . فقال جارث : « آه ، فاتنى ذلك .. اننا لم نفض

بريد اليوم ، فلنقم بذلك بعد الغداء مباشرة .. هل الخطابات كثيرة ؟ » .. فأجابته الممرضة روزمارى : « انها حزمة كبيرة ! » .

وبعد نصف ساعة ، جلس « جارث » فى مقعده فى هدوء وترقب ، موليا وجهه شطر كاتمة أسراره . وتناول خطاباته ، فتحسسها ، وإذا بينها خطاب مختوم بخاتم يحمل شارة القبعة والريشة وقناع حديدى .. ولمحت الممرضة روزمارى وجهه يشحب لدى تحسسه الخاتم . ولم يبد أية ملاحظة .. ولكنه وضع الخطاب فى آخر الرسائل ، لكى يكون الأخير فى القراءة .. فلما تم الاطلاع على الخطابات الأخرى ، أمسكت الممرضة روزمارى بالخطاب المختوم ، فساد الحجرة سكون عميق .. وكأنا وحيدين ، وطنين النحل ينبعث من الحديقة ، وعبير الزهور يتسلل من النافذة .. ولم يزعج وحدتهما أحد. ثم تناولت الممرضة روزمارى الخطاب ، وقالت : « هذا خطاب مختوم بالشمع الأحمر يا سيد دالمين ، وعلى الخاتم شعار قبعة وقناع و .. » . فقاطعها جارث : « أعرف كل هذا ، فلا داعى لإيضاح .. الا تفضلت بفضه ؟ » .

ففضت الممرضة روزمارى الخطاب ، وقالت : « انه خطاب طويل جدا يا سيد دالمين » . فهتف : « حقا ؟! .. هل لك يا آنسة جراى أن تقرئيه على ! » .. وأعقبت ذلك لحظة من الصمت الممض ، ثم رفعت الممرضة روزمارى الخطاب. غير أن صوتها ابى ــ فجاة ــ أن يستجيب لإرادتها ، بينما كان « جارث » ينتظر فى إصغاء . وما لبثت ان قالت : « يلوح يا سيدى انه خطاب شخصى سرى ، وأرى من العسير على

ان اقراه عليك ! » . وأدرك جارث من صوتها مدى حرجها ، فاتجه إليها بلطف ، وقال : « لا بأس يا بنيتى العزيزة ، فليس هذا من شأنك . انه خطاب خاص بى ، ولكن وسيلتى لمعرفة فحواه ، هي استبداع ما تراه عيناك وما تنطق به شفتاك . ثم ان السيدة صاحبة الشعار ذى القبعة والريشة ، لا تملك سرا خطيرا تبلغنى إياه ! » .

وقالت الممرضة روزمارى ما يأتى فى صوت متهدج : « آه ، بل لديها ! » . فوجم جارث برهة ، ثم قال لها : « إذن ، فاقلبى الصفحة واقرئى التوقيع » . فكان جوابها : « إن الخطاب من صفحات عديدة » . وهنا قال فى حدة : « أقلبى كل الصفحات ، ولا تدعينى انتظر طويلا .. ما هو توقيع الخطاب ؟» . فأجابته الممرضة روزمارى فى همس: «زوجتك» !

وشمل المكان صمت رهيب ، وكأنما احالت الكلمة ـ التى همست بها الممرضة ـ جارث الأعمى إلى حجر صلد . وما لبث أن مد يده قائلا : « هل لك ان تعطينى هذا الخطاب يا آنسة جراى ؟ شكرا لك !.. احب ان أختلى بنفسى نحو ربع ساعة . وأكون ممتنا لو تفضلت بالانتظار فى قاعة الطعام، على الا يزعجنى أحد .. وبعد انتهاء هذه البرهة ارجو أن تعودى ! » .

وكان يتكلم فى هدوء واتزان وجف لهما قلب جين ، ولو انه أبوى شيئا من الانفعال ، لاطمأن بالها .. فهذا هو الرجل الذى احنى رأسه ذا الشعر الأسود اللامع ، أمام صورة الصليب ـ على نافذة كنيسة القرية ـ قائلا : « اننى أتقبل

الصليب » .. وهو الرجل الذى لم تتعثر خطواته حينما سار من عتبة الهيكل ، وتركها .. هذا هو الرجل الذى أوتى المقدرة ـ من ذلك الحين ـ على أن يعتبر تلك الفترة من علاقتهما منتهية ، فلا كلمة استعطاف ، ولا اثر للذكرى ، ولا إشارة لوم . هذا هو الرجل الذى وقعت خطابها له بكلمة « زوجتك » .

ولم تكن جين قد شعرت بخوف طوال حياتها ، ولكنها عرفته إذ ذاك . وعندما نهضت فى سكون وتركته ، اختلست نظرة إلى وجهه ، فاذا به يجلس جامدا والخطاب منشور بين يديه . ولم يكن قد ولاها وجهه حين تسلم منها الخطاب ، فلاح المنظر الجانبى لوجهه كما لو كان تمثالا جميلا منحوتا من العاج الابيض . فلم تكن ثمة لمحة من لون فى وجهه .. مجرد عاج شاحب ، يتخلله أبنوس تمثل فى حاجبيه وشعره الأسود الناعم !.. وفى رفق ، غادرت الحجرة ، واغلقت الباب خلفها.

***

ومرت بها اطول خمس عشرة دقيقة فى حياتها .. كانت تعلم رهبة المعركة الهائلة التى تحتدم داخل تلك الحجرة الساكنة ، فقد كان جارث يسعى إلى البت فى الأمر ، دون أن يسمع اية حجة . انه لم يسمع ـ فى إصراره الغريب الرهيب ـ سوى كلمة واحدة من خطابها ، وهى عقدة الخطاب .. هى التى صيغ الخطاب كله بعناية ليفضى إليها . ولا بد انها كشفت له ـ نورا ـ طابع الخطاب ، وهدف السيدة التى حررته !

وأخذت جين تذرع حجرة الطعام فى خطوات سريعة ، وفى هم وقنوط ، وهى تذكر الساعات التى قضتها فى التفكير وفى صوغ الجمل . لتهيىء عقله ــ فى حذر ــ لما سيتكشف عنه التوقيع .

وفى غمرة اضطرابها الذهنى ، واتتها ذكرى حديث دار بين الممرضة روزمارى وبين جارث عن الصورتين . إذ تساءلت الأولى : « أهى زوجة ؟ » ، فأجابها جارث : « نعم » . فأدركت جين لتوها ما كان هذا الرد يكشفه ويتضمنه . ذلك لأن جارث كان قد استوثق من أنها له ، فى تلك اللحظات الرائعة التى قضياها فى شرفة قصر (شينستون) ، إلى درجة أنه تطلع إليها ، وناداها : « يا زوجتى » ، لا بلهجة المستفسر . وإنما تقريرا لأمر واقع قاطع .. وهو لا يزال يضعها فى هذا الموضع ، لا يحلها منه .. تماما كما لو أن قسا وكتابا وخاتما تضافروا على توحيد حياتهما بالزواج ! ..

لقد كان اتحاد الروحين ــ فى رأيه ــ مقدما على ما عداه . فاذا تم هذا الاتحاد ، فكل ما يتبعه من إجراءات التوثيق ليست سوى مراسم تعزز أمرا تم فعلا . ولقد أدى خوفها ، وعدم اطمئنانها ، وتغرير أفكارها بها ، أن الإجراءات لم تعقب الاتحاد . فافترقت حياتاهما ، وذهبت كل منهما فى وجهة غير وجهة الأخرى . أما هو ، فقد اعتبر أنه لا يعدو ــ فى نظرها ــ أن يكون مجرد فرد من معارفها . وكان خلال السنوات الثلاث يعتقد أن دورها فى ذلك القران الروحى ــ الذى عقداه فى تلك الليلة ــ لم يوجد إلا فى خياله هو فقط ، فهو لا يقيدها

بشىء .. أما هو ــ جارث ــ فقد ثبت على عهده ، لأن الكلمات التى قالها فى تلك الليلة ، كانت من ناحيته حقيقة وصدقا ، ومن ثم فقد قالها .. ولأنه قالها ، فقد أصبح يعتبر « جين » زوجته فى الحياة وما بعد الحياة .. وكان تفهم هذا المنطق ــ بالغريزة ــ هو الذى شجع جين على أن توقع الخطاب بتلك الكلمة !. ولكن ، كيف السبيل إلى التوفيق بين ذلك التوقيع ، وبين الفكرة التى أوحى إليه بها تصرفها ، فلم تدع له أى أمل فى أى تحول ؟!

وتذكرت جين ــ إذ ذاك ــ بارتياح ، ذلك الالحاح الذى أبداه « الصدق » فلم تقو على مقاومته روح الفنان .. صدق الخطوط ، وصدق الألوان ، وصدق القيم والمقاييس .. وفى عالم الصوت ، صدق النغم ، والتوافق ، والترديد ، والغاية .. فلما وصفت الممرضة « روزمارى » صورة « الزوجة » بأنها نصر للفن ، أجابها جارث بقوله : « بل هى نصر للصدق والحقيقة ! » . وكان تعليق « جين » ــ فى نفسها ــ على النظرة التى استشفها فى وجهها ، هو : « أهذا حق؟.. أجل. إنه حق ! » . فهل يعز عليه الآن أن يتبين صدق ذلك التوقيع. لماذا تبينه ، أفلا يفرح ــ فى وحدته ــ بأنه تعود إليه زوجته؟ .. ما لم يدفعه ما فى خطابها من اعترافات ، إلى أن يقصيها عنه ، ولا يحسب لها حسابا !!

وفجأة تبادر إلى ذهن جين أن هناك ميزة عظمى ، وهى أنه سيطلب ولا ريب سماع كل كلمة وردت فى خطابها ، فما كان عليه بختام الخطاب ليحول دون اطلاعه على فحواه . وعند

ذلك تجلى لها ان يدا علوية قد رتبت كل ذلك ، ثم قالت فى نفسها ، وهى تحصى الدقائق التى كانت تزحف فى بطء شديد: « لقد هدم الجدار الفاصل بيننا ! » ، فغشيتها طمأنينة ناعمة ، واستكن السلام فى روحها .

ومر ربع الساعة .. واجتازت « جين » البهو بخطوات ثابتة صامتة ، ثم تمهلت قليلا خارج الباب ، ريثما استعادت حواسها ورباطة جاشها . وفتحت الباب .. وعادت الممرضة روزمارى إلى المكتبة !

الفصل الرابع والثلاثون

كان « جارث » واقفا امام النافذة المفتوحة ـ حين عادت الممرضة روزمارى إلى الحجرة ـ فتمهل قليلا قبل ان يعود إلى مواجهتها .. وتفقدت الخطاب فى قلق ، فوجدته منشورا لها على المنضدة ، امام مقعدها . وتبينت عليه آثار تغضن ضغط شديد ، وكأن يدا كورته والقت به إلى سلة المهملات . ثم اعيد نشره وسويت اوراقه بعناية ، ووضع حيث كان مجلسها .. وكانت تتجلى على وجه جارث ـ حين ارتد من النافذة إلى مقعده ـ علامات صراع شديد ، وظهر كرجل يجاهد فى نضال ليرى ما امامه ، برغم انه فاقد الابصار .. وقد اختفى الشحوب العاجى ، إذ احمر وجهه .. كما تشعث شعره الذى كان غزيرا ، يحيط بجبينه واعلى صدغيه بعناية .. غير ان صوته كان متزنا حين التفت إلى كاتمة سره قائلا : « امامنا مهمة شاقة ، يا عزيزتى الآنسة جراى .. لقد تسلمت خطابا ارى من المحتم على ان اسمع فحواه ، وانا مضطر إلى ان اسالك ان تقرئيه على .. إذ لا يمكننى بأى حال ان اعهد إلى شخص سواك بذلك . ولا يسعنى ان انكر ان هذه المهمة ستكون قاسية واليمة عليك ، إذ ستجدين نفسك وسيطة بين قلبين جريحين كسيرين . ولكى ايسر عليك احتمال المهمة يا فتاتى الصغيرة ، العزيزة ، اؤكد لك اننى لا اعرف فى العالم شخصا سواك استطيع ان اسمع من شفتيه ـ باقل الم ممكن ـ ما سيتلى على .. ولا توجد ـ بعد

فقدانى بصرى ـ عينان غير عينيك اسمح لها بأن تلها بهذه السطور ، وأنا غير كاره .. ولا يوجد عقل آخر غير عقلك ، أضع فيه كامل ثقتى ـ دون تردد ـ ليترفق فى الحكم على وعلى كاتبة الخطاب ، ثم ينسى فى إخلاص صادق ، كل ما لا يقبل كلانا أن يصل إلى علم شخص ثالث ، مما جاء بهذا الخطاب .

فأجابته الممرضة روزمارى : « شكرا لك يا سيد دالمين » ، وإذ ذاك ، اضطجع « جارث » فى مقعده وقد حجب وجهه فى راحته ، وقال : « إذن ، فأرجو أن تشرعى » .. وبدأت الممرضة روزمارى تقرأ فى وضوح وهدوء :

« عزيزى جارث : « أما وقد رفضت حضورى إليك ، لأدلى إليك ـ فيما بيننا ، على انفراد ـ بكل ما يجب أن يقال ، فانى أرانى مضطرة لأن أسطره لك .. انها غلطتك يا دالى ، وها نحن نتحمل العقاب معا ، إذ كيف يمكننى أن أكتب لك بكل حرية ، وأنا أعرف أنك إذ تنصت إلى تلاوة هذا الخطاب ، ستتبين ـ عند كل كلمة اكتبها لك ـ اننى اقحم شخصا ثالثا على ما كان ينبغى أن يبقى سرا دفينا بينك وبينى وحدنا! .. ومع كل ، فلا بد لى من أن اكتب لك بصراحة تامة ، وأن أجعلك تفهم كل الفهم ، لأن مستقبل حياتك وحياتى يتوقفان على ردك عن هذا الخطاب . سأكتب لك كما لو كنت ستأخذ الخطاب بين يديك وتقرؤه بنفسك ولنفسك . ومن ثم ، فما لم يكن بوسعك أن تطمئن تماما إلى كاتمة سرك ، وأن تأتمنها على أسرار قلبك وقلبى ، فاطلب منها أن تعيد الرسالة إليك قبل

ان تتمكن من تلاوة الصفحة الأولى ، ودعنى أحضر بنفسى لأخبرك بكل شىء .. » .

وهنا قالت الممرضة روزمارى : « هذه نهاية الصفحة الأولى » . وظلت تنتظر ، فلم يحرك جارث يده ، بل قال : « انى اثق بكاتمة سرى تمام الثقة ، ولا اريد حضورها هى !» . فقلبت الممرضة روزمارى الورقة وبدأت تقرأ الورقة التالية :

« أحب ان تتذكر يا جارث ان كل كلمة اكتبها ، هى الحقيقة المجردة من كل تنميق . ولو عدت بفكرك إلى ما تذكره عنى . فستسلم بأننى لست ـ بطبيعتى ـ كاذبة ، ولست منافقة مراوغة .. غير اننى كذبت عليك ـ يا جارث ـ مرة واحدة ، وهذا الاستثناء المشئوم يؤكد الالتزام التام للصدق ، وهو ما كان دائما رائدنا معا ، وما اضرع إلى الله ان يبقى بيننا ابد الدهر . واعترافى الذى أسطره هنا ، خاص بتلك الأكذوبة الوحيدة .. ولا حاجة بى لأن أسالك أن تقر ما فى اضطرارى إلى أن اغصب رجلا رفض ان يتقبلنى صديقة زائرة ، على أن يسمع اعترافى ، من إذلال لكبريائى . ولا بد انك تذكر أننى لست ذليلة بطبيعتى ، وأننى على قدر كبير من الكبرياء الحق .. ولعلك تستطيع أن تتخذ من ضخامة الجهد الذى أبذله مقياسا لتعرف مدى حبى . فليساعدك الله فى هذا يا عزيزى .. يا حبيبى .. يا فتاى الوحيد المسكين ! » .

وتوقفت الممرضة روزمارى عن القراءة فجأة ، إذ ان جارث نهض من مكانه ـ لدى هذا الذكر الباعث للحب ، ولدى سماعه كلمات جين العاطفية ، غير المرتقبة ، وخطا خطوتين

نحو النافذة وكانه يريد الفرار من شىء اضخم من ان يقوى
على مواجهته . ولكنه تمالك نفسه ـ بعد لحظة ـ وعاد
إلى مقعده ، وغطى وجهه بيديه . ومضت الممرضة روزمارى
فى تلاوة الخطاب :

« أواه .. يا للخطأ الجسيم الذى ارتكبته بالنسبة لك
ولنفسى معا ! .. هل تذكر تلك الأمسية التى التقينا فيهـا ،
فى شرفة قصر (شينستون) يا عزيزى ، وسألتنى « أن أكون ،
بل دعوتنى .. فكنت .. زوجتك ؟ » .. ها انذى يا جارث
استبقى هذه العبارة الأخيرة كما هى ، بما حوته من محاولتين
نحو بلوغ الصدق .. لن احذفهما أو اعدلهما ، بل اتركهما
ليقرأ عليك .. لأننى ـ كما ترى يا جارث .. قد وصلت إلى
ما اهدف إليه .. لقد كنت زوجتك ، ولم ادرك هذه الحقيقة
وقتئذ ، إذ أن المفاجأة كانت شديدة ، وكنت جاهلة ـ إلى
درجة لا تصدق ـ بالمسائل العاطفية .. فاذهلنى فيض
المشاعر الذى جرفنى ، واوشك ان يحتوينى . ومع ذلك ، فقد
ادركت ـ إذ ذاك ـ ان روحى قد هبت ونادت بك اليفا وسيدا .
وعندما ضممتنى ، واسندت راسك المحبوب فوق قلبى ، عرفت
ـ لأول مرة ـ معنى النشوة والافتتان .. وما كنت لأسأل
السماء نعمة اكرم من ان تطول تلك اللحظات إلى ساعات ! » .

وتهدج فجأة صوت الممرضة روزمارى الهادىء ، فتوقفت
عن القراءة . وكان جارث يميل إلى الأمام ، وراسه دفين فى
راحتيه ، وقد انبعثت من حلقه شهقة ، خشنة ، فى ذات اللحظة
التى تداعى فيها صوت الممرضة روزمارى .. على أن جارث

كان الأسبق إلى استرداد جأشه . فبسط يده عبر المنضدة ،
فى عطف وحنـان ، وهتف دون أن يرفع راسـه : « يالك من
مسكينة ! انى شديد الأسف ، فالأمر اقسى من أن تحتمليه .
ليت الخطاب قد وصل فى وجود براند هنـا . وإن أسفى
ليشتد إذ اضطر إلى أن اطلب منك الاستمرار فى القراءة ..
ولكن ، حاولى أن تقرئى الكلمات دون استيعاب معانيها، ودعى
هذا لى ! » . فعاودت الممرضة روزمارى القراءة :

عندما رفعت راسك فى ضياء القمر وصوبت نظـراتك
بشوق ولهفة ـ إلى . أواه ! يا لتلكما العينين !.. لقـد
جعلتنى نظراتك افطن إلى نفسى فجأة ، فاجتاحتنى إدراك لمـا
أنا عليه من بساطة بالغة فى الملامح ، ولمدى ضآلة ما كانت
تتطلع إليه تلكما العينان العـزيزتان .. لم يكن فى وجهى ما
يستحق النظرات الوالهة ! واجتاحنى الحياء، فضممت رأسك
ثانية إلى حيث تحتجب عيناك . وانى لأتبين الآن ذلك التأويل
الذى أولت به هذه الحركة .. انى أؤكد لك ـ يا جارث ـ
بأن المرة الأولى التى فطن فيها عقلى إلى أن هذا الأمر العجيب
ـ الذى كان يجرى ـ انما يعنى « الزواج » ، وهى فى اللحظة
التى رفعت فيها راسك للمرة الثانية، وقلت : «يا زوجتى!».
وانى لاعرف أن قولى يكاد يبدو بعيدا عن أن يقبله العقل ،
بل واجـدر بأن يصـدر من فتاة فى الثامنة عشرة ، وليس
من امراة فى الثلاثين . ولكن عليك ان تذكر أن كل علاقاتى مع
الرجال ـ حتى الساعة ـ لم تتعد التحية ، وهز اليدين ،
والزمالة الخالصة القلبية ، أو ضربة على الكتف من حين إلى

آخر .. ولا تنس ــ يا أعز مليك لقلبى ــ أنك ، إلى ما قبل ذلك الحدث بأسبوع واحد ، كنت من الشبان الذين يطلقون على : « جين العجوز الطيبة » ، وكنت تنادينى فى أحاديثنا الخاصة بيا « صديقتى العزيزة » .. كما لا تنس أننى كنت أنظر إليك دائما على أنك تصغرنى بعدة سنوات . ومع أن رابطة عجيبة عذبة ، نمت بيننا ــ منذ ليلة الحفلة الموسيقية فى (أوفردين) ــ إلا أنه لم يخطر ببالى لحظة، أن هذه الرابطة .. حب ! وانك لتذكر كيف سألتك مهلة لاثنتى عشرة ساعة، لاتدبر الرد . وقد رضخت أنت لهذه الرغبة فورا ــ وما كان أنبل موقفك فى هذا الأمر يا جارث ! ــ ثم تركتنى حين طلبت منك أن تتركنى وحيدة .. غادرتنى بحركة لم انسها قط ، فقد كشفت عن الطريقة التى يسمو فيها حب الرجل بالمرأة التى ينصب عليها .. لقد أصبح ذيل الثوب ــ الذى كنت أرتديه ــ مقدسا عندى منذ الحين . وانى لآخذه معى أينما ذهبت ، ولكنى لا ارتديه قط . وانى لآمل أن أروى لك يوما دقائق ما جرى فى الساعات التى أعقبت ذلك ــ يا حبيبى ــ فلست أقوى على كتابتها .

ودعنى أسكب على الورق ، الواقع التعس الذى فرق بيننا، بكل قبحه وبشاعته ، والذى أحال هناءنا المشرق إلى أسى وخيبة أمل .. اننى لم أكن أعتقد ــ يا جارث ــ بأن حبك يقوى على محنة خلوى من الجمال .. كنت أعلم جيدا ما فطرت عليه من عبادة للجمال ، وكيف كنت تسعى دائما لأن تكون محوطا به فى كل أشكاله .. ولقد تصفحت مذكرتى اليومية ، حيث

سجلت حرفا بحرف حديثا دار بينك وبينى عن القس الذى أشرق وجهه بهاء ، بفضل الجلال القدسى الذى كان يغمر نفسه . وكنت قد عقبت على القصة ، بأنك لم تعد تراه قبيح الشكل ، ولكنه سيظل دائما ذا وجه بسيط ، خلو من الجمال .. وقلت انه لم يكن من الوجوه التى يرغب الإنسان فى أن يراها امامه دائما على مائدة الطعام، وانه لم يكن مفروضا عليك ان تحتمل امرا كهذا ، هو ــ بالنسبة إليك ــ ضرب من الاستشهاد !

« لقد اهتممت بتلك القصة عندما قصصتها على ، وعجبت لك وأنت تشرحها ببساطة ــ دون أن تفطن ــ لامرأة هى أشد معارفك من النساء بساطة فى الوجه والملامح . ولذلك سجلتها تفصيلا فى مذكراتى اليومية .. ويا حسرتاه ! فلقد تصفحتها فى تلك الليلة الخطيرة ، وقرأت الكلمات التى جاءت على لسانك كلمة فكلمة ، مرات عديدة ، حتى انطبعت على صفحة فكرى ، بصورة قاسية . وعند ذاك ، استيقظت فى أعماقى غريزة الشعور بالنفس ، وهى الغريزة التى تتيقظ فى المرأة حين تعلم أنها محبوبة ومرغوبة . فأضأت جميع الأنوار المحيطة بمرآة الزينة ، واخذت أفحص ــ بدقة ونقد ــ قسمات الوجه الذى ستضطر إلى أن تراه أمامك كل يوم ، خلف قدح القهوة على مائدة الإفطار ، لسنين طويلة ، إذا أنا أجبتك فى الصباح التالى بالقبول ..

« يا حبيبى ، اننى لم أنظر إلى نفسى ــ إذ ذاك ــ بعينيك، كما أصبحت أفعل ، ولله الحمد .. لذلك لم اطمئن إلى أن حبك

سيصمد للتجربة ، ولاح لى اننى ــ إذا تذرعت بالشجاعة ، وغضضت النظر عن السعادة الحاضرة ، تفاديا لتعاسة مؤكدة ــ فسأنقذك وانقذ نفسى من خيبة الأمل والشقاء فى المستقبل . وقد ترى ــ يا حبيبى ــ فى هذا تفكيرا متعنتا ، مهينا ، لا يتكافأ مع الحب العظيم الذى كنت تغدقه على . ولكن تذكر أن جمالك الباهر ، وبهاءك الشخصى ، ظل سنوات ينبوع مسرة لى . فكنت أتصورك وأنت تزف إلى « بولين ليستر » ــ مثلا ــ فى بياضها الناصع وشبابها الناعم المتالق . ومن ثم ، فان ضميرى القاسى هتف بى : « عجبا ! .. ايربط هذا الشاب الشبيه بأبولو ، إلى خلقتى المجردة من الجمال ، فيزداد حسنا عاما بعد عام ، بينما ازداد كبرا وقبحا ؟ .. أواه ، ايها العزيز .. إنه لمنطق يبدو الآن تافها ، بعد ان ادركنا عمق حبنا .. ولكن هذا المنطق كان ذا رنين سليم صحيح فى تلك الليلة .. واخيرا ، استقر رايى على الرفض ، وقلبى يتمزق ، وذراعاى تنضحان بالألم لحرمانهما من كل هذا الهناء .

« أواه ! الا صدقنى اذ اقول إنه لم تكن لدى فكرة عما كان يعنى هذا القرار لك ، بل خيل لى بأنك ستسارع بتوجيه رغبتك فورا إلى هدف آخر ، فتحول حبك إلى اخرى اقدر على أن تشبع حاجتك من كل النواحى . وقسما ــ يا جارث ــ اننى ظننت ، حين اتخذت قرارى ، اننى الوحيدة التى ستترك للوحشة والحرمان ! .. ثم تعرضت لمسألة اخرى : اى سبب

اتمحل به للرفض ؟ .. كنت أعرف بأنك ستجادلنى ــ إذا ذكرت لك السبب الحقيقى ــ حتى تثبت خطئى بكلماتك المعسولة البراقة ، التى ما كنت املك أمامها إلا الرضوخ .. فى حين أننى كنت قد عقدت العزم على الا اتركك تجازف فى هذا السبيل ، وعلى الا اجازف أنا الأخرى . ومن ثم رأيت أن أكذب عليك يا حبيبى .. عليك أنت يا من توجتك ملكا على قلبى ، وسيدا على إرادتى ، ورفعتك عاليا فى الحب وفى الحياة .. فقلت لك إننى لا أستطيع أن اتزوج من « مجرد غلام » .. أواه ، يا حبيبى ! لست انتحل لنفسى عذرا .. ولست ادافع عن نفسى ، وإنما انا أعترف فحسب ، واضعة كل ثقتى فى كرمك ، لتقرنى على انه لم يكن ثمة جواب آخر ليردك عن رغبتك .. أواه ! وهكذا بقيت حبيبتك المسكينة جين وحيدة كئيبة ! ليتك رايتها فى الكنيسة الصغيرة ، وهى تناديك فى لوعة ، وقد تراجعت عن قرارها ، وراحت تقطع على نفسها الوعود ، وترهف السمع عسى ان تلتقط خطواتك عائدا إليها ، وقد أضناها الحنين ! .. ولكن حبيبى جارث لم يخلق من طينة الرجال الذين يقفون عند عتبة الباب فى انتظار امراة مترددة !

« ولقد حطمت أعصابى أولى سنوات الوحدة ، حتى أنذرنى دريك بأننى أوشك أن أنهار ، وأمرنى بالسفر إلى الخارج . قد سافرت ــ كما تعلم ــ ولقيت فى الأوساط القوية الحية التى أحاطت بى ــ اينما ذهبت ــ ما صحح نظرتى إلى الحياة .

« وفى مصر ــ فى شهر مارس الماضى ــ على قمة الهرم الاكبر ، استقر رايى على اننى لم اعد اقوى على الحياة

بدونك ولم أر أننى كنت على خطأ ، ولكننى صبوت إلى
حبك ، وإلى أن اقرنه بحبى ــ يا حبيبى ــ ومن ثم وطدت
النفس على أن إقدم على المجازفة ، ودبرت أمرى بحيث أستقل
الباخرة التالية ، عائدة إلى الوطن ، فأكتب إليك وأستدعيك .
ثم .. أواه ، يا فتاى !.. ثم ، سمعت النبأ ! .. وكتبت
إليك ، ولكنك لم تسمح لى بأن أزورك .

« وبعد ، فأنا أعلم تماما انك ستقول : « إنها لم تطمئن
إلى وأنا مبصر ، أما وقد حرمت من الابصار ، فلم يعد لها
ما تخشاه ! » .. قد تقول ذلك يا جارث ، ولكن ليس فى ذلك
شىء من الصواب .. لقد توفرت لدى فى المدة الأخيرة كل
الدلائل التى تثبت اننى كنت مخطئة ، وانه كان من الواجب
أن اثق بك ثقة كاملة .. أما تلك الدلائل ، فسأطلعك عليها
فيما بعد .. وكل ما يمكننى قوله الآن ، هو أنه لو قدر
لعينيك الحبيبتين البراقتين ان تبصرا ، لأبصرتا الآن امرأة
هى ملك يمينك وكلها ثقة ويقين فيك . وإذا ساورتها
الهواجس بشأن وجهها او جسمها ، فسوف تقول ببساطة :
« لقد اعجب بهما من قبل ، وهما الآن ملك له ، فليس
من حقى ان انتقدهما .. وإذا كان يريدهما فانهما ليسا
ملكى ، وانما هما ملك له وحده ! » .. ايها الحبيب ، لا يسعنى
أن أخبرك الآن كيف امكننى الوصول إلى هذا الرأى
القاطع ، بل يكفى ان اذكر لك اننى ايقنت ــ بما توفر لدى
من ادلة تفوق كل كلام ــ من صدق وفائك وحبك .

« ومن ثم تتبلور المسألة فى : هل تغفر لى ؟.. إذا استطعت

أن تغفر ، فسأحضر إليك فورا .. اما إذا كان الأمر قد
تجاوز الصفح ، فلابد لى من أن اقرر أن أعيش حياتى فى
الخارج . ولكن ، اواه يا حبيبى الأوحد ! .. إن الصدر الذى
وسدته رأسك يوما ، يرقبك فى شوق مضن ، زادته سنوات
الوحدة استعارا . فاذا كنت فى حاجة إليه ، فلا تصده
عنك !

« اكتب لى كلمة واحدة بخط يدك : « صفحت » . هذا كل
ما اطلبه . فاذا بلغتنى ، فسآتيك فورا . لا تمل خطابا على
كاتمة سرك ، فلست اطيق ذلك ، وإنما اكتب ــ إذا شئت
حقا ــ كلمة : « صفحت » وابعث بها إلى : زوجتك » .

***

وساد الحجرة سكون رهيب ، بعد أن فرغت الممرضة
روزمارى من تلاوة الخطاب ، ثم وضعته على المنضدة ،
وانتظرت فى صمت ، وهى تفكر فى نفسها ، أتسعى ــ دون
أن تزعجه ــ لتحضر لنفسها قدحا من الماء ؟.. ولكنها قررت
أن تنتظر بدون الماء .. وأخيرا رفع « جارث » رأسه ، وقال
جارث وقد أضاءت وجهه ابتسامة خفيفة : « إنها تسألنى
أن افعل مستحيلا ! » . فضغطت جين صدرها بيديها معا ،
وقالت بصوت متهدج : «ألا يمكنك أن تكتب كلمة : صفحت؟» .

وأجاب جارث : « كلا .. لا يمكننى .. أعطنى ورقة وقلما
يا صغيرتى ! » . فأسرعت الممرضة روزمارى بوضعهما
بجوار يده . وأمسك جارث بالقلم ، وتلمس بيديه الورقة
فتحقق من حدودها ، ووضعها بيده اليسرى ، ثم حدد وسطها



وكتب كلمة واحدة بحروف كبيرة ثابتة

بأصابعه ، وكتب كلمة واحدة بحروف كبيرة ثابتة .. ودفع الورقة إلى الممرضة روزمارى سائلا : « هل هذا الخط مقروء ؟ » . فأجابته قائلة : « مقروء تماما ! » .. وقد نطقت بالكلمتين قبل أن تطمس دموعها الكلمة المكتوبة .. فان « جارث » كتب كلمة « محبوبة » ، بدلا من « صفحت » !

وسألها جارث بصوت خافت متلهف : أيمكنك إرسالها بالبريد بأسرع وسيلة ؟ .. اترينها ستأتى ؟ أواه يا الهى !.. ستأتى .. إذا امكن إرسال الخطاب ببريد الليلة ، فقد تحضر إلى هنا بعد باكر ! » . فتناولت الممرضة روزمارى الورقة ، وبعد ان بذلت جهدا جبارا لتتحكم فى أعصابها ، قالت : « يا سيد دالمين .. هناك تأشيرة ملحقة بالخطاب تقول : اكتب إلى فندق بالاس بأبردين » . فقفز جارث واقفا ، وقد دبت فى وجهه وكيانه روح متحمسة جديدة . وصاح : « فى أبردين ؟.. جين فى أبردين ؟.. أواه يا الهى !.. إذا تسلمت هذه الورقة صباح باكر ، فقد تصل إلى هنا فى أية ساعة من النهار . جين .. جين ! .. أيتها العزيزة الصغيرة روزمارى ، هل تسمعين ؟.. ان جين ستحضر باكر .. هل تذكرين ما قصصته عليك من أنها لطمت الببغاء بقفازها ؟.. هل تعتقدين بأنها تميل إلى لطم سمسون بقفازها ؟.. إنهم يحبونها دائما ، هؤلاء القوم ! .. اما قلت لك بأن شيئا ما سيحدث .. انت وسمسون كنتما ـ بطبيعتكما ـ إنجليزيين ، ولا يمكنكما فهم ذلك . أما ماجرى فقد فهمت ، وقد أجابتنا الغابة بأن هناك فرحا قادما من خلال الألم ! .. والآن هل يمكنك أن تبعثى بهذا الخطاب حالا يا آنسة جراى ؟.

وعاوده ابتهاجه بأول أيام مايو .. وسطع وجهه بنور باهر .. « وتكهرب » جسمه بلهفة الانتظار ، وجلست المرضة روزمارى إلى المنضدة تراقبه . وقد أسندت ذقنها إلى يديها ، وأشرقت على شفتيها ابتسامة رقيقة، غمرت كل وجهها وكيانها بنور الارتقاب المظفر ، لحب ناضج كامل . ثم قالت : « سأذهب بنفسى إلى مكتب البريد لأبعث بالرسالة يا سيد دالمين .. ولسوف اغتبط بهذه النزهة ، واعود فى ميعاد تناول الشاى ! » .

ولما بلغت مكتب البريد لم تبعث بالخطاب المكتوب بخط « جارث » ، وانما خبأته فى صدرها .. ثم بعثت ببرقيتين . وكانت الأولى إلى الدوقة ميلدرم ، بفندق بالاس ، بابردين : « تعالى إلى هنا بقطار الخامسة والدقيقة الخمسين مساء الليلة ، دون إرجاء » . اما الثانية ، فكانت إلى السير دريك براند . شارع ويمبول بلندن : « كل شىء على ما يرام » .

الفصل الخامس والثلاثون

قالت المرضة روزمارى ذلك فى إلحاح صبور : ارجو كل الرجاء ـ يا سيد دالمين ـ أن تجلس وتركز انتباهك فى مائدة الشاى .. فكيف سيتسنى لك ان تذكر مكان كل شىء ، إذا ظللت تقفز وتحرك مقعدك فى مختلف الأوضاع ؟.. لقد ظللت تدق المنضدة بقبضتك ـ فى المرة السالفة ـ لتجتذب انتباهى ـ وقد كان موجها إليك فى قلق ـ وكدت تقلب قدحك بما فيه ، كما انك ارقت كثيرا مما كان فى قدحى فى الطبق . وما لم تحسن التصرف ، فسأطلب إلى مارجرى ان تأتيك بمرولة ، وتجلسك على مقعد عال كالأطفال ! » . فمد جارث قدميه أمامه ، وشبك ذراعيه خلف رأسه ـ مستلقيا فى مقعده ـ وأخذ يضحك فى مرح ، ثم قال : « وإذ ذلك أبكى مستعطفا : « ارجوك يامربيتى .. هل تسمحين لى بالنزول عن المقعد ؟ » .. يالك من صغيرة متمردة !.. لقد كنت من قبل مؤدبة إلى درجة التزمت .. هل تعرفين قصة : « يجب ان تتلو صلاتك يانوسى » .. ؟ » . فأجابت المرضة روزمارى فى ضجر : « لقد سمعتها منك مرتين فى الثمانى والأربعين ساعة الأخيرة » .. وإذ ذاك هتف جارث : « يا للخسارة !.. وددت او اقصها عليك . ولو انك كنت حقا سمحة الخلق ـ مثل السير دريك ـ لقلت : لا ، وكم احب أن أسمعها ! » .

فقالت المرضة روزمارى : « لا ، وكم احب ان أسمعها ! » .

ـ لقد فاتت الفرصة ، فقيمة مثل هذا الرد فى ان يقال توا

.. وقد لا يكون حقيقيا ، ولكنه يجب أن يقال فى التو . وبهذه المناسبة ، أرانى أذكر : « أواه ، يا شعرى المستعار ! » . أتفهمين .. هذا هو التعبير الذى اعتادت الدوقة أن تردده إذا راقت لها فكاهة .. وعندما تقول : «يا شعرى المستعار»، يجب علينا ألا ننظر إلى شعرها ، فكثيرا ما يكون منكوشا لأن طائرها « التوكان » يجذبه بمنقاره بين حين وآخر .. كم هو طائر جميل ! » .

فقالت له الممرضة روزمارى : « الآن ، ناولنى الخبز المقدد والزبد ، وكفاك هزلا عن الدوقة .. كلا ، هذا الخبز مكسو بزبد خفيف . قلت لك بأنك تكاد تفقد اتزانك ! الخبز المقدد موجود فى طبق دافىء إلى يمينك .. والآن ، هب أننى أنا الآنسة شامبيون ، وناولنى الخبز بكل لباقة ورقة ، وكأنك تناولها إياه فى مثل هذه الساعة من غد ! . فقال جارث: « من السهل أن نتصور أنك « جين » مادام لك هذا الصوت .. ومع ذلك ، و ... لست أدرى ، فالحق أننى لم أحاول الجمع بينكما فى فكرى . فان جملة واحدة من الكهل « روب » جعلتنى أباعد بينكما ، إذ قال لى إن شعرك هش متهدل وحريرى ناعم ، فى حين أن جين لم تكن كذلك . واعتقد أن هذه الجملة هى التى انقذت الموقف ، وإلا فان صوتك كاد يدفعنى إلى الجنون فى الأيام الأولى من وصولك إلى هنا ، وكثيرا ما وددت إبعاد صوتك عنى . وها انتذى قد فهمت السبب لذلك . ومع كل ، فان صوتك يختلف عن صوتها بشكل ما . إن صوتها أكثر عمقا ، وهى تتكلم عادة بشىء من التراخى

المحبب إلى النفس . وكثيرا ما تستعين بالكلمات الدارجة ، اما أنت فعلى جانب عظيم من دقة التعبير ، ولك إلمام واسع بما يدعى .. « العبارة الصحيحة الكاملة » .. ما أظرف أن أسمعك وجين تتكلمان معا . ومع كل ، ف ... لست أدرى . اننى انتظر هذه الفرصة فى قلق ! » . فسألته : « ولماذا ؟ » .

ـ اوجس خيفة من أن الا تميل إحداكما إلى الأخرى .. انك أصبحت ـ فى الواقع ، ومن ناحية معينة ـ أقرب إلى من اى شخص فى الدنيا . اما هى ، فانها دنياى . ولهذا اخشى الا تدرك قيمتك على الوجه الأكمل ، أو الا تفهميها انت حق الفهم . فان لها طريقة فريدة فى نوعها ، حين تقف وترمق الشخص من اعلاه إلى اسفله .. وأكثر النساء لا يرضين عن ذلك ، لا سيما الفتيات الجميلات المرهفات ، إذ يشعرن انها تحصى عليهن ما يصدر منهن !

وهنا غمغمت الممرضة روزمارى قائلة : « اما أنا فلا يصدر منى شىء ما ، اللهم إلا إذا ابى مريضى ان يستقر فى مقعده » . بينما استأنف جارث حديثه بتلك الرنة المبتهجة التى تشوب صوته كلما سرد حديثا به ذكر لجين : « حدث مرة أن كانت فى ضيافة قصر (أوفردين) سيدة على جانب كبير من السخافة والتفاهة . وكنا حينذاك جميعا فى (أوفردين) . ولم نكن ندرك ما يغرى الدوقة العزيزة بدعوتها إلى حفلاتها الممتازة ، اللهم إلا شغفها بكشف اخطاء تلك السيدة وتقليدها . وما كنا لنتأكد من دقة التقليد ، لولا أننا رأينا الأصل ! .. وكانت السيدة على شىء من الحسن ، ذات شعر خفيف مجعد فى أناقة كشعر

الدمى المصـنوعة من الشمع . وكان من عاداتها الا تحضر كفرد عادى ، والا تسـمح للحاضرين بغض الطرف عنها ، بل كان دأبها أن تحاول اجتذاب الانظار ، فى كل جملة من حديثها . ولما ضقنا ذرعا بها ، طلبنا إلى « جين » أن تسكتها ، ولـكن جين كانت تقول لنا : « إنها لا تلحق بكم أذى يا أولاد ، وإن مسلكها ليروق لها ، فدعوها وشأنها ! » . إذ أن من مزايا جين أنها مفرطة اللطف مع الناس الذين تلمس تآمرا بهم ليـكونوا مبعث فكاهة للدوقـة ، فيمـا بعد . وكانت جين تمقت مثل هذه الأفعال ، ولكنها لم تكن تملك أن تجادل عمتها فى الأمر . ومع ذلك ، فقد كنا نلزم جانب الحذر فى تحريضنا للدوقة ، إذا كان الحديث على مسمع من جين !

وفى إحدى الأمسيات ، اجتمـع فريق منا ـ بعـد تناول الشاى ـ حول المدفأة ، فى البهو لنتحدث مع جين ـ وكان ذلك فى أيام عيد الميلاد ـ والنار عالية الأوار فى المدفأة ، وقد أسدلت الستائر الحمراء حتى حجبت باب الشرفة ونوافذها من الجهتين . وكان « تومى » كعادته جالسا على أرجوحته وسط الجماعة ، يتلهى بالحلقة فى رماد السـجائر . وفى الخارج كان الثلج قد كسا كل شىء ، وساد الكون سكون بديع ، مما زاد من بهجة الحديث والضحك ، فى الداخـل . إنك تعرفين ذلك الصمت النفاذ ، عندما تكتسى الأشجار والحقول والطرقات بقدم من الثلج الناصع اللامع .. وكان يلذ لى أن أتطلع إلى الشتاء لأحظى بمشهد أول هذه المناظر .. وها أنذا لن يقدر لى أن أرى الثلج مرة أخرى !.. لا بأس!

فان فى ذاك حافزا لأن أذكر أشياء كنت أراها من قبل . كما أننى أستطيع الآن أن أسمع سكون الثلج فى وضوح أشد من ذى قبل .

« والآن ، ماذا كنت أقول لك ؟ نعم ، كنت أذكر تلك السيدة المحبة للمظاهر .. حدث أن صعدت كل السيدات إلى حجراتهن لارتداء ملابس السهرة ، عدا جين ، إذ أنها لم تكن فى حاجة لأكثر من نصف ساعة لذلك . فلما رأتنا تلك السيدة متجمعين فى البهو ، خيل لها الغرور أننا ما تجمعنا إلا من أجلها ، فى حين أننا كنا ننتظر فرصة مواتية ، لنروى لجين أخبارا خاصة عن شاب فى الحرس ـ يدعى « بيللى » ـ قبض عليه لإحداثه بعض الشغب .. وكان رئيسه الكولونيل صديقا حميما لجين ، فرأينا أنها قد تتوسط له لدى الكولونيل . وهكذا كانت السيدة بعيدة عن بالنا ، وان لم تدر . أما جين فكانت تجلس موليـة ظهرها إلينا جميعا ، وقدمها مسندة إلى حاجز المدفأة ، وثوبها منحسر على ركبتيها .. وكان تحت ذلك الثوب ثوب آخر من الحرير الثمين ، له طبقات من الثنيات الدقيقة ، خيل إلينا بأنه يصلح رداء خارجيا ، لجماله . غير أن طبيعة جين لم تكن تحبب إليها إبراز أثمن ما لديها !

« وكانت السيدة المحبة للمظاهر ، تثرثر فى تلك الأثنـاء ـ وقد غاب عن بالها أننا كنا فى ضجر من حديثها ـ بينمـا انصرفت جين إلى قراءة صحيفة المساء . بيد أنها شعرت بأن جو البهو أمسى متوترا ، فقد أخذ ضيقنا يشتد مما كانت ترويه السيدة المغرورة عن إعجاب الرجـال بهـا . وازداد

تذمرنا دتململنا ونحن نرجو أن تبادر جين إلى إنقاذنا من هذه المحنة .. حتى « تومى » ــ فوق أرجوحته ــ بدا محنقـا ، ملولا .. وأخذ يرفع مخلبه إلى منقاره ويعيده ، محملقـا فى السيدة بغيظ .. وأخيرا ، انتهز فرصة حديثها عن معجب من أبطال التجديف فى النهر ، فصاح : « ليرسلها إليه أحدكم !» .. ولم نتمالك انفسنا ، فانطلق ضـحكنا جميعا فى قهقهـة عالية ، وهرج صاخب .. حتى « جين » ، أخفت وجهها فى صحيفتها وأخذت تهتز لشدة الضحك . وذهبت كل سجائرنا إلى الببغاء مكافأة له إذ خلصنا من السيدة المغرورة .

« وقد كان لدينا وقت كاف للتهريج .. أما جين فقد سارعت لإعداد الخطاب الذى طلبناه منها لمساعدة « بيللى » ، لترسله فى بريد المساء . ومع ذلك فقد وافتنا فى ميعاد العشاء تماما ، وهى فى ثياب السهرة اشد رواء من غـيرها اللائى يقضين الساعات فى استكمال زينتهن .. ما كان أبدع تدخل «تومى»! بيد أن جين طلبت منا الا نقص ما حدث على الدوقة ، فرحنا نتململ من هذا الحرمان القاسى ، لأن كلا منا كان يتمنى ان يسبق الباقين فى رواية القصة للدوقة .. ولكن المرء لا يملك إلا أن يصدع بما تأمر به جين ! » .

* * *

وهنا تساءلت الممرضة روزمارى : « ولماذا ؟ » . فقال : « آه ، لست أدرى ، ولا يسعنى أن أشرح السبب . فلو انك كنت تعرفينها لما كنت فى حاجة إلى التسـاؤل .. هل لك فى كمكة يا آنسة جراى ؟ » . فأجابته : « شكرا .. سآخذ

شيئا منها هذه المرة » . وإذ ذاك ، هتف : « هكذا .. ان هذا التعبير يطابق ما كانت جين تعبر به .. « سآخذ شيئا منها هذه المرة » .. أليس عجيبا أن أظل ــ بعد أن مرت علينـا هذه الأسابيع ــ أشتبه فى صوتك وصوتها .. وباكر سأفكر فى الشبه العجيب بين صـوتها وصوتك ! » .

وأجابته الممرضة روزمارى : « كلا لن يحدث هذا .. فلن تشغل افكارك بغيرها عندما تكون معك » ، فصاح جـارث : « صحيح ، ولكنى سأشغل بك ، فلسوف أفتقـدك كثـيرا يا عزيزتى روزمارى الصغيرة ، إذ لن يتسنى لغيرك ــ ولا لها هى ــ ان يسد فراغك .. ولكن هـل تعلمين ؟ » .. وانحنى إلى الأمام وقد غامت على وجهه سحابة من القلق أخفت البهجة التى كانت تتفجر منه ، واستطرد قائلا : « لقـد بدأت أشعر بانفعال وقلق من جراء هذا الأمر .. انها لم ترنى منذ وقع لى الحادث ، وكم أحس بالرهبة مما قد يحدثه منظرى من صدمة لها .. هل تعتقدين أنها ستلمس تغييرا كبيرا فى شكلى ؟ » .

ونظرت جين إلى الوجه الفاقد الابصار ، الذى اتجه نحوها فى قلق ، فارتد فكرها إلى ذلك الصباح الذى دخلت فيه غرفة المريض لأول مرة ، وقد ظن أن ليس بالغرفة سوى الدكتور روب ، فاعتدل فى جلسته ، بعد أن كان موليا وجهه شـطر الحائط ليخفيه عن الأنظار .. وذكرت كيف رأت وجهه لأول مرة ، وكيف أدارت وجهها نحو المدفأة حتى لا يلمح الدكتـور روب الدموع التى انهمرت على وجنتيها .. ثم عـاودت

النظر إلى « جارث » فتبدى لها جليا ـ لأول مرة ـ مبلغ
التشويه الذى أحاق به .. وعند ذلك ، بحنان دافق يجتاح
فؤادها . وتطلعت إلى الساعة ، ثم شعرت انها لن تقوى
على الصمود طويلا ! .

وسألها جارث بصوت متهدج : « هل هو قبيح جدا ؟ » .
فأجابت المرضة روزمارى : « لست أملك أن أجيب عن امرأة
أخرى ، ولكننى أعتقد بأن وجهك ـ كما هو الآن ـ سيكون
مصدر غبطة دائمة لها ! » . فتوردت وجنتا « جارث » ،
وبدا عليه السرور والانشراح ، مع قليل من الدهشة .. فقد
استبان فى صوت المرضة روزمارى رنة لم يستطع ان يدرى
مأتاها ولا كنهها . وما لبث أن قال : « ولكن لا تنسى أنها
لن تكون مدربة على عادات الأعمى ، وأخشى أن أبدو عاجزا
متخبطا ، فهى لم تذهب إلى عالم العميان ـ كما هو الحال
معك ومعى ـ وهى لا تدرى شيئا عن التدابير التى ابتكرناها
بالأشرطة والعلامات وغيرها .. أواه يا صديقتى روزمارى ،
عدينى بألا تتركينى باكرا ! .. انى اريدها ، والله وحده يعلم
عظيم شوقى إليها .. غير اننى قد بدأت اشعر بشىء من
الخوف من جراء ذلك .. سيكون وجودها معى نعمة رائعة،
لما تشبعه من رغبات عظمى . اما حاجاتى اليومية البسيطة،
التى يجعل لها الظلام قيمة ، فكم أحتاج إليك من أجلها
يا دليلتى الرقيقة التى لا أبصرها .. كيف أقوى على الحياة
بدونك ؟ لقد خيل إلى ـ فى بداية الأمر ـ أن من حسن الحظ
أنك دبرت أمرك للرحيل عند حضورها هى . اما الآن ـ وإذا

انتظر حضورها ـ فلست احتمل ان أتركك ترحلين .. ان
وجودها معى سيكون السعادة العظمى التى تعجز الكلمات عن
وصفها ، ولكن هذا يختلف عن وجودك هنا معى ! » .

وبذلك حصلت المرضة روزمارى على المكافأة التى كانت
جديرة بها ، ولاح انها وجدتها مثيرة لعواطفها . وما ان تمالكت
نفسها ، حتى قالت له بكل لطف : « لا تزعج نفسك بالأمر
يا سيد دالمين .. صدقنى فيما اقول من انك لن تلبث ان تتبين
ـ قبل ان تنقضى خمس دقائق على وجودها بجوارك ـ أنها
ستكون كما كنت انا معك .. ومن ادراك انها لم تذهب مثلى
إلى عالم العميان . ان المرضة قد تمارس ذلك بدافع من
شغفها بمهنتها .. أما المرأة التى تحبك ، فانها تمارسه لأنها
تحبك ! » . فأجابها جارث : « إنها أهل لهذا ! » . ثم اضطجع
فى مقعده ، وقد كست وجهه أمارات الرضى التام ، وهتف :
« أواه يا جين ، يا جين ! .. انها قادمة ! .. انها قادمة ! » .

والقت المرضة روزمارى نظرة على الساعة .. ورددت
عبارته : « أجل انها قادمة ! » . ومع أن صوتها كان ثابتا ،
فان يديها كانتا ترتعشان . واردفت قائلة : « ولما كانت هذه
آخر أمسية سنقضيها معا ، فهل تقبل اقتراحا منى ؟ .. اريد
ان أصعد الآن إلى حجرتى ، لأبدأ فى إعداد حقيبتى ، وأقوم
ببعض إجراءات أخرى . فهل لك ان ترتدى ثياب السهرة
مبكرا ؟ .. وسأحذو حذوك . وإذا امكنك الاستعداد فى
الساعة السادسة والنصف ، فقد تنفسح لنا الفرصة
لنعزف شيئا من الموسيقى قبل العشاء ! » . فأجابها جارث :

« فكرة حسنة ! .. سأعمل برايك فليس يهمنى اى وقت ارتدى ملابسى .. كما اننى ارحب بكل فرصة تتيح لى عزف الموسيقى .. ولكن اسمعى ! كم اود لو انك لا تبدئين إعداد حقائبك يا آنسة جراى ! » فقالت : « لست أعتزم إعداد حقيبتى بالمعنى الكامل ، ولكى سأجمع بعض الأشياء المتناثرة ! » .

ـ يتساوى الامر عندى ، مادام لا يعنى سفرك .. واذكرى انك وعدتنى بأنك لن تذهبى قبل حضورها !

ـ لن اذهب قبل حضورها .

ـ وستطلعينها على كل شؤونى ، وكل ما لا بد لها من معرفته .

ـ ستعلم بكل ما أعرفه ، مما سيضاعف من راحتك .

ـ ثم انك لن تتركينى حتى أشعر تماما بالراحة فى كل شىء .

ـ لن اتركك ما دمت فى حاجة إلى ..

وعاد جارث إلى التفكير العميق فى طبيعة صوتها ، ثم نهض وسعى إلى المكان الذى صدر منه صوتها . وكانت واقفة ، فقال لها فى انفعال عاطفى : « هل تعلمين انك نادرة المثال ؟! » . وبسط إليها كلتا يديه ، وقال : « ضعى يديك فى يدى ولو مرة يا صديقتى روزمارى .. فكم أود أن أحاول ان اوفيك حقك من الشكر ! » . وسادهما الصمت برهة ، ثم امتدت يداه قويتان .. قويتان ، قديرتان ، وان لم تلبثا ان ارتجفتا وقد أوشكتا أن تتناولا يديه .. غير انها سحبتهما فى الوقت المناسب ، قبل أن تلمسا يديه . فان موعد «جين» لم يحن بعد .. وهذه هى ساعة النصر والنجاح للمرضة

روزمارى ، فيجب الا تضيعها عليها ! .. وقالت له فى نعومة : « سنتصافح الليلة ، بعد الموسيقى . اما الآن فأرجوك يا سيدى أن تكون حريصا ، فقد ضللت .. تمهل ! هاك شريط الحديقة على يسارك ، فاذهب واستنشق قليلا من الهواء فى الشرفة .. واعد إنشاد الأغنية العذبة التى سمعتك تغنيها تحت نافذتى فى هذا الصباح .. اما الآن وقد اتضح ما سيحدث ، فان هذا المساء البديع سيفعم قلبك سعادة وغبطة ، استمتاعا بترقب سعادة مرموقة . واستودعك الله يا سيدى إلى ساعة فقط .

* * *

ما الذى دهى الصغيرة روزمارى ؟ .. دار هذا التساؤل فى رأس جارث وهو يتحسس بحثا عن عصاه فى الركن المجاور للنافذة . وقال لنفسه : « اننا لم نعد منسجمين كما كنا قبل ذهابها إلى مكتب البريد ! » .. وسار إلى الشرفة وقد ارتسمت على وجهه موجة من القلق ، ما لبثت أن تبخرت ، وجمد واقفا دون حراك ، ثم اغرق فى الضحك قائلا : « يا للغباء ! .. حقا اننى غبى ومغرور .. انها تفكر فى فتاها ، فلسوف تذهب إليه باكرا ، ومن ثم فعقلها ملىء به ، كما أن عقلى ملىء بجين .. يا لروزمارى العزيزة ، الماهرة ، الصغيرة ! أتمنى أن يكون جديرا بها ! .. ولكن ، لا .. ليس بوسعه ! آمل أن يعرف انه غير جدير بها . هذا التعبير ادق ! .. وارجو ان يلقاها بما تتوقع .. ومع ذلك ، فانا اكره فكرة ذهابها إليه ! » .

الفصل السادس والثلاثون

كان سمسون يجتاز البهو الكبير ـ قبيل الساعة السادسة والنصف بدقائق ـ بعد أن أراح مخدومه فى حجرة المكتبة ، وإذا به يسمع حفيف ثوب على السلم الخشبى ، فتطلع إلى أعلى ، وإذا بفتاة طويلة القامة تهبط الدرجات .. وجمد سمسون مبهوتا . وما تأثر بثوب السهرة الحريرى الأسود ، ذى الأفواف العديدة و « الدانتيلا » التى تكسو الصدر ، قدر ما تأثر بما لاح على الوجه الهادىء ـ الذى كان يعلو هذا الثوب ـ من أمارات الاعتداد والسلطان !

وقالت له جين : « سمسون .. أن عمتى دوقة ميلدرم ، ووصيفتها ووصيفها وقدرا كبيرا من الأمتعة ، سيصلون فى منتصف الثامنة من هذا المساء ، من (أبردين) . والسيدة جرايم (مارجرى) تعلم كل ما يختص باعداد الغرف لهم ، كما اننى اصدر التعليمات لجيمس كى ينتظرهم فى المحطة ، وكى يعد للدوقة مركبة لانها لا تحب ركوب السيارات . وعليك أن تقودها إلى حجرة المكتبة لدى وصولها ، وسنتناول العشاء فى قاعة المائدة فى الثامنة والربع ، وحتى ذلك الوقت، فان السيد دالمين وأنا مشغولان فى حجرة المكتبة ، ولا نريد أن يزعجنا أحد، مهما تكن الأسباب .. أتفهم جيدا ما أقول؟» . فقال سمسون متلعثما : « نعم يا آنسة .. يا ليدى » . فقد قضى سنوات صباه فى قصور الدوقات ، وتعلم أن من الواجب إحناء الرأس لبنات أخوة الدوقات ! . ولكن جين ابتسمت

وقالت : « بل آنسة وكفى يا سمسون » . ثم اسرعت إلى حجرة المكتبة .

وسمعها « جارث » وهى تدخل وتغلق الباب . كما سمع باذنيه المرهفتين حفيف ثوبها ، فقال : « أهلا بالآنسة جراى . هل حزمت رداء العمل ؟ » . فقالت له جين : « نعم .. فقد أعددت أمتعتى ، كما أخبرتك » . ثم سارت فى تأن وعبرت الحجرة ووقفت فوق بساط المدفأة ، وهى تمعن النظر فيه . إذ كان مرتديا ملابس السهرة كاملة ، مما أعاد إلى ذهنها ليلة سهرة قصر (شينستون) .. وكان جالسا فى مقعده الكبير ، وقد وضع إحدى ركبتيه فوق الأخرى . ولمحت طرفا من الجورب الأحمر الحريرى الذى كان يفضل ارتداءه مع ملابس السهرة . وظلت « جين » برهة تتأمله .. لقد أزفت ساعتها الأخير، .. ولكن الأمر كان يقتضى الحرص والصبر ـ حتى فى هذه اللحظة ـ مراعاة لمصلحته وخيره . وقالت له : « لم أسمع الانشودة » .

ـ كلا ، فقد شغلت عن ذلك فى البداية .. وعندما تذكرت ، شغل فكرى بأمور أخرى . ومع كل ذلك .. آه يا آنسة جراى، ليس بوسعى أن أغنى الليلة ، فان الحنين قد أخرس روحى!

وأجابته جين بكل رقة : « اننى أدرك هذا ، فدعنى أغنى لك ! » . فارتسمت على وجه جارث دهشة خفيفة ، وقال : « أتغنين ؟ .. إذن ، فلم لم تغنى لى قبل اليوم ؟ » . فقالت له جين : « لقد سألنى الدكتور روب ـ عند وصولى ـ عما إذا كنت أعزف الموسيقى ، فقلت له : « اننى أعزف قليلا » .

وقد استنتج من ذلك أننى لا أجيد العزف ، ولا الغناء . فأشار على بألا أعزف ولا أغنى ، حتى لا نسوقك إلى الجنون ! » .

فانفجر جارث ضاحكا وهو يقول : « تماما .. هذه أخلاق روبى الكهل . ومع ذلك ، فهل تنتوين المجازفة الليلة ، بأن تغنى لى قليلا ؟ » . وكان جواب جين : « لن تكون مجازفة .. سأغنى لك الليلة أغنية واحدة . هاك الشريط الأصفر على يمينك ، ولا شىء فى طريقك إلى البيانو .. فاذا أردت ان اكف عن متابعة الغناء ، فتعال إلى ! » .

ثم خطت نحو البيانو وجلست .. ولمحته ــ من خلف البيانو ــ وقد اضطجع فى مقعده ، ولاحت على شفتيه ابتسامة خفيفة تفيض بالغبطة والسرور .. ولعله كان ما يزال متأثرا بما روته عن الدكتور روب !

***

وكانت قطعة « المسبحة » تبدأ بدقة واحدة . وقد دقتها « جين » وعيناها تحدقان فى وجهه ، فرأته يستوى فجأة فى جلسته ، وقد تجمعت على سيماه أمارات العجب والترقب والحيرة .. ثم بدأت الأغنية بصوتها العميق الغنى، منخفضا متهدجا مع الموسيقى الخافتة الناعمة :

« ان الساعات التى قضيتها معك يا قلبى العزيز ..

« هى عندى بمثابة عقد من اللآلىء ..

« احصيها مرات .. كل حبة على حدة ..

« مسبحتى .. مسبحتى .. لكل ساعة لؤلؤة » ..

ثم توقفت جين عن الاستمرار ، إذ انتفض « جارث » واقفا . ولم تنبس شفتاه بكلمة واحدة ، ولكنه اقبل فى عماه نحو البيانو . فدارت على مقعد البيانو ، وبسطت ذراعيها للقياه .. وها هو ذا قد بلغ المعزف .. ولمست يده أصابع البيانو .. ثم وصل اليها هى .. وإذا به يجثو على ركبتيه، وإذا بذراعيه تلتفان حول خصرها ، وإذا بذراعيها تلتفان حوله بكل ما احتبسته طيلة المدة السابقة من شوق وحنان وظمأ !

ثم رفع إليها وجهه ، ونظر إليها برهة ، بعينيه اللتين لم تكونا تبصران ، ثم هتف : « أهذه أنت؟ انت طوال الوقت ؟» . ثم دفن وجهه بين ثنايا « الدانتيلا » ، فوق صدرها .. ولم تتمالك جين عواطفها بل ضمت رأسه المحبوب بقوة إلى صدرها فى حنان، وهى تقول له : «أواه يا فتاى.. يا حبيبى! اجل ، انا طيلة الوقت .. طيلة الوقت بجواره ، فى وحدته وآلامه .. أفكان بوسعى أن أظل بعيدة عنه .. ولكن ، أواه ياجارث! اية معجزة مكنتنى أخيرا من أن أضمك وأتحسسك ، واحس بك ! .. نعم ، انا هى . أواه أيها المحبوب ، ألست واثقا ؟... من التى تستطيع أن تحتضنك هكذا ؟ حذار يا حبيبى ! تعال إلى الأريكة الكبيرة ، واجلس بجانبى ! » .

ونهض جارث ورفعها من فوق مقعدها فلم يفلتها ، بينما تولت هى إرشاده إلى الأريكة . وهناك عاد يجثو امامها وقد لف ذراعيه حول خصرها وخبأ وجهه فى أحضانها ، فهتفت جين بصوت ناعم خافت : « أواه يا حبيبى ، يا حبيبى ! » .. ثم التفت يداها خلف رأسه تحميه فى حنو صامت .. وعادت تقول : « لقد أيقنت أن احلى أيامى هى التى أقوم فيها بخدمة

فتاى ، وأساعده فى دياجير ظلمته ، وأحميه ما استطعت من
أى ألم لا داعى له ، وأبقى بجواره دائما لأؤدى كل حاجاته .
ولكننى لم أكن أملك أن آتى بنفسى ، ما لم يعرف هو ، ويفهم
ويصفح .. ولكن لا .. ليس ليصفح، وإنما ليدرك ثم .. يعلن
حبه .. وها هو ذا قد فهم .. وها هو ذا قد صفح .. أواه
يا جارث ! .. اسمت يا حبيبى !.. أن أتركك بعد الآن أبدا ،
أبدا ! .. ألا تدرك ما أقول يا محبوبى! إذن فسأزيدك صراحة.
أيها الحبيب ، اصبر قليلا وانصت .. سنبقى هكذا لبضعة
أيام ، كما كنا فى الأيام التى قضيتها بجانبك ، فلا يعلم سوى
فتاى أن التى بقربه هى أنا ! ولسوف تحضر العمة « جينا »
هذا المساء ، فتكون هنا بعد نصف ساعة . وسنحصل فى أقرب
فرصة ممكنة على ترخيص خاص بالزواج ، ثم نتزوج
يا جارث .. وإذ ذاك .. » . وتوقفت جين وهى تنظر إلى
الرجل الجانى أمامها وقد حبس أنفاسه لينصت إلى كل كلماتها
.. وما لبثت أن استطردت فى صوت رقيق خافت جمع فى
أعماقه معجزة مقدسة ، دون أن يهتز : « وإذ ذاك ، ستكون
اسمى هناءة لى ، أن أبقى مع زوجى ليلا ونهارا ! » .

مرت لحظة صمت عذبة ، وهمدت العاصفة العاطفية
الجياشة التى كانت بين ذراعى جين ، فصارت طمأنينة وراحة
.. ثم همس صوت الحب الأزلى الكامل : « ويدوم السلام ».
ثم سادتهما سكينة شاملة !

وأخيرا رفع جارث رأسه وقال : « دائما .. داما معا .
نعم ، وسيكون ذلك هو النور الدائم ! » .

* * *

وعندما فتح سمسون الباب وأعلن مقدم « صاحبة
الفخامة الدوقة ميلدرم » ، كانت جين جالسة إلى البيانو
تعزف أنغاما خفيفة حالمة .. وكان ثمة شاب نحيل ، يرتدى
ملابس السهرة، قد تقدم فى شوق وحفاوة، ليستقبل الدوقة
.. ولم تر هذه ـ أو لعلها تجاهلت ـ الشريط الذى كان
يهتدى به : فأخذت يده الممدودة بين راحتيها بحرارة ، وهى
تهتف : « يا إله السماء ! يا عزيزى دال .. انك تدهشنى ..
ظننت بأننى سألقى شخصا أعمى ، وإذا بك تتهادى من مكان
إلى آخر كما كنت بذاتك المتألقة الجميلة ! » . فأجابها
جارث : « أهلا بك يا عزيزتى الدوقة ! » . ثم انحنى ولثم
اليدين الرقيقتين وهما ما تزالان تقبضان على يده .. واستطرد
يقول: «لستأراك، وآسف إذ أقول ذلك.. غير أننى لا أشعر
ـ الليلة ـ بأننى أعمى تماما .. ان ظلمتى قد تبددت بأشعة
فرح بالغ يفوق كل تعبير ! » .

ـ أوه .. أو هكذا تتطور الأمور ؟!.. نبئنى الآن ، أيهما
ستتزوج : الممرضة التى بلغنى انها شخصية شابة محترمة .
يطنبون فى امتداحها .. أم تلك السليطة « جين » ، التى أمرت
عمتها المسكينة ـ فى غير إشفاق ـ يتجشم مشاق السفر من
أول المملكة إلى آخرها ، إشباعا لنزواتها ؟

وعند ذلك أقبلت جين من مقعد البيانو ، وعقدت ذراعها
فى ذراع حبيبها ثم قالت : « انك لتقرين يا عزيزتى العمة
جينا ، بأنك كنت شديدة الرغبة فى الحضور .. لأنك
تستطيبين القصص الغامضة ، والمعجزات التى يرسلها الله فى

الوقت المناسب . ولسوف يجمع « جارث » بين الفتاتين ـ الممرضة وابنة أخيك ـ لأن كلا منهما تحبه حبا لا يدعها تفارقه ثانية .. ويبدو أنه يرى أن ليس بوسعه الاستغناء عن أى منهما ! » .

ونظرت الدوقة إلى الوجهين المتألقين .. احدهما وجه رجل لا يبصر ، والآخر يوفر له الابصار فى زهو واغتباط .. ثم اغرورقت عيناها بالدموع . وهتفت فى دعابة : « اجل ، لقد كنا نوقن دائما من أن فتاة واحدة لا تكفى لدال ، فهو يصبو إلى نواحى الكمال التى لا تتوافر إلا فى عدد من الفتيات .. ولكنه ـ على ما يبدو ـ قد وجدها .. باركما الله معا ، يا أسخف سعيدين .. وسأباركما انا الأخرى .. ولكنى أزيد ـ قبل ذلك ـ أن أتناول العشاء .. هيا استدعيا رئيس الخدم العصبى ، ذا السوالف المسدلة على صدغيه ، واخبراه بأننى فى حاجة إلى وصيفتى وحجرتى ، كما أريد ان أعرف أين قد وضعوا طائرى « التوكان » العزيز ، فقد اضطررت إلى أن اصطحبه يا جين .. أنه عصفور عزيز ومحب جدا ! » .

الفصل السابع والثلاثون

كانت أعمدة الاجتماعات فى الصحف ، خليقة بأن تصف حفل قران جارث وجين ـ عندما تم بعد أيام قلائل ، فى الكنيسة الصغيرة القائمة بين التلال ـ بأنه « قران هادىء جدا » . ولعله كان ـ فى رأى من شاهدوا الحفل ـ « غير عادى » أكثر منه « هادئا » . على أن كل ما كان يهم « جارث » و « جين » فى الأمر ، هو أن يتزوجا ، وأن يتركا معا دون ما كثير إرجاء . فلم يفلح احد فى إغرائهما على الاستماع إلى التفصيلات التى كانت تؤدى إلى هذه الغاية المنشودة . فقد وكلت جين إلى الدكتور دريك بكل ذلك ، قائلة : « كل ما أرجو أن يتحقق يا دريك هو أن يكون عقد الزواج صحيحا من الناحية القانونية .. وارسل إلينا قائمة الحساب ! » .

أما الدوقة ـ وهى مثال السيدة المحافظة على التقاليد القديمة ـ فقد أثارت زوابع من النقاش حول إعداد خمار العروس ، وزهر البرتقال . والحرير الأبيض الناصع ، فى حين كانت جين ترفض كل ذلك بقولها : « يا عمتى العزيزة .. تصورى منظرى وانا أضع زهرة البرتقال ، كأننى إحدى دمى عيد الميلاد .. كما أننى خلقت أنفر دائما من الخمار .. أما الحرير الأبيض ، فهو الذى درجت على ان أتحاشى ان أرتديه ! » . فصاحت الدوقة: «إذن ، فما الذى ترغبين فى ان ترتدى فى حفلة زفافك ، أيتها الفتاة الشاذة ؟! » . فأجابتها جين وهى تعقد خيطا من الحرير الأحمر كانت تحبكه : « أى

ثوب يحلو لى أن أرتديه فى ذلك الصباح » . وكانت عيناهـا تنظران خارج النافذة ، إلى حيث جلس « جارث » فى الشرفة يدخن سيجارته . فما كان من الدوقة إلا أن نهضت قائلة فى لهجة الوعيد : « الديك دليل بمواعيد القطارات ؟ وهل لك أن تعملى على وصولى إلى المحطة بعد ظهر اليوم ؟ » .

واجابت جين ، وهى منهمكة فى عملها : « نحن دائما على استعداد لراحة كل من يريد السفر ، فى اللحظة التى يطلب فيها ذلك . ولكن ، إلى أين انت ذاهبة ، أيتها العمة العزيزة جينا ؟ .. انك تعلمين ان دريك وفلاور سيصلان الليلة ! » . فقالت الدوقة ساخطة : « اننى أنفض يدى من أمرك ، وأريد العودة إلى الجنوب » .. وجنحت جين إلى الملاطفة قائلة : « لا تفعلى شيئا من ذلك يا عزيزتى .. لقد نفضت يدك منى مرات كثيرة . ولكننى مثل دم الملك دنكان — ملك اسكتلندا — الذى يبقى دواما عالقا باليدين ! » .. ثم رفعت صـوتها قائلة : « جارث ، إذا اردت أن تتربص لفترة وجيزة، فنادنى. إننى هنا ، ابحث مع عمتى الدوقة شئون جهـازى ! » . وواتاها رد جارث متسائلا فى مرح : « وما هو الجهاز ؟ » . فأجابته : « شىء ترتديه لتتزوج ! » . فصاح جارث بحماسة شديدة : « إذن ، فلنسارع إلى ارتدائه ! » .

وعند ذلك قالت جين : « يا عمتى العزيزة .. تعالى نتفق على أمر سواء بيننا . لدى فى حجرتى بعض الثياب البديعة ، ومنها ما هو من حياكة أشهر الحائكين .. فأطلبى من وصيفتك أن تلقى نظرة على كل ثيابى ، واختارى ما ترينه منها ، ولتعده

هى لأرتديه فى صبيحة زواجى .. وأعدك بأننى لن استبدله بغيره » .

وكانت نتيجة هذا الجدل، ان ظهرت «جين» فى الكنيسة فى ثوب أزرق طويل، ومعطف من لونه مزركش بالذهب، يتناسق مع جسمها السمهرى إلى درجة الكمال ، وقد تمنطقت بحزام أصفر داكن ، من الحرير الثمين .. و احاطت عنقها ومعصميها بدانتيلا قديمة ثمينة !.. وبقدر ما كانت « جين » غير مكترثة بلباسها ، كان « جارث » يتقد تحمسا لبلوغ اقصى درجات الأناقة . ولما كان كثيرا ما دعى لأن يقف شبينا فى حفلات الزواج فى لندن ، فان سمسون اكتسب دراية بكل ما يرتبط بهذه المناسبة ، فلم يجد صعوبة فى تمكين مخدومه من أن يظهر فى اقصى آيات الأناقة .

وما كان أبهاه وهو يقف على عتبة المذبح، فى انتظار عروسه! ولم يكن يراها ، ولكنه ظل ينصت إلى وقع خطواتها ، حتى إذا جاءت مستندة إلى ذراع الدكتور دريك ، أمال جارث رأسه قليلا نحوها وابتسم !

أما الدوقة ، فقد اختالت فى ثوب حريرى أحمر ، محلى بالفراء ، بينما ازدانت قبعتها بالريش الأبيض ، وقد تدلى منها كثير من السلاسل المرصعة بالجواهر ، والتى كانت تحدث صلصلة ورنينا وسط سكون الكنيسة ، كلما تحركت الدوقة التى جلست فى مقعد خاص بالصف الأمامى ، فى انتظار ابنة اخيها لتسلمها إلى زوجها .. وفى مقعد مقابل — من الجانب الآخر — جلست « مارجرى جرايم » فى أقرب مكان للعريس ،

مرتدية ثوبا من الحرير الأسود ، وقبعة صغيرة من الحـرير المطرز ومنديلا أبيض استقر عند قلبها الكبير المخلص الذى ظل يخفق ـ فى حنان بالغ ـ لجارث منذ طفولته .. وكانت تلتفت فى قلق كلما انبعث الصليل من الدوقة ، وفيما عـدا ذلك ، فان عينيها لم تحيدا عن متابعة المراسم الدينية لعقد القران ، وفى يدها كتاب صلاة .

وكان الدكتور « روب » هو الأعزب الوحيد الذى استطاع ان يحتل مركز الشبين(١) . وقد اصرت جين على أن لا يعهد إليه بالاحتفاظ بالخاتم . فان ما لاحظته عليه من قبل ، جعلها توجس خوفا من أن يضع الخاتم حول أصبعه وهو ساه ، ثم يروح يبحث عنه ـ عندما يطلب منه ـ فى كل جيوبه وجيوب جارث وجيوب الحاضرين ، وقد يقلب أبسطة الكنيسة قبل ان يفكر فى البحث عنه حول أصبعه !!.. وهكذا وضع الخاتم فى جيب صدرية جارث وظل به منذ أحضرته « جين » من (ابردين) . وقد اضطلع الدكتور روب بدفع أجور الكاتب والمسجل وقارعى الاجراس ، وكل خدم الكنيسة .. ووضع النقود التى عهد بها إليه « جارث » لذلك ـ فى سخاء ـ فى جيوبه ، وأخذ يصلصل بها عندما بدأ القس يوجه الوصايا إلى العروسين . وقد بلغت به حماسة الفرح حدا تعددت عنده

(١) ذكر الدكتور روب ـ فى فصل سابق ـ أن له زوجة وفيه ، لا تكلفه نفقات ما ، ولا تطالبه بأزياء ، ومع ذلك فهى شـديدة الوفاء .. وكان يرمز بذلك الى كلبه !

هفواته ، دون أن يفطن إلى ما كان يفعل . وبذلك عمل هو من ناحية ، والدوقة من ناحيـة ، وراحـا يتناوبان الرنين والصلصلة .. وكل منهما ينزعج مما كان يصدر عن الآخر ، دون أن يفطن إلى ما كان يصدر منه . فأخذت الدوقة تحملق فى الدكتور روب ، والدكتور روب يعبس فى وجه الدوقة .. بينما كانت مارجرى ترمقهما معا بعينين دامعتين !

أما « دريك براند » ، فكان أطول الحاضرين فى الكنيسة ، وقد زان قوامه المشوق حلة سوداء ذات صدرية من الحرير اللامع ، أعدتها اللادى براند واصرت على أن يرتديها فى هذه المناسبة . وبعد أن قاد « جين » إلى جانب « جارث » ، عاد إلى مقعده بجوار زوجته ، خلف مقعد مارجـرى .. فلمـا سحبت جين يدها من ذراعه، أدارت وجهها إليه، وافتر ثغرها عن ابتسامة شكر .. وفى النظرة السريعـة التى تبادلاها ، تجمعت كل ذكرياتهما الماضية ، وكل ما كان متبادلا بينهما من ثقة وعواطف طوال السنين التى مرت عليهما . وثبتت الليدى براند عينيها على كتاب الصـلاة الأبيض الأنيق .. فما كان للغيرة ظل فى حياتها الزوجية ، لأن الطبيب لم يدع فرصة لهذا الشعور كى يتسلل إلى قلبها ، وكان بهاء زهرته (وهو المعنى الحرفى لاسمها .. فلاور) هو وحده مصدر سعادته، وما كانت الحسان الأخريات ـ فى نظره ـ سوى كائنات حية لا يهتم بها إلا من الناحية العلمية فحسب . على أن « فلاور » لم تستطع أن تصل إلى أعمق أغوار الصـداقة التى نمت بين « جين » و « دريك » منذ الطفولة ، وزمالتهما فى شبابهما مما يعـزز

دعائمها تشابه عجيب فى الخصال والأخلاق ، ما كان ليساعد على زواجهما ، ولكنه صار إلى ود وزمالة كانت لكليهما خير مشجع . وقد حاولت فلاور — فى السنوات الأخيرة — ان تشاركهما مودتهما صادقة ، ولكنها عجزت عن أن تسبر عمقها تماما . وبدأت الصلاة .. وكان القس قصير النظر ، عصبى المزاج ، زاد من انفعاله ما لابس هذا القران الهام من ظروف لم يعتدها : فمن ترخيص خاص ، إلى « عريس » أعمى ، إلى وجود دوقة فى الحفل .. كل هذه الأمور زادت من توتر أعصابه ، فراح يقرأ بسرعة فائقة ، وبصوت خافت لم تتمكن العجوز مارجرى من تتبعه ، مع ما بذلته من جهد . ولما فطن القس إلى ارتباكه ، بدأ يتريث فى التلاوة ، ويمط فى النطق بالألفاظ ، ويتوقف طويلا عند آخر كل جملة ، فتوترت أعصاب الحضور .. فوق ما تخلل ذلك من صلصلة سلاسل الدوقة ورنين النقود فى جيوب الدكتور روب !

وسارت المراسم على هذا النحو ، حتى بلغت نهايتها بالاستفهام عما اذا كان هناك معترض على صحة زواج العروسين وشرعيته .. وطال انتظار الرد، مما ضاعف من توتر الأعصاب ، فما لبثت العجوز مارجرى أن هبت صائحة: « كلا، ثم شهقت فى انفعال عصبى ، فأدار « العريس » رأسه نحو مصدر الصوت وابتسم ، بينما وضع الدكتور دريك يده على كتف العجوز مارجرى وهى ترتجف ، وهمس قائلا لها : « تجلدى يا صديقتى ، فكل شىء على ما يرام ! » .

ولم لبثت « جين » أن وجدت يدها اليمنى مشتبكة بيد

جارث بقوة . وما كان لأى إجراء من إجراءات الكنيسة أن يفسد روعة الكلمات الكنسية التى وجهت إلى « جارث » للاستيثاق من قبوله « جين » زوجة له .. ورد « جارث » — ومعه العجوز مارجرى — بالإيجاب ، فى عاطفة حارة متحمسة . ثم سئلت جين بدورها ، وكأنما كانت الكنيسة تبغى — ولو بطريقة إيحائية مترفقة — أن تنبهها إلى انها تقبل الزواج منه وهو أعمى . فأجابت جين : « نعم أقبل ! » .. وانبعث الصوت العميق العطوف كما كان ينبعث منغوما فى انشودة « المسبحة » . وما أن نطقت جين بالرد ، حتى رفع جارث اليد التى كان ممسكا بها ، ولثمها بكل احترام . ولم تكن هذه الحركة الأخيرة مدونة فى الطقوس الكنسية ، مما أدخل فى روع القس شيئا من الحيرة ، ثم رفع رأسه فجاة سائلا : « من منكم يمنح هذه المراة زوجة لهذا الرجل ؟ » .. ولما مرت لحظة لم يسمع ردا ، أعاد السؤال بحدة ، وهو يحملق بنظره فى أرجاء الكنيسة . وإذ ذاك فطنت الدوقة إلى أن دورها قد حان ، فنهضت عن مقعدها الكبير ، وتقدمت إلى عتبة المذبح ، وقالت للقس : « أيها الرجل العزيز الطيب ، اقرر باننى امنح ابنة اخى لهذا الرجل ، وقد قدمت إلى الشمال ، متحملة متاعب السفر من اجل هذا الفرض » . وكان السأم — لطول الإجراءات — قد أودى بأعصابها ، فهتفت : « والآن ، استمر .. ما الذى ستفعله بعد ذلك ؟ » . وهنا انفجر الدكتور روب ضاحكا ، فرفعت الدوقة منظارها وراحت ترمقه !

* * *

ولم يكن بين الحضور — على تباين اشتداد سأمهم — من



لم يحفل بالإجراءات ، قدر العروسين نفسيهما . **لقد فاز كل منهما بصاحبه ، أمام الله وأمام الناس ، فانصرف كل منهما إلى الآخر بكل نفسه** ، وقد وقفنا أمام الله .. أما « أمام الناس » فهذا ما لم يكترثا له كثيرا . وكانت « جين » قد قالت لجارث لم يسمع ردا ، أعاد السؤال بحدة ، وهو يحملق بنظـرة فى من قبل : « كل الناس يتصرفون تصرفات غريبة فى حفـلات الزفاف ، ولن تشذ حفلة زفافنا عن القاعدة ، وما علينا سوى أن نغلق عيوننا ونقف معا فى « الأرض لا ابصار فيهـا » ، تاركين لدريك أمر مراعاة كل الأصول المتبعة وقانون الزواج، حتى لا تشوب زواجنا اية شائبة ! » . فأجابها جارث : « ليس فى الأرض التى لا ابصار فيها يا محبوبتى .. ولكن فى عـالم لا حاجة فيه للشموع ولا لأشعة الشمس .. وابنما وكيفمـا اتخذك زوجة ، فاننى سأصبح فى ذروة سماء الله ! » .

وبذلك وقفا معا ، وقد بدا لهما — فى سكينتهما — أنهمـا محوطان بصمت شامل . واستمرت المراسم الكنسية .. ورأى القس فى حيرة، انه لا يدرى كيف يقوى على فك يديهما، بعد أن انتهى الموقف الذى كان يقتضى اشتباكهما . ولكن اللحظة التالية كانت تتطلب أن يضعا أيديهما معا ، رمزا لانها تسلمه نفسـها ولأنه يتسـلمها . وهـكذا ظلت يدا العـروسين متماسكتين ، فى شعور عميق رصين محتشم .. وفى حنان أخذ كل منهما الآخر أمام الله ، طبق حكمته وأوامره المقدسة !

وعندما فرغت المراسم ، أخذت جين ذراعه ، ومالت عليها ليشعر باعتمادها عليه ، وقادته سائرين إلى داخل الهيكل .. حتى إذا استقلا سيارتهما — بعد ذلك — واحسا لأول مرة

بلذة الانفراد معا كزوج وزوجته، التفت جارث إلى جين بشوق فطرى الهب قلبها بنشوة تفوق ما تحدثه الكلمات او الخطب المنمقة . فلم يقل لها « يا زوجتى » لأن تلك الكلمة قد توجت اللحظة التى سبحا فيها من ثلاث سنوات فى سحر شامل .. وقال لها : « يا اعز شيء لدى ، متى سيرحلون ؟.. متى نصبح فى خلوة تامة ؟ ولم لم يستقلوا القطار عقب خـروجهم من الكنيسـة ؟ » . فالقت جين نظرة على السـاعة ، وقالت له : « لأن من الواجب أن يتناولوا طعام الغداء على مائدتنا ياعزيزى .. ويكفى أن تفكر فيما قاموا به جميعا لنا ، فلا يحق لنا أن نبدأ حياتنا الزوجية بالتقصير فى إكرام ضيوفنا .. الساعة الآن الواحدة ، وقد حددنا للغداء الساعة الواحدة والنصف ، وسيبرح قطارهم المحطة فى الساعة الرابعة والنصف .. ثم نصبح يا جارث وحيدين تماما ، بعد نحو ثلاث ساعات ! » .

وصاح جـارث فى فرح صـبيانى : « وهل سأقوى على الاحتفاظ بحسن السلوك واللياقة لمدة ثلاث سـاعات ؟ » فأجابته جين : « بل يجب عليك ، وإلا احضرت لك المرضـة روزمارى ! » . وإذ ذاك هتف : « آه ، حذار ، فان كل حديث فى هذا اليوم اثمن من أن يتناول هـزلا .. يا جين ! » . ثم التفت لها فجاة . ووضع يده على يدها قائلا : « جين ، هل تعلمين انك الآن قد صرت زوجتى فعلا ؟ » . فأمسكت جين بيده ، وضغطت بها قلبها وهى تحاول أن تهدىء خفقاته ، وقالت له : « يا حبيبى .. اننى لا اعلم فحسب ، ولكنى أفهم تماما والله الحمد إنه أصبح حقيقة واقعة ! » .



الفصل الثامن والثلاثون

كان وصول فخامة دوقة « ميلدرم » إلى قصر (جلينيش حدثا كبيرا أوجد به الكثير من الحركات غير العادية . فقد هان على « سمسون » كل انزعاج ، وكل انفعالات ، أمام الزهو الذى لم يكن يحلم به يوما .. الزهو بوجود دوقة تخرج وتدخل وتدب فى القصر . أما « مارجرى » ، فان حادث وصول الدوقة لم يشعرها بشىء من الزهو ، بل قابلت فخامة الدوقة كما لو قابلت زوجة القس ، وأدت لها ذات التحية التقليدية التى أدتها لبقية الناس .. احترام فى غير تذلل ، وتودد دون الفة .. بل أن تساؤلا طارئا دار بمخيلتها عن السبب الذى كان يستدعى حضور دوقة إلى (جلينيش) ، غير أنها لم تتساءل مرة عما استدعى حضور زوجة القس مثلا . ولم يطل بمارجرى التساؤل عما جاء بالدوقة ، بل سرعان ما أكبرتها ـ برغم ما سببه وجودها من متاعب ـ حين علمت أن وجودها كان ضروريا لاستكمال المراسم والمظاهر المطلوبة لحفلة الزواج ، مما يبعث البهجة فى قلب ابنها المحبوب ..

أما تابع الدوقة ، فكان شابا طيب الخلق ، لا يعيبه سوى عجزه عن أن يتولى حراسة فمه بنفسه ، فتكلفت مارجرى بالحراسة اللازمة ، فكان التابع إذا أراد أن يسترسل فى سرد قصصه اللاذعة عن أفعال الدوقة فى قصر (أوفردين) ـ أو أى مكان آخر ـ لجأ إلى غرفة « سمسون » واطمأن إلى أن الأبواب موصدة ! .. أما الوصيفة ، فقد رأت مارجرى أنها

فتاة مسكينة ليست من الغباء بالدرجة التى تتجلى عليها ، بل كانت على شىء من الذكاء واللطف ، فمنحتها صداقتها .. فى حين أنها وصفت طائر « التوكان » ـ منذ النظرة الأولى ـ بأنه « طائر نحس من الطيور الكاسرة » . فلم تسمح لأحد من الخدم بأن يشير إليه فى حديثه ، وكلما أصدرت الدوقة أوامرها بإعداد إناء مملوء بالأرز المسلوق مع الزبيب ـ فى أية ساعة من ساعات النهار ـ كانت مارجرى توافيها بفضلة من الأرز الذى كانت تعده لجارث ، وهى تقول لسمسون : « هذا لأجل القفص الذى يحلو لصاحبه الفخامة أن يكون معها فى أسفارها ! » . ثم تقول للخادمة ماجى على انفراد : « يا لذنب أولئك الذين لم يتركوا هذا المخلوق فى أعماق غاباته البدائية ! » .

أما جين ، فقد كسبت منزلتها فى أعماق قلب مارجرى قبل أن تتجلى شخصيتها الحقيقية . وقد قالت مارجرى لجارث ، وهى تحدثه ـ فيما بعد ـ عن الممرضة روزمارى : « لم يطل كثيرا اقتناعى بأنها ممرضة ، فقد كانت تبالغ فى الظهور كممرضة محترفة ـ فى أيامها الأولى ـ فى كل شىء عدا عينيها ، إذ لا سبيل فى ثوبهما بزى الممرضات .. والعينان نافذتان تطل منهما على قلب المرأة ، وقلما نظرت فيهما دون أن أتيقن من أن القلب الكامن فى صدرها ، ملك ـ بأكمله ـ لولدى المحبوب . ولما عصبتهما أياما لتعيش فى الظلام من أجله ، أدركت عظمة قلبها ، واطمأننت إلى أنه فى رعاية المرأة التى تحبه ، فلم أشأ أن أعرف مزيدا ، إلى أن يقال لى ما قد يكون هناك » .

وهكذا ظفرت جين بطريقها إلى قلب العجوز بتفانيها ، ولم يبق من مصدر للحرج — فى تلك الأيام السعيدة — سوى الدوقة، إذ شاءت أن تتدخل فى تعديل نظام القصر . وكان هذا مجالا لاصطدامات بينها وبين مارجرى ، هددت خلالها الدوقة — أكثر من مرة — بأن تبادر بالرحيل إلى الجنوب ، ولكن جين كانت تتدخل بحكمتها ولباقتها ، فتفض الإشكال الذى ادى إلى النزاع ..

* * *

ومع ذلك فعقب انتهاء حفلة الزفاف استولى على مارجرى ارتياح بالغ ، إذ أيقنت بأن قصر (جلينيش) لن يلبث أن يتحرر من نزوات دوقة ميلدرم !

وفى حفلة الغداء الذى أعد بعد الزفاف ، حدثت جملة تعديلات بسبب طائر « التوكان » .. إذ أن الدوقة شهدت آخر هذه النزوات ، إذ أجريت تعديلات فى نظام المائدة ، بسبب الطائر « التوكان »، فان الدوقة أصرت على إخراجه من قفصه ووضعه على ظهر مقعد إلى يسارها . كان معدا لجلوس الدكتور « روب » ، واقتضى ذلك أن يتحول الدكتور روب إلى مقعد آخر مواجه له .. وقد أتاح هذا التعديل تسلية كبرى للدكتور روب — حين شرع سمسون فى تقديم صحاف الأطعمة للدوقة — إذ راح يشاهد ذراع سمسون وهى تمر بين الدوقة والطائر ، حاملة صحاف الطعام . وكانت الدوقة — كعادتها — تضع منظارها فوق عينيها متأملة محتويات كل صحفة من ناحيتها ، فيقفز الطائر ويميل برأسه إلى جانب ، ويتأمل

الطعام من الناحية الأخرى . وكانت الدوقة إذا نظرت إلى سمسون مستفسرة عن نوع الطعام ، رفع « توكان » رأسه ناظرا إلى سمسون فى صمت .. وكان لصمته على سمسون تأثير أشد رهبة من سؤال الدوقة المفاجىء . ولقد امتقع وجه سمسون مرة ، والجم لسانه ، وغاب عنه ذكر اسم الطعام . كما عجز عن تركيب جملة يرد بها على سؤال الدوقة .. واخذته الحيرة ، خشية أن يؤدى ارتباكه إلى احتمال سقوط الصحفة من يده ، وما فى ذلك من خطورة إسقاط الطعام على ملابس دوقة .. فبادر الدكتور براند إلى إنقاذ الموقف — وقد كان جالسا إلى يمين الدوقة — فقدم لها قائمة الطعام ، وشرح لها الصنف الذى كان يقدم لها .. وعند ذلك تناولت الدوقة قسطا من الصنف ، راعت فيه أن يكفيها ويكفى الطائر الذى كانت ترفع إليه قطع الطعام على طرف الشوكة ، فيبادر إلى اختطافها بمهارة ، ويبتلعها بحلقومه الكبير .

وكان الدكتور روب مشغوفا — بسليقته — بكل غريب ، فانصرف إلى مراقبة ما كان يجرى أمامه ، وهو يكاد يصيح طربا . ولاحظت الدوقة سرور الدكتور روب بحركات الطائر ، فقالت له : « اراك معجبا به !.. انه على جانب كبير من الذكاء ، فهو يدرك دواما ما يريده ، وإذا حزم أمره على شىء رفض كل ما عداه مهما يكن أفضل منه .. انظر إليه الآن ، انه يحملق فى قطع الطماطم الصغيرة المتبقية فى إناء السلطة ، ولن يقنع حتى يحصل عليها .. انظر ! » . واتجهت انظار كل من على المائدة ، ووضعت جين يدها على ركبة جارث

وهمست له بما كان يجرى ، وأمسكت الدوقة بقرن من الموز فأزالت قشره ، وقدمت إلى الطائر طرفا كان نضوجه قد تجاوز المقبول . فتناوله بمنقاره الكبير ، ثم لاح عليه الاشمئزاز ، وسارع بإلقاء الموز فوق المقعد !

فصاحت الدوقة : « انظروا ! .. ماذا قلت لكم عنه ؟ » . ثم أمسكت بحبة عنب حمراء كبيرة ، وقدمتها للتوكان فابدى اغتباطا ، حتى إذا هم بالتقاطها ، ردتها الدوقة ، وقدمت له قطعة خبز . فاختطفها منها وقذف بها الدكتور روب !

وأبرقت عينا الطبيب الزرقاوان تحت حاجبية الكثيفين ومال إلى الأمام فى تأثر وقال : « بل انه اكثر من ماهـر .. فهـو لا يقتصر على معرفة ما يريد — وقليلون منا يفعلون ذلك — بل يتجاوزها إلى معرفة كيف يحصل على ما يريد .. ان هذا الطير قد لقننى درسا .. فلو اننى كنت مثله ، لما اضطررت إلى شرب « الشمبانيا » على غير رغبتى ، لأننى عندما جلست طلبت « ويسكى » و « وصودا » .. غير أن الشمبانيا قدمت لى ، فتقبلتها فى تسامح وخجـل . وقد علمنى هـذا الطائر الحكيم ، ما كان ينبغى أن أفعل ! » .

وصاحت الدوقة وقد فاض بها السرور : « ها هو ذا رجل يصادف هوى من قلبى ، فليعطه أحدكم ويسكى ! » .

وكان قد ثبت فى ذهن سمسون انه المقصود بكلمة الدوقة « أحدكم » كلما قالتها ، فسارع إلى قنينة الويسكى ، ووضعها فى متناول يد الدكتور روب ، بينما كانت الليدى براند تقول :

« إننى قلقة بشأن قطعة الموز التى سقطت على المقعد .. لنفترض ان احدنا قد جلس فوقها عفوا ! » . فصاحت الدوقة : « ليرفعها أحدكم ! » . وسارع سمسون وفى يـده ملعقـة ومنشفة .

وصوب الدكتور روب كرة من الخبز إلى ناحية أشار للطائر نحوها ، فاذا الطائر يلتقطها ، ثم يرفع بها منقاره ويبتلعها ، فانعم قلب الدوقة بالفرح لهذا المنظر .. وكانت قد اعتزمت — وهى فى الكنيسـة — أن تدعو الدكتور روب إلى (أوفردين) فى حفلاتها العادية ، ولكنها — بعد هذا العمل — قررت ترقيته ودعوته إلى حفلاتها الممتازة . واخذ الجميع يلقون كرات الخبز والطائر يتلقفها واحدة تلو الأخرى ، ثم ألقت جين إليه بحبة من العنب — وهى فى آخر المائدة — فتلقفها وابتلعها .. ولم تكن « فلاور » ماهرة فى الرماية ، ولا كانت تميل لمثل هـذه الألعاب ، ولكنها خشيت أن تتهم بالشذوذ ، وحاولت أن تلقى بدورها بحبة من العنب إلى الطائر . ولكنها للأسف أصابت بها الدوقة !

وكان لهذا الخطأ من الأثر ما أوقف اللعبة ، فشغل المدعوون بمسائل أخرى إلى حين ، كما شغل جارث وجين بالحديث إلى « فلاور » عن « ديكى » الصغير ، ابنها .. وهتف جارث : « آه ، ان ديكى هو أبدع صبى عرفته ، وقد جمـع أعظـم خصال والده واجمل حسنات أمه فى شخصه البديع .. ويسرنى الحديث مع ديكى اكثر منه مع أى شخص آخر من معارفى . وكم

اشعر باعتزاز عندما يقول لى : « يا سيد دالمين وددت كثيرا أن أتحدث إليك ! » .. وأبدع جارث فى تعبيره، حتى توردت وجنتا أم « ديكى » سرورا ، ورشقت مضيفها بابتسامة امتنان . ثم أدركت ـ مع الحسرة ـ أن الابتسامة لا تجدى فى اطلاعه على شعورها . ولم تنتبه إلى أن جين همست فى أذنه: « ان سرور غلاور قد بلغ غايته يا حبيبى ، وكان هذا جميلا منك ! » .

وهنا راق للدوقة أن تستأنف حديثها مع الدكتور روب عن الطيور ، فقالت له : « عندما تحضر إلى قصرى فى (أوفردين) ستسمع « تومى » .. وهو ببغائى الأحمر .. أتتصور ما يقول حينما أهبط درجات السلم وعلى رأسى قبعة الحديقة ؟ » .. وهنا قال جارث لجين متسائلا فى صوت خافت :« أتعرفين قصة تومى عندما قيل له : يجب أن تقول يا صاحبة الفخامة .. ؟ » . وتذكرت « جين » المرة التى روى فيها « جارث » تلك القصة للممرضة روزمارى ، فبادرت قائلة : « كلا .. وكم أحب أن أسمعها ! » .. فغمغم جارث : « أما أنا فارفض أن أقصها ! .. والآن هل لك أن تنظرى إلى ساعتك وتخبرينى بالوقت تماما دون ما خطأ ؟ » .

وأجابت جين : « كلا يا عزيزى .. فلست أجرؤ على إخراج ساعتى وإلا أحرجت الضيوف » . فسألها : « ولماذا ساد هذا الصمت ؟ » فقالت : « لقد انتهت قصة صاحبة الفخامة .. وبدأ الطائر يشرب جرعات من الشمبانيا التى تقدمها له الدوقة

فى كأسها ! » .. وهنا قالت ليدى براند : « أعتقد أن أكبر خطيئة هى أن يعطى طائر برىء شيئا من الشمبانيا » .. فصاح جارث : « أواه ، يا ليدى براند ! .. طائر برىء ؟! ليس بين طيور الدوقة أى طائر برىء ، فان « تومى » ـ مثلا ـ عجوز سليط . .هل سمعت عن ميزان الحرارة ؟ » ..

وهنا كانت الشمبانيا قد أحدثت مفعولها فى الطائر ، فأخذ يصرخ ويصيح فى ضوضاء ، ثم قفز على كتف الدوقة وأخذ ينبش شعرها . وراحت الدوقة تلطمه وتصده عنها بمنظارها، فكان يتفادى لطماتها ، ثم يعاود المحاولة ، حتى فك جميع خصلات شعرها، فتهدلت .. وصرخت الدوقة قائلة : « ليأخذه أحدكم ! » . غير أن سمسون تغافل ـ فى هذه المرة ـ عن النداء ، وتسلل خلف إحدى الستائر ليرقب ما كان يجرى . فنهض الدكتور دريك ، وجاء خلف الدوقة ، وقبض بيديه على الطائر ، واجتهد فى تخليص شعر الدوقة من منقاره، بأن وضع اصبعه داخل فكى الطائر بحرص شديد ، ولكن الطائر أطبق بفكيه على اصبع الدكتور ، مما دفع غلاور لأن ترسل صرخة قوية .

وبينما كان الدكتور ينقل الطائر المهتاج إلى قفصه ، أخذ يضحك وهو يقول : « لا ضرر .. فان هذا المنقار الكبير لا يلحق ضررا إذا دفعت بأصبعك إلى الداخل .. أما إذا تركت الأصبع عند حافة المنقار ، فهنا الخطر ! » . وتذكرت « جين » إذ ذاك أنها السيدة المضيفة ، فقالت [illegible] ألا توافقون

على أن ننتقل إلى الحديقة ، فلا تزال هناك ساعة ؛ قبل إعداد العربات .. أما أنت يا فلاور فأود أن أرافقك فى نزهة قصيرة إلى الرابية العالية .. فهل ترغبين فى تناول القهوة فى الشرفة يا عمتى جينا ؟ .. وأنت يا دكتور روب ؟ .. أما أنت يا دريك فان جارث يود أن يتمتع بجولة معك ! » .

. . . .

. . . .

وبعد نصف ساعة ، كانت جين تجلس فى الشرفة ، خارج حجرة المكتبة — بين الدوقة وفلاور — وإذا بالدكتور يأتى باحثا عنها قائلا : « جانيت .. هل أطمع فى ربع ساعة من وقتك ؟ » . فنهضت جين لفورها قائلة : « نعم أيها العزيز ، لك أن تطلب ما تشاء ، فهذا أقل ما نملك لكى نوفيك حقك ! » .

الفصل التاسع والثلاثون

بدأ الدكتور براند حديثه مع جين قائلا : « تعالى نصعد إلى الممر المنحنى ، لنبلغ البقعة العارية بين الأشجار ، حيث قضيت — منذ أيام — وقتا حرجا بأن اثنين لا يبصران ! » .

فهتفت جين : « آه ، يا له من يوم ! .. ولكن ، هل صارحته يا ديكى بمدى ما كنت تعلم من الحقيقة إذ ذاك ؟ » .

— أجل يا عزيزتى ، وقد برأنا من أن نكون خدعناه ؛ وقال انه يذكر كل كلمة من كل حديث ، ويرى أننا التزمنا جادة الصدق .. إن لم يكن فى مرمى الكلام ، ففى معناه الظاهرى .

الشبه بينك وبين الوصف الذى كتبته للممرضة روزمارى !

وإذ بلغا البقعة العارية ، جلسا على جذع الشجرة الذى كانت جين تجلس عليه معصوبة العينين ، عندما وقع عود الثقاب على يدها . ثم سادهما الصمت .. كان لا بد للثقة والمودة — اللتين ربطتا بينهما سنوات طويلة ، واللتين اجتازتا كثيرا من المحن والتجارب — أن تجتازا تجربة اليوم ، فهى — فى حساب الطبيب — أقسى وأمر مما كان يخال ! وكان لديه حديث لا بد من أن يفضى به إلى جين ، لكى يفارقها — فى هذه المناسبة — وهو مرتاح الفؤاد ! لذلك شرع يقول بصوت عميق ثابت النبرات : « جانيت .. هل تذكرين حالى فى الصباح التالى للحديث الذى دار بينى وبين دالمين ؟ .. كنت شرسا ، سريع الغضب ، فى حين أنك كنت — يا فتاتى المسكينة — معصوبة العينين ، تجلسين فى الظلام بلا حول ولا قوة ! » .

وابتسمت جين ، وحاولت ان تخفف عنه ولكنه قال : « اننى لم اكن مطلق النزاهة معك ، حين جعلتك تظنين اننى كنت مهموما من أجل متاعبك ومتاعبه فحسب . ولكن دالمين ذكر شيئا عنك، جعل عقلى يلتوى فى غير الاتجاه الصحيح، فأفسد على يومى !.. ولم يكن بوسعى أن أذكر لك — إذ ذاك — ما قال ، ولكننى — كذلك — لم استطع أن أنساه !». وغالبت جين عواطفها ، وافتر ثغرها عن ابتسامة ، بينما تضرجت وجنتاها ، وقالت : « ما الذى قاله لك .. زوجى ، عنى ؟ ». فقد كانت هذه اول مرة تذكر فيها « جارث » بهذا اللقب .. وتأمل الطبيب وجهها ، ثم قال :

— كان يتكلم عنك بوصفك « المراة الوحيدة » ، دون أن يفصح عن شخصيتك ، معتقدا اننى لا أعـرف من التى كان يعنيها . وبدا كأنما كان يظن أنه يعرف كل ما يمكن معرفته عنك، وقال انه كان موقنا من انك لم تحبى حقا أو تعرفى الحب، حتى تلك الأمسية التى ضمتكما فى شرفة قصر (شينستون) .. ولكنه كان يعتقد أن ثمة شابا جعلت انت منه مثلك الأعلى سنين طويلة .. جعلته معدلا تقيسين به الرجال . وان هذا المعدل كان خليقا بأن يفوز — كما فاز بك دالمين اليوم — لو لم يكن أعمى حقا !.. ولست أصدق هذا يا جانيت ، لأنه لو كان ثمة رجل قد ظفر بحبك — على أى احتمال كان — لما تجاوزه دون أن يفطن إليه !

وتفصد العرق من جبينه ، فضحكت جين فجأة — فى انبساط صادق — ووضعت يدها اليسرى ، التى زانها خاتم الزواج من



بدأ الدكتور (براند) حديثه مع (جين) قائلا : تعالى نصعد إلى الممر المنحنى ، لنبلغ البقعة العارية بين الأشجار ..

جارث ، على يده ، وقالت : « أواه ، أيها العزيز ، الساذج القلب ! .. لقد بدأت أرى النور ، وسأكون صريحة معك . حتى لا تعكر صفو صداقتنا غمامة ، فى السنوات المقبلة ، المشرقة بالهناء ! .. لقد كان جارث على حق ! .. كان ثمة رجل جعلته ــ ولا أزال ــ مثلا أعلى ، حتى إذا كان شرسا ــ وهو ما لم يحدث قط ــ وحتى إذا كان أحمق، وهو ما لم يكنه سوى هذه المرة ، فى كل حياته المتسمة بالحكمة !.. ولكنه لم يسبب لقلبى أوجاعا قط ، اللهم إلا حين كنت أراه لم يبلغ من السعادة ما يستحق . ولو انه سألنى أن أتزوجه لفعلت ، لا لشىء إلا لأننى لم افكر يوما فى أن أرفض له أمرا ، أو أتريب فى رجاحة رأيه .. فضلا عن أننى لم أكن ــ إذ ذاك ــ أعرف شيئا عن الحب الحقيقى . ولكن زواجنا لم يكن كفيلا بأن يسعده ويسعدنى ، لأننا كنا من التشابه فى كل شىء ، بحيث لا يمكن أن يكمل أحدنا الآخر على الوجه الذى يعنيه الزواج!.. وكنت خليقة بأن أقضى نصف الوقت أصر على أن يجعلنى مسحة لقدميه ، ثم أقضى النصف الآخر فى شجار معه ، لأنه جعلنى كذلك !.. ان المادة التى تخلق صداقة رائعة ، لا تصلح بالضرورة لأن تخلق زواجا ناجحا !.. أواه ، يا فتاى ! لا تتعب رأسك العزيز فى التفكير فى الحمقى العميان الذين يحتمل أن يكونوا قد غفلوا عنى فى الماضى ، فما غفل عنى أحد . ولكنى أحمد الله إذ وهبنى مثلا أعلى للرجولة ، صاننى من كل رجل ناقص ــ وقادنى ــ سليمة، مرتاحة الضمير، لم يمسسنى بشر

ــ خلال سنى الصبا والمراهقة والشباب ، إلى المعجزة المجيبة التى حظيت بها اليوم ! » .

فتأمل الخاتم الذهبى ، الذى زان يدها القوية ، النبيلة . وقال : « شكرا لك ! » . ثم أردف فجأة : « ولو أننى كنت أتمنى لو أن صاحب المعجزة لم يكن أعمى ! » . فهتفت بصوت خافت : « آه ، صه ! انك تخطو على أرض مقدسة ، وقد نسيت أن تخلع حذاءيك . أن من أحلى ما يربط بينى وبين زوجى اليوم ، أننا تعلمنا أن نلثم ذلك الصليب ! » .. ونهضت فسرحت بصرها خلال المروج والتلال، ثم التفتت إلى الطبيب. ووضعت يديها فى يديه قائلة : « وداعا يا عزيزى ديكى ! لكم أحبك لأنك جعلتنى أصارحك بما قلت ! انه الشىء الذى ما كان أحد سواك ليقدم عليه . فلعل جارث يطلعنى يوما على ما قاله لك ، ومن المحتمل أننى كنت سأقضى فترة تعسة ، خشية أن تكون قد أسأت فهم ما يعنى ! .. لذلك فاذكر دائما انك كنت طيلة هذه السنين الطويلة نعمة وعونا ، ولم تكن يوما سببا فى أن يخفق قلبى بألم وحسرة ! » .

وإذ أشرفا على القصر ، قال الطبيب : « هذا يوم زفافك يا جانيت ، وانك لتعلمين أن على العروس ــ فى هذه المناسبة ــ أن تجود بامتيازات كثيرة .. فهل تسمحين لى ــ إذا ما اجتمعنا فى البهو مع فلاور وزوجك ــ بأن أقبلك .. قبلة الوداع ؟! » . فهتفت جين : « ما أجمل ما تطلب يا ديكى العزيز ، ولكنى أؤثر أن لا تفعل ، إذا لم يسؤك هذا : أولا

لاننى درجت طيلة عمرى على أن أكره التقبيل .. وثانيا لأن هذا يفسد بهاء ما قلته لى فى غرفة الاستشارة بعيادتك ـ فى آخر مرة ـ من انك لم ترنى أفعل طوال عمرى ما لا داعى له . وما لا جدوى منه . وثالثا .. » ، وهنا خفت صوتها وشاعت فيه رقة ، وهى تقول : « لا أرى بأسا من أن أقول لك اننى أريد أن اخبر جارث صادقة ـ إذا سألنى ـ بأنه ما من رجل فى الدنيا قبلنى .. سواه ! » .

وارتسمت على شفتى الطبيب ابتسامة غريبة ، فلقد عرف كل ما كان يرجوه ، بل واكثر .. والقى نظرة على الوردة البيضاء التى كانت تزين عروة سترته ، فاذا هى لم تذبل ، بل اكتمل تفتحها وبهاؤها .. ومضى يبحث ـ وهو مرتاح القلب ـ عن زوجته الحبيبة « فلاور » ، وانطلق معها مسافرين إلى لندن !

الفصل الأربعون

اشعة القمر تفيض على الشرفة ، فضية ، بيضاء ، صافية .. وقد خرج جارث وجين ليستمتعا بضيائها وبهائها .. كما استطابا فى الليل دفاه وسكونه ، وجلسا مستمتعين بالراحة والانسجام !

كانت عزلتهما تامة ، والاستجمام والراحة كاملين. وما لبث جارث أن تناول إحدى وسائد مقعده ، فطرحها على أرض الشرفة ، وجلس تحت قدمى زوجته ، وأسند رأسه إلى ركبتيها ، بينما أخذت هى تربت شعره وجبينه فى نعومة وحدب . وكان بين لحظة واخرى يرفع يده ليقرب يدها إلى شفتيه ويلثم الخاتم الذى لم تكتحل برؤيته عيناه .. وطالت فترات من الصمت الحانى بينهما !

وبينما كانا يسبحان فى لجج الخيال والهيام ، إذا بلبل يغرد بين الأحراش ، وكأنه يردد : « نشوة .. عذبة ، عذبة ، عذبة ! » . فقالت جين : « يا حبيبى ، أن هذا التغريد يذكرنى بلحن أود لو تعيد غناءه لى .. لست أدرى اسم الأغنية ، ولكنى اعتقد انك تذكرها .. فى ليلة الاثنين الماضى ، بعد أن رأيت انا الصورتين ، وشرعت المرضة روزمارى فى وصفهما لك .. كان قلبانا ـ إذ ذاك ـ يتعذبان . وصعدت مبكرة إلى حجرتى ، لأكتب خطاب اعترافى لك ، بينما أمرت أنت سمسون بألا يوافيك قبل الساعة الحادية عشرة ، وبينما كنت

اسطر اعترافى ـ فى الحجرة التى تعلو المكتبة ـ تناهت إلى سمعى أنغام البيانو تحت أصابعك .. وبعد عدة مقطوعات معروفة ، تسلل إلى أذنى ـ فجأة ـ لحن لم أسمعه من قبل ، وقد فاض السحر من أنغامه .. إذ ذاك وضعت قلمى ورحت أنصت ، وأنت تكرر العزف مع بعض تعديلات بسيطة ، وكأنك كنت تستذكر اللحن . ومما زاد بهجتى وفرحى انك بدأت تغنى الانشودة ، ففتحت النافذة على مصراعيها واتكأت على حافتها ، فاستطعت ان التقط بوضوح بعض كلماتها .. وقد انطبع فى ذاكرتى كلمات قلائل فيها عاطفة وحزن ينفذان إلى الأعماق ، مما طاح بصوابى ، وكدت أهرع إليك ! » .

فلثم جارث راحتها فى حنان، وقال: « وما هذه الكلمات؟» .

فقالت : « اهدنا يا يسوع ـ حين ينفض عنا الجميع ـ إلى موطن الأمان ! » . ثم اردفت : « أواه يا حبيبى ! ابة شجون أثارتها عبارة : ! حين ينفض عنا الجميع ! » .. لابد أن مؤلف الأنشودة قاسى عذابا كذلك الذى قاسيناه .. ثم توالى اللحن والأنشودة ، فردا الأمل والغبطة إلى نفسى ، وجددا شجاعتى فعدت إلى قلمى . وواصلت الكتابة . ومرة أخرى، انطبعت فى ذاكرتى هذه العبارة : « حيث أنت يا نور الأنوار الأزلى .. يا رب الجميع ! » . فما هذه الأنشودة يا جارث ؟ وهل لك أن تنشدها لى الآن يا حبيبى ؟.. الآن ، وهنا ، فان بى رغبة مباغتة إلى سماعها منك ، ولست أطيق انتظارا ! » .

واعتدل جارث فى جلسته ، وهو يطلق ضحكة قصيرة هانئة ثم قال : « يلذ لى يا جين أن أسمعك تقولين : « لست أطيق انتظارا» . فما هذا من شيمك، وأنت الموفورة الجلد والصبر! .. أما الأنشودة فقد عثرت على كلماتها فى كتاب ترانيم كاتدرائية (ورسيستر) ، فى مثل هذا الوقت من العام الماضى، وشعرت بما فيها من جمال يفوق كل ما صادفت من قبل .. فكتبت كلماتها فى مذكرتى ، ثم حفظتها وطبعتها على صفحة ذاكرتى ، لحسن الحظ . ولسوف أنشدها لك الآن ، بلا شك، ما دمت ترغبين . ولكنى أخشى الا يستقيم اللحن تماما بدون موسيقى . غير انه ما من قوة فى الأرض تستطيع ان تغرينى بالتحرك من هنا فى الحال ! » .

وهكذا جلس فى ضوء القمر وظهره نحو « جين » ، ووجهه إلى السماء ، ويداه تضمان ركبتيه . وشرع يغنى . وكان المران المتوالى قد زاد من رخامة صوته ومرونته ، فاستطاع أن يؤدى اللحن بدقة .. وأصغت إليه « جين » بقلب جياش:

« انقضى الصباح الوضاء ، واستنفد سريعا مكنونات مخزنه الذهبى ..

« وبدات ظلال النهار المرتحل .. تزحف من جديد ..

« ما حياتنا سوى فجر يولى الأدبار ..

« لا يلبث ضحاه الوهاج أن ينقضى سراعا ..

« فاهدنا يا يسوع ـ حين ينفض عنا الجميع ـ إلى موطن الأمان ، اخيرا ،

« حيث يتشح الملائكة ببياض لا شائبة فيه ،
« ولا تهبط ظلال الغروب ابدا .. حيث انت ،
« يا نور الانوار الازلى .. يا رب الجميع ! » .

***

وسرى الخشوع الذى فى العبارة الأخيرة ، فى سكون الليل ، ثم تلاشى ورفع « جارث » يديه عن ركبتيه ، ومال برأسه إلى ركبة زوجته ، وهو يتنهد فى ارتياح بالغ .

وما لبثت « جين » أن هتفت : « جميل ! جميل يا جارثى! .. لعل ذلك راجع إلى انك انشدتها .. وفى هذه الليلة بالذات .. ولكنها تبدو أجمل ما سمعت ، آه ، ما أكثر ما تنطبق على حالنا . فى هذا اليوم بالذات !. » . فبسط جارث ساقيه ، وقال : « آه ، لست أدرى !.. حقا اننى اشعر باننى بلغت موطن الأمان » .. لا لأن الجميع انفضوا ، وإنما لأننى ظفرت بالجميع إذ ظفرت بك يا جين ! » .

فانحنت جين والصقت وجنتها براسه، وقالت : « يا فتاى .. لك منى كل ما أملك ان أعطى .. كل شىء ! ولكن اذكر يا حبيبى أن كل شىء بدا فى تلك الأيام السوداء ــ التى ولت وانقضت ــ وقد انفض عنا . خيل لكلينا بأن الجميع قد ذهبوا عنا نحن الاثنين « اهدنا يا يسوع ! » .. فهو الذى قادنا بسلام خلال الظلام ، إلى ما نحن فيه الآن .. واحب شىء إلى نفسى يا جارث هو أن أدرك أنه رب الجميع .. رب مسراتنا، رب حبنا ، رب حياتنا .. حياتنا الزوجية ، يا زوجى !..

فما كنا لنصبح معا فى سلامة وهناءة ، ما لم نكن قد غدونا واحدا .. فيه . أتشعر ــ أنت الآخر ــ بهذا الشعور يا جارث ؟ » .

وتحسس جارث يدها اليسرى حتى أمسك بها ، ورفعها إلى مستوى وجهه ، والصق وجنته بها . ثم لف الخاتم حول اصبعها ليقبل كل جزء منه .. وقال : « أجل يا زوجتى .. أحمد الله إذ أستطيع ان اقول فى كل الأمور : انت يا نور الانوار الازلى ، رب الجميع ! » .

وما لبثت جين أن قالت : « آه ، والموسيقى يا جارثى .. من الذى وضعها ؟ » .

فضحك جارث فى سرور واستحياء ، وقال : « ما أسعدنى إذ تبدين إعجابك بها يا جين .. وها انذا اعترف بإدانتى!.. فان الموسيقى من وضعى ! ذلك لأننى لم أسمع ترنيمتها ، فى حين أن كتاب الترانيم لم يحتو إلا على الكلمات .. وفى تلك الليلة القاسية ، حين مست الصغيرة روزمارى الجراح بقسوة، بحديثها عن السيدة صاحبة الصورة ، وعما يمكن أن يكون عليه حبها ، إذا الماضى يرتد إلى ذهنى وتمثلت .. « الزوجة » ، ثم « الـ .. » ، أعنى الصورة الثانية .. وشعرت عقب ذلك بأننى مهيض الجناح ، كسير القلب ، وحيد .. فلمعت فى ذاكرتى تلك الترنيمة المشجعة ، التى تقول : « اهدنا يا يسوع ــ حين ينفض عنا الجميع ــ إلى موطن الأمان » .. ولاح لى ــ فى تلك الليلة ــ بأن الجميع قد ذهبوا حقيقة عنا ، ولم أستبن أمامى موطنا أتطلع إليه فى هذه الدنيا .. » .

ثم نهض فعدل من جلسته ، والقى برأسه على صدرها . وقال : « واخيرا بلغنا موطن الأمان ! » .

ثم هدأ ساكنا لفترة استأنف بعدها الحديث : « وهكذا عادت تلك الكلمات إلى ذهني ، فرحت ارددها لأتخلص من براثن اليأس ، وانا امر بأصابعي على البيانو .. وخيل إلي أن الكلمات والنغمات تتحول إلى صور كتلك التي كانت تطوف بذهني حين أهم برسم لوحة .. وشعرت في أطراف أصابعي بذات الوخز الذي أحس به كلما هبط على إلهام الرسم .. وبدلا من ان أمسك بالفرجون لأرسم ، رحت أوقع على البيانو ، وكأنني أرفع صلاة حارة ، فاذا بكل مقطع من مقاطع الترنيمة يبعث في نفسي ما اكتنزته كلماته من مشاعر ، حتى جاء المقطع الأخير ، فاذا هو تعبير صادق لليقين والعبادة والأمان .. وهكذا ترين انني لم أكن أكرر الأنشودة من قبيل التدريب ، وإنما كنت أصور مقاطعها بالنغم ، ثم اربط بعضها إلى بعض .. لكم أنا مغتبط لإعجابك بها يا جين .. آه . هل المطر يتساقط ؟ .. لقد هبطت قطرة على وجهي ، واخرى على يدي .. » .

ولم تحر « جين » جوابا ، ولكنه احس بأنفاسها المتهدجة ، فادرك انها تبكي . وقفز مستويا على ركبتيه هاتفا : « جين ! ماذا جرى يا حبيبي ؟ .. لماذا ؟ .. يا إلهي ! لماذا لا أقوى على رؤيتها ؟ » . وإذ ذاك سيطرت جين على عواطفها ، ورفعت « جارث » فأجلسته إلى جانبها ، وهي تهمس : « صه يا حبيبي ! ليس بي من شيء سوى أنني بلغت أوج الغبطة ! .. إنك وضعت لحنا من أروع الألحان ، ولا تصبو إلى ترديده

زوجتك الفخورة وحدها ، بل كل امرأة على دراية بالغناء ! .. أتدرك يا جارثي قيمة ذلك ؟ .. ان ملكة الابتكار لديك قوية ، فلما تعذر عليها أن تجد منفذا خلال العين واليد ـ كما كان شأنها وأنت تبصر وتمارس الرسم ـ اتجهت إلى الأذن واليد .. أواه ، تأمل معنى هذا يا جارث ! .. أن العالم ينبسط امامك من جديد ! .. » .

وطوقته بذراعيها في طرب واعتزاز ، وقالت : « الحمد لله .. انني أعرف ما يكفي لكي أسطر العلامات الموسيقية لألحانك .. تصور يا « جارث » أننا سنذهب يوما إلى الكاتدرائيات الفخمة ونستمع إلى ترانيمك .. وان أعظم الأصوات ستتنافس على غناء ألحانك !.. وتصور القلوب النابضة الخافقة والنفوس التي تهزها الصور النغمية .. تماما كما كنت في الماضي توقظ في نفوس الجميع ـ بصورك الرائعة الناطقة ـ فيض التقدير والفهم الكامل للجمال » .

فرفع جارث رأسه ، وقال : « أحقا ما تقولين ، يا جين ؟ .. هل بلغ اللحن هذا الحد من الجمال ؟ » .. كم أنا مغتبط بذلك .. والآن دعينا نطرق حديثا آخر . آه ، دعيني أفضي إليك بسريرة نفسي .. أن الحاضر أروع من أن يدع مجالا للتفكير في المستقبل .. فلنتحدث عن حاضرنا ! » .

وافتر ثغر «جين» عن ابتسامة ، هي ابتسامة «الزوجة» .. عميقة ، رحيمة ، رقيقة ، تحمل كل معاني الاستسلام . وانحنت نحوه، وأسندت وجنتها إلى رأسه، وقالت : « نعم، يا حبيبي ، لنتحدث عن الساعة التي نحن فيها ، إذا حلا لك ذلك ، فابدأ أنت ! » .

— تأملى دارنا يا جين ، وصفيها لى كما تبدو لعينيك فى ضوء القمر !

— لونها رمادى ، هادىء ، مريح للنظر .. يبعث الشعور بالمؤنل المريح يا جارثى . وانوار حجرة المكتبة ما تزال كما تركناها ، والنافذة الفرنسية مفتوحة على مصراعيها .. والمصباح — الذى يعلو الحامل — يبدو من هنا بديع المنظر ، تحت ظلته القرمزية ، فهو يسكب اشعة دافئة حمراء فى الداخل .. كما انى أرى شمعة واحدة فى حجرة المائدة ، واعتقد ان سمسون منهمك فى إعادة الأدوات الفضية لأماكنها .. ثم ، هناك نور فى الحجرة الوسطى . وأرى مارجرى رائحة غادية، تضع امتعتى فى صوانات الحجرة ، وتنمق العاديات والأوانى الصغيرة بذوقها وعنايتها .. كما أنى أرى ضوءا فى حجرتك المجاورة لحجرتى .. ها هى ذى مارجرى قد ولجتها .. وها انذى اراها تتفقد كل شىء لتتأكد من انه فى مكانه الصحيح .. يا للعجوز المخلصة الطيبة القلب! جارث، ما احلى أن نكون اليوم فى دارنا ، يحيط بنا — ويقوم على خدمتنا — افراد يتفانون فى حبهم الصادق لنا !

فقال لها جارث : « ما اعظم سعادتى إذ المس فيك هذا الشعور ، فقد كدت اخشى أن ينتابك بعض الحسرة إذ تشتهين أن تستمتعى بشهر عسل ، كما يفعل سوانا .. ولكن حاشاك، فانى لموقن من ان كل ما كانت تصبو إليه نفوسنا هو أن يضمنا سقف واحد ، ونصبح جسما وروحا واحدة .. اليس كذلك يا زوجتى ؟ » . فأكدت « جين » قوله !

***

وسمعا ساعة داخل الدار تدق التاسعة ، فقال « جارث » بصوت خافت : « يا للساعة القديمة العزيزة .. لقد اعتدت أن أسمعها تدق التاسعة ، منذ كنت طفلا فى مهـدى .. حين كنت أجهد نفسى فى أن أبقى مستيقظا حتى أرى أمى تسير فى ثوبها الفضفاض ، ذاهبة إلى حجرتها . وكان المتبع ان يترك الباب الذى يفصل بين حجرتينا مفتوحا على مصراعيه ، فكنت المح منه الشمعة المضيئة فى حجرتها ، وهى ترسل شعاعا من نورها على سقف حجرتى .. وما أن ارى خط النور فوقى ، حتى كنت استغرق فى نوم عميق ، إذ كانت راحتى وسعادتى فى أن احس بوجودها بجوارى ، وانها لن تعود إلى الدور السفلى . هل اعجبتك الحجرة يا جين ؟.. ما رايك فيها ؟ » .

— لكم اعجبتنى يا عزيزى .. أنها حجرة جميلة ، ولها جلالها القدسى لأنها كانت حجرة تلك الروح الغالية .. أمك ! هل علمت أن العمة « جورجينا » قد اصرت على أن تتفقدها ، واشارت بضرورة إعادة طلائها باللون الأبيض وكساء الجدران بالورق ؟.. ولكنى لم اقر رغبتها ، وأبيت تنفيذها ، لأن السقف القديم كان ثمينا .. كان منقوشا باليد ، وكذلك الجدران .. ولا بد انك شغفت فى صغرك بالصور التى رسمت فيها .. إنك لا تزال تذكرها حتى الآن ..

— ان فنانا فرنسيا قضى هنا مدة طويلة ، فأفرغ فيها فنه، إذ رسم مناظر المياه والأزهار والطيور المائية البديعة وقد وقفت وسيقانها فى المياه .. يخيل لى يا جين أننى أستطيع التنقل فى الحجرة وانا معصوب العينين .. أتحسس بحالتى

الحاضرة ، وأن أشير بيدى ـ بكل دقة ـ إلى كل بقعة رسم فيها أحد تلك الطيور !

وقالت جين فى حنان بالغ ، وقد اعتصر قلبها ما كانت تسمعه منه أحيانا من زلات اللسان التى تنم عن أنه كان ينسى أنه فاقد البصر : « ستفعل ذلك يا حبيبى .. ومع الوقت ، يجب أن تخبرنى بكل شىء كنت تفعله أو تحبه فى صغرك ، فانى أود معرفتها كلها .. وهل احتفظت بذات الحجرة التى تجاور حجرة أمك ؟ » . فأجابها جارث : « منذ وعت ذاكرتى، ظل الباب الذى يصل الحجرتين مفتوحا دائما .. أما بعد موت أمى فقد أغلقت ذلك الباب ، اللهم إلا فى ليالى عيد ميلادى . فكنت اتركه مفتوحا ، حتى إذا ما استيقظت فى ساعة مبكرة ولمحت الباب ، تقفزت من فراشى مهرولا إلى حجرتها .. وكنت أتخيل دائما وجودها فى الحجرة لأحظى من شخصها العزيز بالتحية والتهنئة بعيد ميلادى ! .. وبطريقة ما ، كشفت مارجرى الأمر ، فلما كان عيد ميلادى التالى ، وضعت ورقة كبيرة على الوسادة ، كتبت فيها بخطها المنمق : « أعاد الله عليك العيد فى أحسن الأحوال يا سيد جارثى » .. وكانت هذه اللفتة مؤثرة جدا ، ولكنها افسدت الخيال اللذيذ .. فبقى الباب بعد ذلك موصدا ! » .

ثم سادهما صمت طويل ، لم يكن يقطعه سوى بلبلان راحا يتناوبان الشدو ، بين الأشجار البعيدة .. وعاد جارث يلف الخاتم حول أصبع جين ، وسألها وفمه ملتصق به : « قلت انك رأيت مارجرى تدخل من حجرة إلى أخرى ، فهل الباب مفتوح بينهما الليلة ؟ » .. فعقدت جين يديها خلف رأسه

.. يدان قويتان ثابتتان برغم ما اعتراهما فى اللحظة من ارتجاف . ثم الصقت وجهه بوجهها ، كما فعلت ليلة الشرفة بقصر (شنستون) ، منذ ثلاث سنوات ، وقالت : « نعم يا حبيبى .. إنهما متصلتان الليلة » .

فصاح جارث : « جين .. أواه يا جين ! » . ثم افلت من يديها ، ورفع وجهه الولهان إلى وجهها ، فتداعى جلد جين ، وهتفت : « أواه يا حبيبى .. خذنى بعيدا عن ضياء القمر الرهيب ، فانى لم أعد أحتمل أن أراه .. أنه يذكرنى بشنستون ، وبالضرر الذى الحقته بك .. كأنه حجاب يفصل بينك وبينى .. هذا الضياء المتألق الذى لا يمكنك أن تراه !» . وانهمرت دموعها فوق وجهه المتجه لها .

❋ ❋ ❋

عند ذلك نهض جارث واقفا ، وقد دبت فيه غريزة الرجولة والسيادة ، وحق السيطرة ، ومتعة التملك .. كل هذه المشاعر هبت فى داخله ، فاذا به الطرف الأقوى ـ فى الزواج ـ برغم عماه ! .. وكان على جين أن تركن إليه فى كثير من الضروريات ، حتى وهو عديم الحيلة ! .. وما لبث أن جذبها بيديه ـ بكل حنان ورقة ـ فأوقفها واحاطها بذراعيه . ووقف أمامها ونور حبه العارم يضىء وجهه بسناه الباهر ، ثم قال لها : « يا زوجتى المحبوبة .. يا أحلى شىء فى الحياة ، لن يقوى نور ولا ظلام على التفريق بينك وبينى . وما كان نور القمر الهادىء ليقوى على انتزاعك ، ولكن شعورك بأنك لى سيزداد اكتمالا فى الظلام الساكن الناعم . لأنه لا يضم شيئا لا نملك أن نتقاسمه ! .. تعالى معى إلى حجرة المكتبة . حيث

نبعد الأضواء ونسدل الستائر . وستجلسين على المقعد المجاور للبيانو ، حيث كنت جالسة فى تلك الليلة الرائعة التى وجدتك فيها . . تعالى يا معبودتى ، وسأقوم ـ أنا الذى أرى فى الظلام بعين الوضوح الذى يرى به فى النور ـ بعزف « المسبحة » لك ، ثم ترنيمة « تعالى أيتها الروح الخالقة » ، وسأغنى لك الشطرة التى كانت موردا خفيا للسلام والطمأنينة ، وكانت قوة صانت كل حياتى النفسية طوال سنين الفراق القاسية !» .

وشد جارث يدها حول ذراعه ، وسارا معا وهما ينشدان فى خفوت :

« أنح بنورك الدائم الأزلى قوة لظلمة أبصارنا العمياء

« وامسح بالزيت وجوهنا الملوثة .. واملأنا فرحا بفيض مجدك .

« وابعد عنا أعداءنا ، وهب السلام وطننا

« وحيث تكون مرشدنا ، فلن يكون ثمة سوء » .

. . . .

وهكذا سارت جين معتمدة على ذراع زوجها ، بينما كانت تقوده وهى مستندة إليه . . سارت إلى السعادة الدائمة ، الكاملة فى بيت الزوجية !

((تمت))

رقم الإيداع : ٤٣٧٩
٦ ـ ٠٨٠ ـ ١٦٣ ـ ٩٧٧


المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة ـ ☎ ٢٨٢٣٧٩٢ ـ ٢٨٣٥٥٥٤



عزيزى القارئ :

كان أول ما لفت نظرى إلى هذه الرواية الصبغة المحلية التى اقترنت ببدايتها . إذ يبدأ الفصل الأول منها وبطلتها «جين شامبيون» جالسة تحتسى قدحًا من الشاى فى شرفة فندق (مينا هاوس) القديم المطل على أهرام الجيزة . وهى تطالع العدد الأخير من جريدة (الأحد) التى تصدر فى لندن .. وفوجئت بخبر منشور فى تلك الصحيفة يفيد أن الشاب الذى تعتزم الزواج منه ـ وهو الفنان « جارث دالمين » ـ قد فقد بصره نهائيًا . فتسرع عائدة إلى لندن كى تقف إلى جواره فى محنته .. وكان «جارث» يصغرها سنا . وكان باهر الجمال . ذائع الصيت . واسع الثراء . تتهافت عليه أجمل حسان المجتمع الراقى . ويسعى دائمًا إلى أن يحيط نفسه بكل جميل . فتدرك أن زواجهما لن يكتب له التوفيق . لأن طول المعاشرة لن يلبث أن يفتح عينى « جارث » على دمامتها . لذلك ترفض يده . ولا تجد علة تبديها له سوى صغر سنه . وأنه فى نظرها (مجرد غلام) . وتشتد بها الحسرة وتباريح الحب فلا تلبث أن تقوم برحلة حول العالم . وفى مصر تقرأ نبأ فقدانه البصر . فتسرع عائدة إليه كى تواسيه وتخفف عنه مأساته .. والآن .

تعال نقرأ معًا هذه الرواية المشوقة !

حلمى مراد